

عبد الرحمن ابن خلدون

المقدمة

حققتها وقدم لها وعلق عليها
عبد السلام الشدادي
الطبعة الخاصة في خمسة مجلدات

الجزء الرابع

خزانة ابن خلدون
بيت الفنون والعلوم والآداب



هذا العمل نشر بدعم من وزارة التربية الوطنية والتعليم العالي وتكوين الأطر والبحث العلمي بالمغرب في إطار الميزانية التي يديرها المركز الوطني للبحث العلمي والتقني.

إن المركز الوطني للبحث العلمي والتقني لا يتحمل مسؤولية محتوى هذا الكتاب إضافة إلى ذلك إن المركز غير مسؤول عن أي تغيير أو تجديد يطرأ على هذا الكتاب مستقبلاً.

© ابن خلدون - المقدمة

كل الحقوق محفوظة، سواء تعلق الأمر بالنسخ أو الاقتباس جزئياً أو كلياً، أو بالاستعانة الفردي أو الجماعي، وكذا بالنسبة للترجمة أو غيرها.

© الطبعة الأولى : الدار البيضاء 2005

الإيداع القانوني : 2005 / 1912

ردمك : 9954-8607-0-3

ذيل

الرواية الأولى للمقدمة

محققة استناداً إلى مخطوطتي المتحف البريطاني [١]، وليدن [ب]^(١)

(١) انظر الأجزاء الثلاثة الأولى في كل ما يخص الشروح والتعليق. في هذا الذيل نعلم أولاً [١] إلى نهاية هذه المخطوطة، ونورد الروايات عن [ب] في الحواشي. ثم نعلم نص [ب] عندما ينتهي نص [١].

محتويات الكتاب

الجزء الرابع

XIV لائحة الرسوم

1 [الحمدلة]

2 [الديباجة]

المقدمة : في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع بما يعرض
للمؤرخين من المغالط والأوهام

9 الكتاب الأول : في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيه من البدو
والخضر، والتغلب والملك، والكسب، والمعاش، والصنائع، والعلوم،

39 وما لذنك من العلل والأسباب

[تمهيد للكتاب الأول]

الفصل الأول : في العمران البشري على الجملة ومكانه من الأرض
وأصنافه، وفيه مقدمات

51 المقدمة الأولى : في أن الاجتماع للإنسان ضروري

53 المقدمة الثانية : في قسط العمران من الأرض، وقسمة المعمور إلى
الأقاليم السبعة، وذكر ما فيه من البحار والأنهار الكبار

57 المقدمة الثالثة : في المعتدل والمنحرف من هذه الأقاليم، وتأثير الهواء في
ألوان البشر، والكثير من أحوالهم

65 المقدمة الرابعة : في أثر الهواء في أخلاق البشر

70 المقدمة الخامسة : في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما
ينشأ عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم

72 المقدمة السادسة : في أصناف المدركين بالفطرة للغيب من البشر مثل
العرافين والكهان، ويتبين منه حقيقة الرؤيا والوحي

78 123 المقدمة السابعة : في انتقال العمران من جانب من المعمور إلى جانب

- الفصل الثاني : في العمران البدوي، والأم الوحشية، والقبائل، وما
يعرض في ذلك من الأخوان، وفيه أصول وتهديدات
127 [1] [لم يرد الفصل الأول من الفصل الثاني في [1] وسقط عنوان نفس
129 الفصل في [ب]]
131 [2] في أن جيل العرب في الخليقة طيبعي
[3] في أن البدو أقدم من الحضرة وسابق عليه، وأن البادية أصل لعمران
133 الأمصار ومدد لها
135 [4] في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة
137 [5] في أن أهل البدو أقرب إلى البسالة من أهل الحضرة
[6] في أن معاناة أهل الحضرة للأحكام مفسدة للبأس فيهم، ذاهبة
139 بالمنفعة منهم
141 [7] في أن سكنى البدو لا يكون إلا للقبائل أهل العصبية
143 [8] في أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه
[9] في أن الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في الغفر
145 من العرب ومن في معناهم
147 [10] في اختلاط الأنساب كيف يقع
149 [11] في أن الرئاسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم
152 [12] في أن الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية
[13] في أن البيت والشرف بالأصالة والحقيقة لأهل العصبية، ويكون
153 لغيرهم بالمجاز والشبه
[14] في أن البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم
156 لا بأنسابهم
158 [15] في أن نهاية الحسب في العقبة الواحد أربعة آباء
160 [16] في أن الأم الوحشية أفدر على التغلب ممن سواها
162 [17] في أن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك
164 [18] في أن من عوانق الملك الترف وانغماس القبيل في التعميم
166 [19] في أن من عوانق الملك حصول المذلة للقبيل والانتقاد لسواهم
169 [20] في أن من علامات الملك التنافس في الخلال الحميدة وبالعكس

- 172 [21] في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع
- 174 [22] في أن الملك إذا ذهب من بعض الشعوب من أمة فلا بد من عودته
- 174 إلى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية
- 176 [23] في أن المظلوم مولع أبداً بالاعتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته
- 176 وسائر أحواله وعوائده
- 178 [24] في أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملكة غيرها أسرع إليها الفناء
- 180 [25] في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط
- 181 [26] في أن العرب إذا تغلبوا على الأوطان أسرع إليها الخراب
- 181 [27] في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة،
- 183 أو ولاية، أو أثر عظيم من الدين على الجملة
- 184 [28] في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك

الفصل الثالث : في الدول العامة والملك والاختلاف والمراتب السلطانية،

- 187 وما يعرض في ذلك كله من الأحوال، وفيه قواعد وامتعات
- 189 [1] في أن الملك والدول العامة إنما تحصل بالقبيل والعصبية
- 190 [2] في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية
- 193 [3] في أنه قد تحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغني
- 193 عن العصبية
- 195 [4] في أن الدول العامة الاستيلاء، العظيمة الملك، أصلها الدين،
- 195 إما من نبوة أو دعوة حق
- 196 [5] في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية
- 196 التي كانت لها من عددها
- 198 [6] في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم
- 202 [7] في أن كل دولة لها حصّة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها
- 204 [8] في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة
- 204 القائمين بها في القوة والكثرة
- 206 [9] في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قلّ أن تستحكم
- 206 فيها دولة

- 209 [10] في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد
- 211 [11] في أن من طبيعة الملك الترف
- 212 [12] في أن من طبيعة الملك الدعة والسكون
- [13] في أنه إذا استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول
- 213 الترف والدعة أقبلت الدولة على الهرم
- 215 [14] في أن الدولة لها أعمار طبيعية كالأشخاص
- 218 [15] في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة
- 222 [16] في أن الترف يزيد الدولة قوة إلى قوتها
- 224 [17] في أطوار الدولة واختلاف أحوالها باختلاف الأطوار
- 227 [18] في أن آثار الدول كلها على نسبة قوتها في أصلها
- [19] في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصيته بالموالي
- 233 والمصطنعين
- 235 [20] في أحوال الموالي والمصطنعين في الدول
- 237 [21] فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه
- [22] في أن المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص
- 239 بالملك
- 241 [23] في حقيقة الملك وأصنافه
- 243 [24] في أن إرهاب الحد مضر بالملك ومفسد له في الأكثر
- 245 [25] في معنى الخلافة والإمامة
- 247 [26] في وجوب الخلافة وشروطها
- 254 [27] في انقلاب الخلافة إلى الملك
- 263 [28] في معنى البيعة
- 265 [29] في ولاية العهد
- 269 [30] في الخطط الدينية للخلافة
- 274 [31] في اللقب بأمر المؤمنين وأنه من سمات الخلافة
- 279 [32] في معنى البابة في الملة النصرانية
- 282 [33] في مراتب الملك والسلطان وألقابها

- 305 [34] في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول
- 307 [35] في شارات الملك والسلطان الخاصة به
- 317 [36] في الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها
- 321 [37] في الخنادق على المعسكر
- 324 [38] في أسباب الغلب في الحروب
- 327 [39] في الجباية وسبب قتلها وكثرتها
- 329 [40] في ضرب المغارم في الدول
- 331 [41] في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في وسط الدولة

لائحة الرسوم

- XVI نسخة صفحة من بداية مخطوطة المتحف البريطاني Add 9475 (أ)
- XVII نسخة صفحة من بداية مخطوطة ليدن جوليوس 48 (ب)
- 49 دائرة السياسة عن مخطوطة المتحف البريطاني Add 9475

الكتاب الثاني

الادب... كتاب المقدمة... كتاب الاول في الغمران

الكتاب الاول في الغمران

وذكر ما يميز من... كتاب الثاني في اختيار العرب

الكتاب الثاني في اختيار العرب

ومما يميز... كتاب الثالث في اخبار البربر

الكتاب الثالث في اخبار البربر

ومن ايام... كتاب الرابع في اخبار العرب

الكتاب الرابع في اخبار العرب

في ايام العرب... كتاب الخامس في اخبار العرب

الكتاب الخامس في اخبار العرب

ومما يميز... كتاب السادس في اخبار العرب

الكتاب السادس في اخبار العرب

[نُعْوا]¹

حمد لله الذي له العزة وحجرات، وبه ملك والمكوت، وله الأسماء
الحسنى ولنعمت، اعلم فلا عزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض ولا
يعوت أنشأنا من الأرض نسم، وسعمر فيها أحيالاً ونما، ويسر له منها
أزرقاً ونسماً نكتفيا الأرحام والنبوت، ويكف بررق ونقوت، ونسب
لأيام ونوفوت، وتغزور الأحرار التي خط عبك كسها لموقوت وله نقاء
ونشوت، وهو خي لذي لا يموت

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي العربي المكتوب في
التوراة والإنجيل معوت، الذي تمخص لفصاه كبر قبل أن تعقب لأحد
ونسوت، ويتبين رحن ونهتوت، وشهد بصدقته حمم ونعتكوت،
وعلى الله وصحابة الذين هم في بصر دبه الأثر نعبده الصست، ولشمل
الجميع في مطهرته ونعدوهم أشمل شتيب صلى الله عليه وعليهم
انص بالإسلام حده امسحت، وانقطع بالكفر حسه ستوت، وسنم كثيرًا

¹ انقطع عنوا وانقطع بغير لا في [] وودعوا ناسبي في [ب] كدع عنوا بغير
ودعوا اسند وخر، تأليف شنج لإدم دعاء العلامة اعمدة أنور يد عبد الرحيم وي بدين
بن حندوب عمر لله به وجميع اسمهم
2 جاء قبل حمدته في [ب] سنة لله رحمن الرحيم قال شيخنا وأسد بن لإدم دعاء العلامة
أنور يد عبد الرحيم وي بدين بن حندوب
³ والعكسوت، والصب واخوت، وعلى [ب]

[الديباجة]

ثم بعد، فإن من لتاريخ من تصور التي تند وله لأهم والأحداث، وتُشدُّ إليه الركائب و لرحل، وتسمو إلى معرفته السوفة والأغفل، وتناس في المسوك والأقوال، وتتساوى في فهمه العدماء والجهل. إدهو في طاهره لا يزيد على أخطر عن الأيام والدول، والسوانق من القرون لأول، تُنمَّق لها الأقوال، وتُصرف فيها الأمثال، وتُصرف بها الأندية إذا عصَّها الاحتمال، وتؤدي لاشان حليقة كيف نقلت بها الأحوال، واتسع للدول النطاق فيها والمنجل، وعَمَّروا لأرض حتى نادى بهم الارتحال، وحن منهم الزوال. وفي بطنه نظر وتحقيق، وتعديل للكائنات ومعدنها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأساسها عميق. فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وحدير بأن يُعدَّ في علومها وخليق.

ور فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعوا أخبار الأيام وجمعوها، وسَطَّروها في صفحات الدفاتر وأودعوها وخلطها المتطعلون بدسائس من البطل وهمو فيها، وسندعوها، وزحرف من الروايات المصعفة لفقوها ووضعوها. واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم و تبعوها، وأدَّوها إلينا كما سمعوها. ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها، ولا رفضوا ترَّهت لأحاديث ولا دفعوها

فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغلب كليل، ولغلط والوهم سيب للأخبار وحليل، والتقييد عريق في الأدبيات وسليل، والتطفل على النصوص عريض طويل، ومرعى الجهل بين الأسماء وسيل. والحق لا يُفَوِّمُ سُلْطَنُهُ، واباطل يُقَدِّفُ بشهاب النظر شيطانُهُ، والناقل إنم هو عيسى ويقل، والبصيرة تنقد الصحيح إذا تمحل، والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل.

هذا وقد دَوَّنَ الناس في الأخبار وكثروا، وجمعوا تواريخ الأمم والدول في العالم وسطَّروا. والدين ذهبوا بفضل الشهرة والإمامة لمعتبرة، واستمرعوا دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخرة، فهم قليلون لا يكادون يحاورون عدد الأسماء، ولا حركات لعوامل، مثل ابن إسحاق، والطبري، وابن الكلبي، ومحمد بن عمر الواقدي، وسيف بن عمر الأسدي، والمسعودي، وغيرهم من المشاهير. والتميّزين عن الجماهير. وإن كان في كتب للمسعودي والواقدي من المطعن والمعمز ما هو معروف عند الأثبات، ومشهور بين حفظة الثقات. إلا أن الكفة اختصاصهم بقول أخبارهم واقتفاء سننهم في التصنيف واتداع آثارهم والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم. فلعمران طبائع في أحواله تُرَخِّعُ إليها الأخبار، وتُحْمَلُ عنهما لروايات والآثار.

ثم إن أكثر لتواريخ هؤلاء عامة المناهج والمسالك لعموم الدولتين صدر الإسلام في الآفاق والممالك، وتنولها السعيد من الغايات في المآخذ والمنازل. ومن هؤلاء من أوجب ما قبل الملة من لدول والأمم، والأمر العمم، كالمسعودي ومن بعد منحه.

وجاء بعدهم من عدل عن الإطلاق إلى التقييد، ووقف في العموم والإحاطة عن الشؤون السعيد فقيد شوارد عصره، واستوعب أخبار أفاقه وقطره، واقتصر على أحاديث دولته ومصره، كما فعل ابن حبان، مؤرخ الأندلس والدولة الأموية بها، وابن الرقيق، مؤرخ إفريقية والدولة التي كانت بالقيروان.

ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد ولبد الطبع أو متسدد^١، يسبح على ذلك
السوء، ويحتدى منه بالمثل، ويدهل عما أحالته الأيام من الأحوال واستدلت
به من عوائد الأمم والأحيان فيحلبوا الأحرار عن الدور وحكيات لوفيق
في بصور لأول صوراً قد تحرّدت عن موادها، وصفاً، وتصيب من
أعمدها، ومعارف تستنكر لدجل بطاريفها وتلاذها، إنما هي حوادث لم تُعنه
أصولها، وأنواع لم تُعترس أحاسنها ولا تحققت فصولها، يكرّرون في
موضوعاتها لأحبار المتدولة بأعبائها، اتداع من عبي من المتقدمين بشئها،
ويغصوب أمر الأحيال الناشئة في ديوانها، بما عور عليهم من ترجمتها،
فتستعجم صحتهم عن بيانها، ثم إذا تعرّضوا لذكر الدولة سموا خبرها
نسفاً، محافطين على قلوبها وهماً أو صدفاً، لا يتعرضون لبيانها، ولا يدكرون
السبب الذي رفع من رأيها وطهر من آيتها، ولا عنة الوقوف عند عايتها.
فيبقى الناظر منطلعاً بعد إلى مبادئ الدور وممرتها، معشش عن أسباب
تراجمها أو تعاقبها، بحثاً عن المنفع في نايها أو تناسها، حسبما نذكر ذلك
كده في مقدمة للكتب

ثم جاء حروف يافراط الاختصار، وذهبوا إلى الاكتفاء بأسماء الملوك
ولافتصار، مقطوعة عن الأنساب والأحبار، موضوعة عن عبيها أعداد أيامهم
بحروف العمار، كما فعله ابن رشيقي في ميزان العمل، ومن اقتفى هذا الأثر
من لهم. وليس يُعتر لهؤلاء مقادراً، ولا يُعدّ لهم ثبوت ولا تنقل، لما ذهبوا
بالعوائد، وأحبوا المداهب المعروفة للمؤرخين والعوائد

ولما طالعت كتب لقوم، وسرت عور الأمم وليوم، انتهت عين لقريحة
من سنة العصة والموم، وسُمّت التصنيف من عسي وأنا المفلس أحسن
السوم. فأسأت في التاريخ كتاباً، رفعت فيه عن أحوال الناشئة من الأحرار
حجاً، وفصلته في الأحرار والاعتبار بدنا باب، وأدبت فيه لأولية لدور

(١) الطبع وبعض أو متسدد [ب]

والعمران عدلاً وأسباباً. فصرته على أخبار الحسين الدين عمرو معرب في هذه لأعصر. ومنوا أكوف الصواحي منه والأمصير. وما كان لهم من الدول الطوار ولقصار. ومن سيف لهم من المنوك والأصير. وهما العرب والبربر إدهما احيلان لندان عُرف بالمعرب مؤههما. وطان فيه على الأحقاب مؤههما، حتى لا يكاد يُتصور عنه مؤههما، ولا يعرف أهيه من أجيال لادميين سواهما

فهدت مباحته نهدي. وفهرته لأفهم العمداء والخاصة نفريه. وسكنت في نوييه وترتبه مسكن عريث. وحنرته من بين مدحي مدهماً عجباً وطريره متدعه وأسودنا وشرحت فيه من أحوال العمران والتدبير وما يعرض في الاجتماع لإيسى من الأعراس لداقية ما يبعث بعد لكوئى وأسبها، ويُعرف كيف دحل أهل لدون من ثوبها، حتى تنزع من تنقيب بدك. وتقف على أحوال ما قست من الأيام والأحيان وما بعدك.

ورثته على مقدمة وثلاثة كتب

لمقدمة في فصل علم الماريح وتحقيق مداها و لإلحاق بمعالص المؤرخين لكتب لأول في العمران وذكر ما يعرض فيه من لغو رخص مداسة من ملك. والسبطان، والكسب. ومعيش. والصنائع. ولعموم. وما نذكر من العمل والأسباب.

لكتب لثاني في أخبار العرب وأحوالهم ودوهم من مدد الحسنة إلى هدا العهد وفيه الإلهام بعص من عصرهم من الأمم مشهيرة ودوهم مثل لئس. ولشرياليين. ونغرس. وسى سرتيل. ولقنط. ويونان. ولروم لكتب الثالث في أخبار البربر ومو ليهم من زبته. وذكر أوليئهم وأحوالهم وما كان لهم بدير المعرب خاصة من الميث والبر

ولما كان مشتتاً على أخبار العرب والبربر من أهل المشرق والمغرب. ولأنهم من عصرهم من لدون الكتب. وأفصح بأنواع الذكرى والعصر في مبادئ

الأحوال وما بعدها من خبر، سميت 'ترجمان العبر وديوان' المشتد والخبر في أيام لعرب و سرير ومن عاصره من ذوي السلطان لأكثر.^١

ولم ترك شيك في أولية لأحيل ولدور، وتعاصر الأمم الأول، وأساب
تصرف وأخو في القروب الخالية والملل، وما يعرض في العمر من دولة
وملة، ومدينة وحة، وعزة ودلة، وكثرة وقنة، وعلم وصناعة، وكسب
وصناعة، وأحوال متقلبة مشاعة، وبدو وحصر، وواقع ومستظر، إلا
واستوفيت^٢ حمته، وأوصحت برأيه وعلمه. فحاء هذا الكتاب فداى
صمته^٣ من العلوم العربية، والحكم المحبوبة القريبة. وأن من بعدها موقن
بالقصور بين أهل العصور، معترف بالعجز عن المضء في مثل هذا القصاء،
راعب من أهل البلد البصاء والعارف المتسعة القصاء في الطربعين الانتقاد
لاعين الارتضاء، والتغمد لما يعثرون عليه بالإصلاح والإعطاء. فالبصاء بين
أهل العلم مزحاة، والاعتراف من النوم مسحاة، وخسنى من الإخوان مرتحة.
والله أسأل أن يجعل أعمالنا حائصة لوجهه وهو حسبي ونعم الوكيل^٤.

وبعد أن استوفيت علاجه، وأثرت مشكاته للمستصيرين وأدكيت سراحه،
وأوضحت بين العنوم طريقه ومهاحه، وأوسعت في فضاء المعارف نطاقه
وأثرت سياحه، التمس له الكفاء الذي يمح بعين لاستبصار فنونه ويلحظ
مذكره الشريفة معياره النصحيح وقانونه، ويميز رسته في المعارف عما دونه.
فسرحت فكري في فضاء الوجود، وأحدث بطري ليل التمام والمهجود بين
التهائم والوجود في العنماء الرقع لسعود، والحنفاء أهل الكرم والحدود،
حتى وقف الاحتير بساحة الكمن، وظهرت أيدي المساعي والاعتماد بذخائر
الأمال، وطافت لأفكار ممتدى لمعارف المشرقة الجمال وحدائق لعلوم

٢ سميه عوان العبر، وديوان [ب]

٣ استوعبت [ب]

٤ بصمه [ب]

٥ لإهداء من يده معرفة بالله يس حر القصر م برد في [ب]

الوفرة الضلال عن اليمين والشمال. فنخت مطي لأفكار في عرصاتها،
 وحبوت محاسن الأظفار على منصاتها، وأنحت بديوها مقاصر بيوتها،
 وأطلعت كوكبا وقادا في فقه حزانها وصوبها ليكون آية للعقلاء يهتدون
 عنده. ويعرفون فصل المدارك الإنسانية في أثره. وهي حزمة مولانا
 لسلطان إمام المحاهد، الفتح لماهد، المتحي منذ حلع التمام ونوت العمام
 بحبي القات الزهد، المتوشح من رداء المواقف والمحامد، وكرم الشماثل
 والمشاهد بأحسن القلائد في نحور المولائد، المتداول بالعزم القوي الساعد،
 والحد لمواتي المسعد، ولحد الطارف والتأد ذوائب ملكهم الراسي
 لقواعد، لكريم المعالي والمصاعد، جامع أشنت العلوم والفوائد، وناظم
 شمل المعارف الشوارد، ومظهر لآية الربنية في فصل المدارك الإنسانية بفكره
 لشق النهج، ورأيه الصحيح، المعاهد، النير لمذاهب والعقائد، نور لده
 لواصح المرشد، وبعته العبدية الموارد، ولطفه الكامن بالمرصد للشدائد،
 ورحمته لكرامة المقاليد، التي وسعت صلاح لزمن الفساد، واستقامة المائد من
 الأحوال والعوائد، ودهست بالخطوب الأوائد، وحبعت على لزوم رونق
 الشباب لعائد، وحبته نتي لا يطلها بكال لجاحد ولا شهت المعاهد،
 لخليفة أمير المؤمنين المتوكل على رب العالمين، أبو العباس أحمد بن مولانا
 لأمير الطاهر المقدس أبي عبد الله محمد بن مولانا الخليفة المقدس أبي يحيى
 أبي بكر، ابن الخفاء سرشدين من أئمة الموحدين لدين جددوا الدين،
 وبهجو السير للمهتدين، ومحو آثار البغاة المفسدين من المحسمة
 ولعنتين، سلاله أبي حفص والفروق، والنسبة البامية على تلك المغارس
 الزاكية ونعروق، النور لمتألي من تلك لأشعة والروق فأوردته من
 مودعها العبي حيث مقر الهدى وريص المعارف خصلة الدي، وفضاء
 الأسرار الربنية فسيح المدى.

والإمامة الكريمة إن شاء الله ينظره الشريف، وفصلها الغني عن
 التعريف، تؤثر له من العناية مهادا، وتمسح له في جانب القول آمادا،

فتوضح بها دلة على رسوخه وإشهاد . ففي سوقها تنفق بضائع الكتاب ،
وعلى حصرتها تعكف ركائب العلوم والآداب ، ومن مدد بضائرها المسيرة
نتائج القرائح والألب .

والله يوزعنا شكر نعمتها ، ويوفر لنا حصوطة لمواهب من رحمته ، ويعيننا
على حقوق خدمتها ، ويجمعنا من السائقين في ميدانها ، المحللين في حومنها ،
ويصفي على أهل إيلتها وما أوى من لإسلام إلى حرم عملتها لبوس حمايتها
وحرمتها ، وهو سبحانه المسؤول أن يجعل أعمالنا حائصة في وجهتها ، بريئة من
شوائب العفنة وشبهتها . وهو حسبت ونعم الوكيل .

المقدمة

في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والإبداع مما يعرض
للمؤرخين من المغالط والأوهام^١

١. بهذه عنوان في [ب] والأوهام، وذكر بعض أسسها

اعلم أن من التريح من عرير المذهب، حم للفائدة، شريف العاية، ذهو
يوقفا على أحوال ناصين من الأمم هي أخلاقهم، ولأسياء في سيرهم،
والموت في دولهم وساستهم، حتى تتم فائدة لاقتداء في ذلك لمن يرومه في
أحوال ندين ولدنيا

فهو مباح إلى ماحذ متعددة، ومعارف متنوعة، وحسن نظر وثقت
يفصل بصاحبها إلى حق، وينكاهه عن المزالات والمعالط. لأن لأحبار
دا عمدا فيها مجرد النقل، ولم تحكم أصول العادة وقوعد لسياسة وطبيعة
تعمرن والأحوال في لاحتماج الإنساني، ولا قيس العائب منها بالشاهد
والخاص بالدهب، فربما لم يؤمن فيها من العثور، ومزلة القدم، والخيد عن
نصدق

وكثير ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل والمعالط في حكايات
لوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل، عثاؤا سميئا، لم يعرضوه على
أصولها، ولا قاسوها بأشبهها، ولا سبروها بمعيار الحكمة ولوقوف على
طوائع بكائنات وتحكيم النظر و بصيرة في الأحبار فصبوا عن الحق، وتاهوا
في ساء لوههم والمعلط، سيما في إحصاء الأعداد والأموال والعساكر إذا
عرضت في احكايات، إدهي مطية الكذب ومطية لهدر، ولا بد من ردها إلى
لأصول وعرضها على القوعد.

وهذا كما نقل المنسعودي وكثير من المؤرخين في حبوش بني إسرائيل، وأن
موسى عليه السلام أحصاهم في التيه، بعد أن حذر من يطبق حمل السلاح

حاصة من ابن عشرين فما فوقها، فكبوا ستمائة ألف أو يزيدون. وبدهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعها² مثل هذا، بعدد من حيوش. فلكل ممكة من امالك حصّة من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها ونصيق عما فوقها، تشهد بذلك العوائد المعروفة والأحوال المألوفة ثم إن مثل هذه الحيوش لدلغة إلى هذا العدد يعد أن يقع بينه رحف أو قتل لضيق ساحة الأرض عنها وبعده إذا اصطفت عن مدى النصر مرتين وثلاثاً³ أو أزيد. فكيف يقتتل هذان الفريقان أو تكون علة أحد لصمين، وشيء من جوانبه لا تشعر بالحاجب الآخر؟ واحاضر يشهد لذلك، فاماضي أشبه بالآتي من الماء بالذء.

ولقد كان ملك لفرس ودولتهم أعظم من ملك بني إسرائيل بكثير، يشهد بذلك ما كان من عبث نُحْتَنَصَرُ نهم ولتهامه بلادهم و سبيلاته على أمرهم وتحريب بيت المقدس، قعدة منهم وسلطاهم. وهو من بعض عمّل مملكة فارس، يُقال إنه كان مَرزُبَانِ المغرب من تحومها. وكات ممالكهم بأعراقين وحراسان وما وراء النهر والأنوب أومع من ممالك بني إسرائيل بكثير، ومع ذلك لم تبلغ حيوش لفرس قط مثل هذا العدد ولا قريباً منه. وعظم ما كانت حموعهم بالقادسية مائة وعشرين ألفاً كلهم متنوع، على ما نقله سيف. قل. وكانوا في أتباعهم أكثر من مئتي ألف. وعن عائشة ولزُهرى أد حموع رُسُثم التي رحف بها لُسُعد بالقادسية إنما كانوا سبب ألفاً، كلهم متنوع.

وأبصاراً فلو بلغ بنو إسرائيل مثل هذا العدد لانتسح نطاق ملكهم ونفسح مدى دولتهم فإن لعمالات والممالك في الدول على نسبة الحامية والقبيل القائمين بها في قتلها وكثرتها، حسماً يتبس في فصل الممالك من لكتد

(2) واتساعها [ب]

(3) أو ثلاثاً [ب]

(4) ممالك [ب]

الأول والقوم لم تشع ممالكهم إلى غير الأزدن وفلسطين من الشام، وبلاد
يُثْرِب وخيبر من حجاز، عنى ما هو المعروف
وأيضاً فالذي بين موسى وإسرائيل إنما هو ثلاثة آباء، عنى ما ذكره
المحققون. فإنه موسى بن عُمر بن قَاهْت، ففتح الهاء أو كسرهما، بن لاوي،
بكسر الواو وفتحها، بن يعقوب، وهو إسرائيل الله هكذا سبه في لتورة
والمدة بينهما، عنى ما نقله لمسعودي، قال 'دخل إسرائيل مصر مع ولده
الأسباط وأولادهم حين أتوا إلى يوسف سبعين نفساً. وكان مقدمهم بمصر إلى
أن خرجوا مع موسى عليه لسلام إلى التيه مائتين وعشرين سنة، يتد ولهم
ملوك القبط من القراعنة. ويعد أب يتشعب النسل هي أربعة أحيال إلى مثل
ذلك^٩. ومن زعموا أن عدد تلك جيوش إنما كان في زمن سليمان عليه السلام
ومن بعده فبعد أيضاً، إذ ليس بين سليمان وإسرائيل إلا أحد عشر آباء فيه
سليمان بن داؤد بن إيشاي بن عُويد، ويقال عوفد، بن بعز، ويقال بوغز، بن
شلمون بن يحشون بن عميداب، ويقال حميداب، بن رام بن حصرون،
ويقال حسرون، بن بارس، ويقال بيرس، بن يهوذا بن يعقوب. ولا يتشعب
النسل في أحد عشر من لؤل إلى مثل هذا، لعدد الذي رعموه، اللهم إلى
لمئين والألاف، وربما يكون. وما أن يتجاوز إلى ما بعدهم من عقود الأعداد،
فبعد. واعتبر ذلك في الحاصر الشاهد والقريب المعروف نخذ زعمهم بطلاً
ونقلهم كادياً. وأيدي ثت في الإسرائيليات، أن حمود سليمان كبت إثني
عشر ألفاً خاصة، وأن مقرباته كبت ألفاً وأربعمئة فارس مرتطة على بوانه،
هذا هو الصحيح من أخبارهم، ولا يثبت إلى حرافات العامة منهم. وفي أيام
سليمان عليه السلام كان عموان دولتهم واتسع ملكهم.

هذا، وقد نجد لكافة من أهل العصر إذا أفصوا في الحديث عن عسكر
الدول لعدهم أو قرياً منه، وتفاوضوا في الأبحار عن جيوش المسلمين
والنصرى، أو أخذوا في إحصاء أموال الحبيات وخرج السطان وبعثت

(٩) بهمة حمدة في [ب] ذلك العدد

لترفين وبصنع الأعبيء لموسيريس، توعنوا في لعدد، وتحدرو، حدود
نعوئد، وطفوؤوا وساوس الإعراب فإذ أشتكثف أصحاب أندواوس عن
عساكرهم، وأسططت أحوار أهل ثروة في صائنهم وفوائدهم، وأستجليت
عوئد لترفين في بقاتهم، نم نحد معشار م يعدووه. وما ذلك إلا لؤلؤع
لنفس بالغرنة وسهولة التحور على اللسان و عفة عن لعفب ولمتعد،
حتى لا يحسب نفسه على خطا ولا عمد، ولا يطاسها في البحر تنوسط ولا
عدانة، ولا يرحعها إلى بحث وتفتيش فيرسل عنه، ويسيم في مزيه
لكذب نسانه، ويشترى لهو خديث ليص عن سبب الحق. وحسب بها
صفقة حاسره

ومن حكايات مدحونة لمتورحين ما ينقونوه كفة عن سبب بكة لرشد
لبرامكة، من قصة العباسة، أخته، مع جعفر بن يحيى بن خالد، مولاه، وأنه
لكنفه بمكانهم من معارفه إياهما حمرا أدب لهم في عقد لكح دور الخوة،
حرصا على اجتماعهم في محبسه، وأ لعبسة تحلت عليه في التماس
أخوته لم شعثها من حبه، حتى وقعها في حالة سكر، فحملت ووئشي بذلك
لرشد، واستعصب

وهيها ذلك من منصب لعباسة في دينها وأئوتها وحلالها، ونها نب
عبد لله بن عباس، ليس بها وبينه إلا أربعة رجال هم شراف الدين وعظماء
لملة من بعده، لعباسة بن محمد، المهدي بن عبد الله أبي جعفر منصور بن
محمد السجاد بن علي، أبي خلفاء، بن عبد الله، ترحمن نقر، بن العباس
عم بني عبيد السلام^٥. ست حليلة، أخت خبيلة، محفوفة بالملك العزيز،
والخلافة السوية، وصحة لرسول وعمومته، وممة ممة، وواو. الوحي،
ومهبط الملائكة من سائر جهات فريفة عهد سدوة العروبية وسدحة الدين،
البعيدة من عوائد الترف ومرايع الوحش فأين يظن لصور ولعدف إذ.

(6) صلى الله عليه وسلم [ب]

ذهب عنها ؟ وأين توحد لطهارة وانزكاء إذا فُقد من بيتها ؟ وكيف تدحم
بسبها جعفر بن يحيى ، وتدس شرفها العربي بمولى من موالى العجم ، تخذ
حذو من الفرس أو تولاه حذوها من عمومة لرسول وأشرف قريش وغيبته
أن حدثت دولتهم بصلعه وصنع أبيه ، واستحصتهم ورقعتهم إلى مدبر
لتشريف وكيف يسوع من الرشيد أن يصهر إلى موالى العجم على بعد
همه وعظم أدنه ؟ ولو نظر انتأمل في ذلك نظر منصف ، وقس لعباسة ناسه
مبك من أعظم مدبوك زمانه لاستكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها
وفى سلطان قومها ، واستكره ، ولح في تكذيبه . وأين قدر العباسه والرشيد
من الناس ؟

وبما نكب الترامكة ما كان من ستندادهم على الدولة واحتجائهم أموال
أخباره ، حتى كان الرشيد يطلب ايسير من مال فلا يصل إليه فعليه على
أمره ، وشركه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور مملكه . فعظمت
أشهرهم ونعد صيتهم وعمرو مرتب الدولة وحططها بالرؤساء من ولدهم
وصنائعهم ، واحتازوها عن سواهم من وررة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف
وقلم يقدره كان دار الرشيد من ولد يحيى بن خالد خمس وعشرون رئيساً
من بين صاحب سيف وصاحب قلم ، راحموا فيها أهل الدولة بالمأكب ،
ودفعوهم عنها بالراح ، مكث أبيهم يحيى من كفالة هرون ، ولي عهد وخليفة ،
حتى شب في حجره ، ودرج من عيشه ، وغلبه على أمره ، وكاد يدعو 'أبا
أنت فتوحه لإيثار من السلطان إليهم ، وعظمت لدانة منهم ، واسط لجاه
عندهم ، وانصرفت بحوهم لوجوه ، وحصعت لهم الرقاب ، وقصرت عليهم
الامان ، وتحصت إليهم من أقصى التخيوم هديا الملوك وتحف الأمراء ،
وسررت إلى حرائثهم في سبيل الترئف والاستمالة أموال أحياء ، وأفضوا
في رحال الشيعة وعظماء لقراءة العطاء وظوقهم المن ، وكسبوا من بيوتات
الأشراف للمعدم ، وفكروا العاني . ومدحوا بما لم يمدح به خليفتهم ، وأسئوا
لعفتهم الخوثر والصلوات ، وستولوا على اقربى والصبياع من لصواحي

ولأمصار في سائر الممالك، حتى أسفوا البطانة، وأحقدوا الخاصة، وأعصوا أهل لولاية فكشعت لهم وجوه المافسة والحسد، ودبت إلى مهادهم الوثيرة من الدولة عسرت السعدية، حتى لقد كان بنو قحطبة، أحوال جعفر، من أعظم السعيرين عليهم، لم تعطفهم لما وقر في نفوسهم من حسد عواطف الرحيم، ولا وزعتهم أواصر القرارة.

وقارن ذلك عند مخدومهم بو شئ الغيرة ولاستنكاف من الحجر والأفة، وكس الخقود التي بعثتها منهم صغرائدلة، وانتهى بها الإصرار على شأنهم إلى كبر لمخائفه، كقصتهم في يحيى بن عبد الله بن الحسن بن حسين بن علي بن أبي طالب، أخي محمد المهدي الملقب بالنفس الزكية، الخارج على المنصور ويحيى هذا هو الذي استنزل الفضل بن يحيى من بلاد لذيلىم على أمان الرشيد بحظه، وبدل ألف درهم على ما ذكره الطري، ودفعه الرشيد إلى جعفر، وجعل اعتقاله بداره وإلى نظره. وحبسه مدة، ثم حمته الدلة على تحلية سببه والاستبداد بحل عقله، حرصا لدماء أهل البيت بزعمه، ودالة على السلطان في حكمه وسأله الرشيد عنه لما وشي به إليه، ففطن وقال: "أطبقت"، فأدى له وجه الاستحسان، وأسرّها في نفسه. فأوحد السيل بذلك على نفسه وقومه، حتى ثلّ عرشهم، وأكفيت عليهم سماءهم، وخسفت الأرض بهم وبدرهم، ودهست سقا ومثلاً للآخرين أيامهم.

ومن تأمل أخبارهم واستقصى سيرة لدولة وسيرهم وجد ذلك محقق لأثر، بمقد الأسباب. وانظر ما نقه ابن عبد ربه في مقوضة الرشيد عمّ جده داود بن علي في شأن نكتهم، وما ذكره في باب لشعراء من كتاب العقد في محاورة الأصمعي للرشيد وللفضل بن يحيى في سمرهم تفهّم أنه إنما قتلهم الغيرة والمنافسة في الاستداد من الخليفة فصّ دونه، وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من السلطة، فيما دسّوه للمغنيين من الشعراء احتيالا على إسماعه لحيطة وتحريك حماضه لهم وهو قوله :

ليت هند أنجزتنا ما نعد وشئت أنفس مما نحب
و سئذت مرة و حدة إنما العاجز من لا يستبد

وأن لرشيد لما سمعها قال . أي والله عاجز حتى بعثوا بأمثل هذه كامين
غيرته . وسئطوا عليهم بأس انتقامه . نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحار
وأما ما تموه به الحكاية من معافرة الرشيد احمر واقتراان سكره سكر
الندمان ، فحاشا لله ، ما علمنا عليه من سوء . وأين هذا من حال لرشيد وقيمه
فما يحب لمصعب الخلافة من الدين والعدالة ، وما كان عليه من صحابة العلماء
والأولياء ، ومحاورته للفصل بن عياض ، وابن السماك ، والعمري ، ومكاتبته
سفين ، وبكائه من مواعظهم . ودعائه بمكة في طوافه ، وما كان عليه من العبادة
والمحفوظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح بأول وقتها ؟ حكي الطبري
وغيره أنه كان يصلي كل يوم مائة ركعة دفلة ، وكان يعزو عماء ويحج عاملاً .
ولقد رحر ابن أبي مريم ، مصحكة سمره ، حين تعرض له عن ذلك في الصلاة
لما سمعه يقرأ . ومالي لا أعبد الذي فطرني . قال : والله لا أدري له . فما
تملك الرشيد أن صحك ، ثم التفت معضماً وقال : يا ابن أبي مريم ، في الصلاة
أيضاً ، ياك إياك والقرآن والدين ، ولك ما شئت بعدهما

وأيضاً فقد كان من العلم والسداحة بمكان لقرب عهده من سمع المنتحين
لدلك . ولم يكن بينه وبين جده أبي جعفر بعيد زمن ، إنما خلعه غلاماً وقد كان
أبو جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وعدها . وهو القائل لذلك حين
أشهر عليه بتأليف الموطأ : ' يا أبا عبد الله ، إنه لم يبق على وجه الأرض أعلم
مني ومنك . وبني قد شعلتني الخلافة ، فصعأت للباس كناناً يتعمون به .
تجئت به رخص ابن عباس ، وشدائد ابن عمر ، ووطئه لباس توطئة ' فقد
مالك : ' فوالله لقد علمني ، لتصنيف يومئذ . ولقد أدركه به المهدي ، أبو
الرشيد هذا ، وهو يتوزع عن كسوة الحديد لعياله من بيت المال ، ودخل عليه
يوماً وهو محسسه سائر الخياطين في إرفاع الخندق من ثياب عياله ، فاستنكف

امهدي من ذلك وقار : يا مِير المؤمنين، علي كسوة هذا لعين عمه هذا من عصائي فقل : لك ذلك ولم يصده عنه، ولا سمح بالإساق من أموال المسلمين فكيف يبق بالرشيد، على قرب لعهد من هذا الحبيبة وأبوتة، وما ربي عليه من مثل هذه لسير في أهل بيته ولتحلق بها، أبعافر في الحمر أو يجاهر بها. وقد كانت حال الأشرف من نعرب خاهية في حناب اخمر معلومة، ولم يكن لكرم شجرتهم، وكذا شربها مدمة عند الكبير منهم والرشيد ودؤه كابو عبي تبح من احتساب المدمومات في ديبهم وديهم والتحق بالمحامد ووصف الكمال ونزعات العرب

و، بطر ما نقله لظري والسعودي في قصة حريس بن ثخيشوع الطيب، حين أحصر له السمك في مائدته فحمده عنه، ثم أمر صاحب مائدة بحمله إلى منزله. وفصل الرشيد، وارتاب به، ودس خادمه حتى عينه يندوه فأعد ثخيشوع لاعتذار ثلاث قطع من السمك في ثلاثة أفداح، حبط إحداه بالحمير معالج بالتورس والتفوق والبوارد وحدوى. وصب على اثنية ماء مشحاً، وعلى الثالثة حمراً صرفاً وقار في الأول والثاني، هذا صدام مِير المؤمنين، إذ حبط لسمك بغيره أو لم يحلط وقال في الثالث، هذا طعام بُخِشَ شُوع، ودفعها إلى صاحب مائدة حتى دانت الرشيد وأحصره لتوبيخ، أحصر لأفداح فوجد صاحب الحمر قد احلط وماع وبقت، ووجد لأحريين قد فسد وتغيرت رثتتهما، فكان له في ذلك معبرة وتبين من ذلك أن حال الرشيد في احتساب حمر كانت معروفة عند بطرته وأهل مائدته. ولقد ثبت عنه أنه عهد بحسن نبي نواس لما دعه من انهماكه في المعافرة، حتى تاب وقنع

وإما كان الرشيد يشرب سبب لتمر، على مذهب أهل عراق، وفتويهم فيها معروفة. وأما حمر الصرف من لعب، فلا سبيل إلى انتهامها، ولا تقلد لأخبار الواهي فيها، فلم يكن لرحل بحيث يواقع محرماً من كسر الكائن عند أهل السنة ولقد كان أولئك نقوه كهم ممحاة من حنن السرف

والترف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداءة وسداحة الدين التي لم يعارقوها بعد. فما ظنك بما يخرج عن الإباحة إلى الخطر، وعن الحلية إلى الحرمة؟ ولقد اتفق المؤرخون، الطبري والمسعودي وغيرهما، على أن جميع من سلف من خلفاء بني أمية وبني العباس إنما كانوا يركبون بالحلية الخفيفة من الفضة في المناطق والسيوف واللجم والسروح، وأن أول خليفة أحدث الركوب بحية الذهب هو المعتز بن المتوكل، ثامن الخلفاء بعد الرشيد وهكذا كان حالهم أيضًا في ملابسهم، فما ظنك في مشاربهم؟ ويتبين ذلك بأنهم من هذا إذا فهمت طبيعة الدولة في أولها من البداءة والغضاضة، كما نشرح في مسائل الكتاب الأول إن شاء الله تعالى.

ويناسب هذا أو قريبًا منه ما ينقلونه كافة عن يحيى بن أكرم، قاضي المأمون وصاحبه، وأنه كان يعاقر المأمون الحمر، وأنه سكر ليلة مع شربه قد فرغ في الرياح حتى أفاق. وينشدون على لسانه:

يا سيدي وأمير الناس كسهم قد جار في حكمه من كان يسقيني
إني عقلت عن الساقى فصيرني كما تراني سليب العقل والدير

وحال ابن أكرم والمأمون في ذلك من حال الرشيد، وشرابهم إنما كان الببذ، ولم يكن معطورًا عندهم. وأما السكر، فليس من شأنهم وصحاته للمأمون إنما كانت خلة في الدين. ولقد ثبت أنه كان ينام معه في البيت. ويُقر من فضائل المأمون وحسن عشرته أنه انتبه ذات ليلة فقام يتحسس ويتمس الإناء، مخافة أن يوقظ يحيى بن أكرم وثبت أنهما كانا يصليان الصبح جميعًا. فأين هذا من المعافرة؟ وأيضا فيحيى بن أكرم كان من أهل الحديث، وقد أثنى عليه الإمام أحمد بن حنبل والقاضي إسماعيل، وخرج عنه الترمذي في كتابه الجامع، وذكر الحافظ المزي أن البخاري روى عنه في غير الجامع، فالقدح فيه قدح في جميعهم.

وكذلك ينبغي له المحاب لميل إلى لعممان، بهتت على الله وهوية على العلماء. ويستندون في ذلك إلى أحار لقصاص الواهية التي لعداها من افتراء أعدائه، فإنه كان محسداً في كماله وحلته للسلطان، وكان مقامه من العلم ولدين منزلها عن مثل ذلك وقد ذكر لاس حنبل ما يرميه به الناس فقد 'سبحان الله، سبحان الله! ومن يقول هذا؟ وأكر ذلك إكثاراً شديداً وثني عليه. وقيل لإسماعيل ما كان يقل فيه فقال: معاد الله أن تزول عدالة مثله لتكذيب باغ وحاسد،' وقال يحيى بن أكرم أبا إلى الله من أن يكون فيه شيء مما كان يرمى به من أمر العلماء. ولقد كنت أقف على سرائره فأحذه شديد الخوف لله، لكنه كانت فيه دعابة وحسن خلق، فرمى بما رُمي به" وذكره ابن حبان في الثقات، وقال: 'لا تشتغل بما يحكي عنه لأن أكثرها لا تصح عنه'

ومن أمثال هذه الحكايات ما نقله بن عبد ربه، صاحب العقد، من حديث الزبيل، في سب إصهار المأمون إلى الحسن بن سهل في سنة ثوران، وأنه عثر في بعض البيالي في تطوافه بسكك بغداد بنزيل مدلى من بعض السطوح بمعلق وجدد معارة القتل من الحرير، فاقطعه وتناول المعالق، فاهتزت، وذهب به صعداً إلى مجلس شأنه كد. ووصف من زينة فرشته وتضيد أنيته وجمال رؤائه ما يستوقف الطرف ويمتد النفس، وأمر امرأة برزت من خلل الستور في ذلك المجلس، رائحة الحمال، فتانة لمحاسن، وحيته ودعته إلى المنادمة، فلم يزل يعاقرها الحمر حتى الصباح، ورجع إلى أصحابه ممكنهم من انتقاره، وقد شغفته حب بعثه إلى الإصهار إلى أبيها، وأين هذا كده من حال المأمون المعروفة في دينه وعلمه واقتمائه من الخفاء لمرشدين من انائه، وأحذه بسيرة الخفاء الأربعة، أركان الملة، ومطروته لعمداء، وحفظه لحدود الله في صلواته وأحكامه؟ فكيف صبح عنه أحوال الفساد المستهترين في التطواف بالليل وظروق المنازل وغشيد السم، سبل عشق

الأعراب؟ وابن ذلك من منصب ست الحسن بن سهل وشرفها وما كان يدر أيها من الصون ولعناف؟

ومثال هذه الحكايات كثيرة، وفي كتب المؤرخين معروفة. وروى يعث عى وضعها واحديث بها الاتهامك في الذنات المحرمة وهتك قدع المروءت، ويتعلون بالقوم فيما تأتونه من طاعة لداثهم فلذلك تراهم كثيراً ما يلهجون بأشياء هذه الأحرار ويُقرّون عنها عند تصفحهم لأوراق الدواوين وبنو انتسوا بهم في غير هذه من أحوالهم وصفات لكمان ملائقة بهم المشهورة عنهم لكان حبراً لهم لو كانوا يعلمون.

ونقد عدلت يوماً بعض لأمرء من أولاد الملوك في كلمه بتعلم لعاء وبنوعه بالأوتار وقت له ليس هذا من شأنك، ولا ينبغي عنصت فقال لي. أفلا ترى إلى إبراهيم ابن المهدي كيف كان إمام هذه الصاعه ورئيس معبر في زمانه؟ فقلت له 'ما سحر الله' وهلا نأسيك بأه أو أحيه' وماريت كيف قعد ذلك إبراهيم عن مناصبهم؟ فصم عن عدلي وأعرض ومن لأحرار، لواهية ما يذهب إليه الكثير من المؤرخين في الغيبيات، حفاء لشعبة بالقروان ولقاهرة، من بعهم عن أهل البيت سنوات الله عيهم ولطعن في سبهم إلى إسماعيل الإمام بن جعفر الصادق. يعتمدون في ذلك على أحاديث لُفقت للمستضعفين من حلفاء بني العباس تزلفاً إليهم بالقدح فبمن ناصبهم وتفت في لشمات عدوهم حسماً يذكر بعض هذه الأحاديث في أحبارهم ويعصمون عن التفتل لشواهد الواقعات ودلة الأخوان التي تقتض حلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم.

فبهم متفقون في حديثهم عن صدى دولة الشيعة أن أباعبد الله المحتسب، لما دعا بكتامة للرضى من آل محمد وشهر حره، وعُيّم تحويه على عُيّد الله المهدي وإنه أبى القاسم حشياً على أنفسهم، فهربا من المشرق، محل الخلافة، واجتازا مصر، وأهما حرجا من الإسكندرية في رى لتحار. وما حبرهما إلى عيسى نؤشزي، عامل مصر والإسكندرية، فسرح في ظنهما

لحيلة. حتى إذا أدركا، حمي حالهما على تابعيهما عما لبسوا به من الشرارة والزري، فأفلتوا إلى المغرب وأن المعتصد أوعز إلى الأعمالة، أمراء إفريقية بالقبروان، وسي مدرار، أمراء سجلماسة، وأحد الأفق عليهما وإذكاء العيون في طلبهما. فعثر اليسع، صاحب سجلماسة من آل مذرار، على خفي مكنهما ببلده، واعتقلهما مرضاة للخيفة. هذا قبل أن تظهر الشيعة على لأغلبية القيروان. ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بإفريقية والمغرب، ثم باليمن، ثم بالإسكندرية، ثم بمصر والشام والحجاز. وقاسمو بني العباس في الممالك شق الأئمة، وكادوا يلجئون عليهم مواطنهم ويُدِينون من أمرهم. ولقد أظهر دعوتهم ببغداد وعراقها الأمير البساسيري، من موالي الدَّيْلَم المتغلبين على خلف بني العباس في مغضبة جرت بينه وبين أمراء لعجم، وخطب لهم على منبره حولاً كريماً. وما زال بنو العباس يغصّون بمكانهم ودولتهم، وملوك بني أمية وراء البحر ينادون بالويل والحرب منهم، وكيف يقع هذا كله لدَّعي بالنسب، مكذَّب في انتحان الأمر؟ واعتبر حل القُرْمَطي، إذ كان دَعيًا في انتسابه، كيف تلاشت دعوتهم وتفرق أتباعه، وظهر سريعًا على خبثهم^(٨) ومكرهم، فساءت عاقبتهم وذاقوا وبال أمرهم. ولو كان أمر العبيدَين كذلك لَعُرِف، ولو بعد مهلة.

فهما تكن عند امرئ من خيفة وإن خلعه تخفى على الناس تعلم

فقد اتصلت دولتهم نحوًا من مائتين وسبعين سنة. وملكوا مقام إبراهيم ومصلا، ومواطن الرسول ومذقنه. وموقف الحجيج، ومهبط الملائكة ثم انقرض أمرهم وشيعتهم في ذلك كله على أتم ما كانوا عليه من الصاعية إليهم والحب فيهم واعتقادهم بسب الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق. وقد خرجوا مرارًا بعد ذهاب الدولة ودُروس أثرها، داعين إلى بدعتهم، هاتفين

(٨) حبثهم [ب]

أسماء صبيد من عقبيهم، يزعمون اسحقاقهم للخلافة، ويدهون إلى تعينهم بالوصية ممن سلف قبلهم من الأئمة ولو رتابوا في سبهم لما ركوا، عناق لأخطار في الانتصار بهم. فصاحب الدعة لا يلس في أمره ولا يشته في بدعته ولا يكذب نفسه فيما يتحلله

و لعجب من القاصي أبي بكر الباقلاني، شيخ الطار من المتكلمين، يحج إلى هذه المقالة المرحوحة، ويرى هذا الرأي الضعيف فإن كان ذلك لما كانوا عليه من الإلحاد في الدين ولتعمق في الرافضة، فليس ذلك بدافع في صدر دعوتهم، وليس إثبات مستسه بالذي يعنى عنهم من الله شيئاً في كفرهم فقد قال الله تعالى لوح عليه لسلام في شأن الله: 'إله ليس من ههنا، إنه عمل عبر صالح، فلا تسألني ما ليس لك به علم'. وقال صلى الله عليه وسلم لعاطمة يعطها: 'يا فاطمة اعممي، فمن أعبي عت من الله شيئاً

ومتى عرف امرؤ قضية أو استيقض أمراً وحب عليه أن يصنّغ به. والده يقول الحق، وهو يهدي السيل والقوم كانوا في محال لظنون لدور بهم، وتحت رقة من الطعنة لتوفر شعهم وانتشارهم في القاصية بدعوتهم وتكرر حروجهم مرة بعد أخرى فلادت رحلاتهم بالاختفاء، ولم يكادوا يُعرفون كما قيل

هو تسئل الأيام ما اسمي ما درت وأين مكاني ما عرفس مكاني

حتى لقد سُمي محمد بن إسماعيل الإمام، حد عُبيد الله المهدي، ر المكتوم، سمته بذلك شيعتهم لما اتفقوا عليه من إجماعه، حذراً من المتعدين عيهم فتوصل شيعه الر العباس بذلك عند ظهورهم إلى الطعن في نسهم وردلغوا بهذا الرأي الفاش إلى المستضعفين من حلفائهم. وعجب به أوليؤهم وأمراء دولهم المتولون لحروبهم مع الأعداء، يدفعون به عن أنفسهم وسطهم معرفة لعجز عن لمقاومة والمدافعة لمن عبيهم على الشام ومصر

و خُجَّار من الربر الكُتُميين، شِيعَة الغُنيديين وأهل دعوتهم، فنقده
لأخباريون كما سمعوه، ورووه حسماً وعوه. والحق من ورائه.
والدولة والسُّطون سوق معلّم، تُحَلَّبُ إليه بضائعُ علوم والمصنّاع،
وُلُتَمَسَ فيه ضوْلُ الحُكْم، وتُحْدَى إليه ركائز الروايات والأخبار، وما بقى
فيها نفق عند لكفة فإن تنزهت الدولة عن التعسف والميل والأهـن
والسفسفة، وسكت لهج الأمم، ولم تُجْر عن قصد اسبيل، نفق في سوقها
الإبريز الخالص والنُّحَيْن الصافي وإن دهست مع الأغراض والحقود، وماجت
سماسرة البغي والباطل، نفق البهْرَج والزئف. والنقد البصير قسطاس نظره
وميزان بحثه وملتمسه.

ومثل هذا وأعد منه كثيراً ما يتأخى به لدُعاوون في نسب إدريس بن
إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن عبيد بن أبي طالب، رصوان الله
عليهم أجمعين، الإمام بعد أبيه بالمعرب، الأَقْصَى ويُعَرِّضُونَ تعريض الحد
بالنظَر في الحُمل المخلَّف عن إدريس الأكبر أنه لَر شد مولاهم قَتَحهم الله
وأعدهم ! ما أجَهلهم ! ما يعلمون أن إدريس الأكبر كان إصهاره في لبر،
وأنه مد دحل المعرب إلى أن توفاه الله عز وجل عريق في الدو، وأن حال
لسادية في كل دالك غير حافية، إذ لا مكاس لهم يتأتى فيها الريب. و سُحوال
حرمهم أُحمعين نمرأى من جراتهن ومسمع من جبرهن لتلاصق الحدردان
وتطاص البناء وعدم لقواص بين المسكن. وقد كان ر شد يتولّى خدمة
الحرم أجمع من بعد مولاة مشهد من أوليئهم وشيعتهم ومراقبة من كفتهم.
وقد تقو برابرة لمغرب الأَقْصَى عامة على بيعة إدريس الأصغر من بعد أبيه،
وأتوه طاعتهم عن رضى وإصفاق، وبيعوه على الموت لأحمر، وخاضوا
دوبه بحار المنايا في حروبه وعروته. ولو حدّثوا أنفسهم بمثل هذه الريبة أو
قرعت سماعهم، ولو من عدو كاشح أو صافق مرات، لتخف عن ذلك
ولو بعصهم. كلا، وله ! إن صدرت هذه الكلمات من بني العباس، قتلهم،
ومن بني الأعب، عمالهم كانوا بإفريقية وولاتهم.

ودالك أنه لما قرأ إدريس الأكبر إلى المغرب من وقعة فتح، أوعز الهادي إلى الأعلية أن يعدوا له بالمرصد ويذكروا عليه العيون. فلم يظفروا به، وحبص إلى المغرب، فتم أمره، وظهرت دعوته. وظهر الرشيد من بعد ذلك على ما كان من و صبح، مولاهم وعامداهم على الإسكندرية، من دسياسة التشيع للعلوية وإدنه في نحاة إدريس إلى المغرب، فقتله، ودس السمّاح، من موالى امهدي أبيه، للتحييل على قتل إدريس فأظهر اللحق به والمرأة من بني لعاسر، موليه، فاشتمل عليه إدريس، وحطه بنفسه، وناول له شمع في بعض حلواته سمّا استهلكه به. ووقع حر مهكك من بني العباس أحسن المواقع د رحوه من قطع أسباب الدعوة للعلوية بالمغرب وفتلاع حرثومتها ولم يتأد إليهم خبر الحمل امخلف لإدريس، فلم يكن إلا كلا ولا ورد، بالدعوة قد عادت، والشيعه بالمغرب قد ظهرت، ودولتهم بإدريس من إدريس تجددت. وكان ذلك عليهم أنكى من وقع السهام. وكان لمشل والهرم قد برز بدولة العرب عن أن يسموا إلى القاصية، فلم يكن منتهى قدرة الرشيد على إدريس الأكبر ممكته من قاصية المغرب واشتمل البربر عليه إلا للتحييل في هلاكه بالسموم. فعند ذلك فزعوا إلى أوليائهم من الأعلية في سد تلك العرجة من ناحيتهم، وحسم الداء المتوقّع بالدولة من قبيلهم، واقتلاع تلك لعروق قبل أن تشع منهم، يحاطبهم بدلك المأمور ومن بعده من حفيدهم. فكان الأعلية عن برايرة المغرب الأقصى أعجز، ومثلها من البربر على ملوكهم أحوح، لما طرق الخلافة من انتزاع، الممالك العجم على سديتها ومتصاتها صهوة، لتعب عليها. وتصريفهم أحكامها صوع أغراضهم في رجالها وحنايتها وأهل حططها وسائر نقضها وبرامها، كما قال شاعر عصرهم :

حيفة في قفص بين وصيف وبعا يقول ما قال له كما تقول النّعا

وحشي هؤلاء الأمراء لأغلبة نوادر السعائيات، وتلووا بالمعادير فطوّرا

ماحتقر المغرب وأهله، وطوّراً بالأرهاب بشأن إدريس وأخرج به ومن معه
مقامه من عقابه، يحطّونهم بتحوّره حدود لتحوّره من عمله، ويقعدون
سكته في تحفهم وهداياهم ومرتفع حباياتهم نعرصاً دستمجاناً، ويهويلاً
دستمداد شوكتهم، ونعطيماً ما دُفِعوا إليه من مصانته ومراسه، و تهديد نقب
دعوة إن جئوا إليه وطوّراً يطعنون في نسب إدريس بمثل ديث نُطعن
الكذب تحفصاً شأنه، لا يبانون صدقه من كده، بعد مسافة وفن عفون
من حلف من صية سي لعاس وبما لكهم المعجم في نقبون من كل فائن
وانتسمع لكل دعق. ولم يزل هذا دأبهم حتى انقصى أمر لأعانة

فقرعت هذه الكلمة لشعاء سماع لعوءاء، وصّر عليها عصر نطاعين
أده واعتدتها دريعة إلى لبس من حنقهم عند منافسة، وما بهم، فحبهم له،
و بعدون عن مقاصد الشريعة، ولا تعارض فيها من المقطوع والمطوّر
ودريس وليد عى فراش به، ولوند للفراش عى أن تزبه أهل است عن
مثل هد من عقائد لإيدى قاله سبحانه قد أذهب عنهم أرحس وطهرهم
تطهيراً، ففرش إدريس طاهر من لدس ومزّه عن الأرحس بحكم القرآن
ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء بآئمه، ووج الكفر من به.

وإلى أطلست في هذا الرد سنّ لأتوب لربى، ودفعاً في صدر حسده، ما
سمعه أدي من قائمه المعتد عيهم به، لفادح في سبهم شرينه، ويقبل عن
عص مؤرخي المغرب عن انحرف عن أهل البيت ورب في لإيدى سبهم
ولا فالح مزّه عن ديث، معصوم مه وبقي الاعيب حيث يستحسن العيب
عيب، نكبي حدثت عنهم في الحياة ادب، وأحوّل يحذون عى يوم القيمة
وليعلم أن أكثر الطاعين في سبهم بما هم حسده لأعقد إدريس هد،
من مُنتم عى أهل البيت أو دحين فيهم فإن ادعاء هذه السب للكرمه دعوى
شرف عريض على الأثم ولأحب من أهل الأفاق، فعرض لتهمة فيه ولما
كان سب سي إدريس هؤلاء مواصهم من فاس وسائر بلاد المغرب قد بع من

لشهرة والوصوح منعاً لا يكاد يُنْحَقُ ولا يظنُّع أحد في دركه، إذ هو نقل
 لأمة والخيل من حلف عن الأمة وحين من السلف، وبيت جدهم إدريس،
 مختط المدينة ومؤسسها¹⁰ بين بيوتهم، ومسحده لصق محبتهم ودورهم،
 وسفحه منصبي بر من المأدبة العظمى من قر رندهم، وغير ذلك من آثاره التي
 حورت أحوارها حدوداً لتواتر مرث وكادت تلحق بالعيان، فإذا نظر غيرهم
 من أهل هذا السبب الكريم إلى ما أتهم الله من أمثالها وما عصّد شرفهم
 النوي من حلال الملك الذي كان سلفهم بالغرب، واستيقن أنه معزول عن
 ذلك ولا يسمع مد أحدهم ولا يصيغه، وأ عية أمر المتتمين إلى البيت
 الكريم من لم يحصل له أمثال هذه الشواهد أن تُسَلِّمَ لهم حالهم لأن الدس
 مصتقون في أنسابهم، وبن من العلم والطن، واليقين والتسليم فإذا علم
 ذلك من نفسه غصن بريقه، وودّ كثير منهم لو يرُدُّوهم عن شرفهم ذلك سوقة
 ووصعاء، حسداً من عد أنفسهم فيرجعون إلى العبد وارثك الملحاح
 والنهت مثل هذا الطعن لعائل، والقول المكذوب، تعديلاً بالمسوة في لطة
 والمشاهدة في تطرق لاحتمال وهيئات لهم ذلك، فليس في المغرب فيما
 بعينه من أهل هذا البيت الكريم من يبيع في صراحة بسبه ووصوحوه مبالغ
 عقاب إدريس هذا من آل الحسن، وكبرؤهم لهذا العهد بنو عمران بناس،
 من ولد يحيى خوطي بن محمد بن يحيى العدام بن لقاسم بن إدريس بن
 إدريس وهم بقايا أهل البيت هالكة، والساكون بيت جدهم إدريس، ولهم
 السيدة عني أهل المغرب كفة، حسما يذكروهم عند ذكر الأدارسة إن شاء
 الله

وينحق بهذه المقالات لفاسدة والمداهب العائلة ما يتناوله صفة الرأي من
 فقهاء يعرب من لفتح في لإمام المهدي، صاحب دولة الموحدين، ونسته
 إلى الشعوذة والتنبيس فيما أنه من القيام بالتوحيد حق والتعني على أهل
 السعي قبله وتكديهم لجميع مذعباته في ذلك، حتى فيما يزعم الموحدون،

10 مختط دس ومؤسسها [ب]

أتباعه، انتسابه في أهل البيت. وإما حمل الفقهاء خصوصًا على تكذيبه ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه، فإنهم لما رأوا من أنفسهم مناهضته في العلم والفتيا وفي الدين نزعمهم، ثم امتدح عنهم بأنه متنوع الرأي، مسموع القول، موطوء العقب، يمسو ذلك عليه، وعضوا منه بالقديح في مذهبه، والتكديس لمذيعاته. وأيضًا فكاو يؤسون من موك لتوبة، أعدائه، تجلّة وكرامة لم تكن لهم من غيرهم لما كوا عليه من السداجة وانتحال لديانة فكان لخمّة لعلم بذولتهم مكان من الوحاهة والانتصاب للشورى، كل في بلده وعلى قدره في قومه، وأصبحوا بدلت شيعه لهم وحرثا لعدوهم. ونقموا على المهدي ما حاء به من خلافهم وانتثرب عيهم والمناسبة لهم، تشيّعًا للمتونة، وتعصّبًا لدولتهم. ومكان الرجل غير مكانهم، وحاله غير معتقداتهم وما ظننت رحل نقم على لدولة ما نقم من أحوالهم وحالف حتهاذه فقهاؤهم، فنادى في قومه، ودعا إلى جهادهم بنفسه فاقتنع الدولة من أصولها، وجعل عاليها سافلها أعظم ما كانت قوة، وأشد شوكة، وأغز أنصارًا وحامية. وتسقط في ذلك من أتبعه بموس لا يحصها إلا خالفها، قد بايعوه عنى الموت، ووقوه بأنفسهم من لهلكة، وتقرّبوا إلى الله بإتلاف مهجهم في ظهار تلك الدعوة والتعصب لتلك الكلمة حتى عنت على الكلّم، ودالت بالعدوتين من الدوس. وهو بحاله من التقشّف والخصر والصر على المكاره والتقل من الدين، حتى قصه الله وليس على شيء من الحظ والمتاع حتى الولد الذي رما تخرج إليه نفوس وتحدع عن تمّيه. فليت شعري ما الذي قصد بذلك إن لم يكن وجه الله، وهو لم يحص له حظ من لدنيا في عاحله ولا في اجله^١ ومع هذا فلو كان قصده غير صالح، لما تمّ أمره وانفسحت دعوته، سنة الله التي قد خبت في عبادته.

ومّا إنكارهم نسبه في أهل البيت، فلا تعضّده حجة لهم، مع أنه إن ثبت أنه ادعاه وتسب إليه، فلا دليل يقوم على بطلانه، لأن الأصل أن الناس

١١، بهاه الخمّة في [ب] حظ من الدين في عاحله

مصدقون في أنسابهم. وإن كانوا إن الرئاسة لا تكون على قوم في غير أهل جندتهم. كما هو الصحيح. حسماً يأتي في الفصل الأول من هذا الكتاب. والرحل قد رأس سائر المصامدة ودانوا باتباعه ولا يقبأ إليه وإلى عصبته من هرغه حتى تم أمر الله في دعوته. فاعلم أن هذا النسب القاطمي لم يكن أمر المهدي يتوقف عليه، ولا اتعده الدس لسبه وإنما كان اتباعهم له بعصبة الهرغية والمصمودية ومكانه منها. ورسوخ شجرته فيها. وكان ذلك النسب القاطمي حقيقاً² قد درس عند الدس. وبقي عنده وعند عشيرته يتدفقونه بينهم فيكون النسب الأول كأنه السنيخ منه ونسب حلدة هؤلاء وظهر فيها فلا يضره الانتساب الأول في عصبته، إذ هو محمول عند أهل عصبة. ومثل هذا واقع كثيراً إذا كان النسب لأول حقيق. وبصر قصة عرفجة وحرير في رياسة سجيبة. وكيف كان عرفجة من لأزد، ولبس حلدة سجيبة، حتى تدرع مع حرير رئاستهم عند عمر رصي الله عنه، كما هو مذكور. تتفهم منه وجه الحق. والله الهادي إلى الصواب.

وقد كدد أن يخرج عن عرض لكتاب بالإطبات في هذه المعالط فقد رلت أقدام كثير من الأثبات ولمؤرخين الحفط في مثل هذه الأحديث والآراء. وعنت أفكارهم ونقنها عنهم الكفة من أهل النظر والعفة عن القياس، ولقموها هم أيضاً كذلك من غير بحث ولا روية³ ودرحت في محفوطاتهم، حتى صدر في تاريخ واهياً مخطلاً، ونظره مرتكاً، وغد من مساحي العامة.

فيذن يحتاج صاحب هذا فن إلى العلم بقو عد السياسة، وطوائع الموحودات، واختلاف الأمم ولقنع ولأعصار في لسير والأحلاق والعوائد والنحل ولماذهب ومائر الأحوا، ولإحاطة بالخاص من ذلك ومماثلة ما بينه وبين العائب من الوفاق، أو نون ما بينهما من الخلاف، وتعليل امتفق منه

[2] القاطمي عند حقيقاً [ب]

[3] رؤية في [أ] و [ب] وهو عبط وصح

والمختلف، والقيام على أصول الدول والميل، ومدئ طهورها، وأساب
حدوثها، ودواعي كونه، وأحوال القنمين بها وأحداهم، حتى يكون
مستوعباً لأسباب كل حادث، وافقاً على أصل كل خبر، وحسباً يعرض حره
المفقود على ما عده من قواعد والأصول فإن وفها وحرى على مقتضاها
كان صحيحاً، وإلا زيفه وسعسى عنه وما ستكرر لأوائله عنم لتدريج إلا
بدت حتى انتحه الضري، ولحري، واس سحاق من فديهما، ومثاله
من عباء الأمة، وقد دهن لكثير عن هد لسرفيه، حتى صار اسحاله معجته،
واستحق لعموم ومن لا رسوح له في المعارف مطالعته وحمله والخم من به
و لتفقر عيه، فاحتط المرعى لهمل، و لساب بالفشر، والصادق بالكاد
وإلى الله عاقبة الأمور

ومن لعبط لخصي في اتاريح لدهون عن سيد الأحوال في لأيم
ولأجيل تبدل لأعصر ومرور الأنام وهو دء دوي وشديد خفاء، دلا
يقع إلا بعد أحقاب متطاوة، فلا يكاد يتفقر له إلا الاحد من أهل الحبيقة
ودلت أن أحوال لعالم والأيم وعو ندهم وحجهم لا تدوم على وتيرة
واحدة ومنهاج مستقر بما هو خلاف على الأيم والأرمة، وتبدل من حد
إلى حد وكما يكون دت في الأشخاص والأوقات ولأمصدر، فكذلك يقع
في الأفاق ولأقطار والأرمة والدول، سنة الله لتي قد حب في عده.

وقد كانت في لعالم أيم الفرس الأولى، والسريابوب، و لقط، واساعة،
وبنو إسرائيل، و لقط، وكانوا على أحوال حصّة بهم في دونهم ومما كهم
وسياسهم وصنائعهم ولعائهم واصطلاحاتهم وسائر مشاكرتهم مع أساء
جسهم وأحوال عتارهم لعالم، تشهد بها شرهم ثم جاء من بعدهم
الفرس الثانية، والروم، والعرب، والعريجة، فنبتت دت لأحور و تقنت
بها العو ند إلى ما يحسنها ويشانهم، وبى ما يسيئها ويبعدها ثم جاء

لإسلام بدولة مصر، فانقست تلك الأحوال أجمع اقلالة أخرى، وصارت إلى ما أكثره متعرف لهد العهد، يأحده حذف عن السلف.

ثم درست دولة العرب وأيامهم، وذهب الأجيال الذين شتدوا عزهم ومهدوا منكمهم، وصار الأمر في بُدي سواهم من العجم، مثل الترك بامشرق، والسري بالمغرب، والفرنج بالشمار فذهبت بدهالهم أمم، وانقلت أحوال وعوائد، نسي شئها وأعفل أمرها

والنسب الشئع في تدل الأحوال والعوائد أن عوئد كل حيل تدعة لعوائد سبطانه، كما يقار في لأمثل احكمية الناس على دين الملك. وأهل ملك ولسطون إد، ستولوا على الدولة ولأمر فلا بد وأن يزعو إلى عوئد من قسهم وبأحدون الكثير منها، ولا يعصون عوئد حينهم مع ذلك، فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوئد لحيل الأول. فإذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومزحت من عوئدهم وعوئدها، حالفت أيضًا بعض الشيء، وكنت لأولى أشد مخالفة ثم لا يزال التدريج في المخالفة، حتى ينتهي إلى المدينة بالحكمة فما دامت الأمم والأحبال تعاقب في الملك والسلطان، لا تزال المخالفة في لعوائد والأحوال وقعة

والقياس والمحاكاة للإنسان صبيعة معروفة، ومن لعلط غير مأمونة، تُجرَّحه مع ندهور وعلط عن قصده، وتغوّج به عن مرامه. فربما يسمع السامع كثيرًا من أحوال المصير ولا يتمعن لما وقع من تعب الأحوال واقلالها، فيُجرِّبها لأول وهنة مع ما عرف، ويُفسها ما شهد. وقد يكون الفرق بينهما كثيرًا، فيقع في مهواة من العبط.

فمن هذا الباب ما يقله المؤرخون من أحوال الحجاج، وأن بابه كان من المعتمين، مع أن التعيم لهذا العهد من حمه الصنائع المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصبة، والمعتم مستضعف مسكين، منقطع الخدم فيشوق الكثير من المستضعفين أهل الحرف والصنائع المعاشية إلى بيل الرتب التي ليسو لها أهل، ويعدونها من المكبات لهم، فتذهب بهم وساوس المطامع.

ورى انقطع حلها من أيديهم، فسقطوا في مهواة المهذبة والنلف ولا يعمون استحالتها في حقهم، وأنهم هم حرف وصنائع للمعش، وأن التعليم صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك، ولم يكن العلم بالجملة صناعة، إنما كان نقلاً لما سمع من لشارع، وتعليماً لما جهل من الدين على جهة البلاغ. فكان أهل الأسب و لعصية الذين قاموا بالملة هم الذين يعلمون كتاب الله وسنة سيه صلى لله عليه وسلم على معنى التليغ الخصري، لا على وجه التعليم الصصاعي إذ هو كتابهم المزل على الرسول منهم، وبه هدايتهم، والإسلام دينهم، قتلوا عليه وقُتلوا، واختصوا به من بين الأمم وشرفوا فيحرسون على تعليم ذلك وتعليمه للأمة، لا تصادهم عنه لائمة الكبر، ولا يزعهم عاذل الأنفة. ويشهد لذلك عث السبي صدى الله عليه وسلم كبار أصحابه مع وفود العرب، يعلمونهم حدود الإسلام وما جاء به من شرائع الدين. عث في ذلك من أصحابه العشرة، فمن بعدهم.

فلما استقر الإسلام ووشحت عروق الملة حتى تناولها الأمم البعيدة من أيدي أهلها، واستحالت مرور الأيام أحوالها، وكثر استنباط الأحكام لشرعية من الصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها، فاحتاج إلى قانون يحفظه من خطأ، وصار العلم ملكة تحتاج إلى التعلم فأصبح من حملة الصنائع والحرف، كما يأتي ذكره في فصل النعم والتعليم. واشتغل به من سواهم، وأصبح حرفة لمعاش، وشمعت أنوف المثرفين وأهل السلطان عن لتصدي للتعليم، واختص انتحاله بالمستضعفين، وصار مُتَّحِجُه محتقراً عند أهل العصية والملك. والحجج بن يوسف كان أبوه من سادات ققيف وأشرافهم، ومكانهم من عصية العرب ومنهضة قريش في الشرف ما علمت. ولم يكن تعليمه للقرآن على ما هو الأمر عليه لهذا العهد من أنه حرفة لمعاش، وإنما كان على ما وصفناه من الأمر الأول في الإسلام.

ومن هذا الباب ما يتوقمه لتصفحو لكتب التاريخ إذا سمعوا أحوال الفضة وما كانوا عليه من الرئاسة في لحروب وقود العساكر، فتترامى بهم

وساوس الهمم إلى مثل تلك الرب، يحسبون أن الشأن في حطة القصد لهذا العهد على ما كان عليه من قبل، ويظنون بأن أبي عامر، صاحب هشام المستند عليه، وابن عتاد من ملوك الطوائف يشبيلية، إذا سمعوا أن آباءهم كانوا قصاة، أنهم مثل القصة لهذا العهد. ولا يتفطون لما وقع في رنة لقضاء من مخافة لعوائد، كما بينه في فصل القصص من الكتاب الأول. وسأبي عمر وابن عتاد كان من قتائل العرب صفائين بالدولة الأموية لأندلس وأهل عصبية، وكان مكانهم فيها معلوماً، ولم يكن بينهم لما ناله من الرئاسة والملك حطة القصص، كما هي لهذا العهد، بل إنما كان القصص في الأمر لتقديم لأهل لعصبية من قبل الدولة ومواليها، كما هي الوزارة لعهدنا وانظر خروجهم بالعسكر في الصوائف وتقليدهم عظم الأمور التي لا تقلد إلا من له العبد فيها لعصبية. فيعبط لسماع في ذلك، ويحمل الأحوال إلى غير ما هي

وأكثر ما يقع في هذا العنط ضعفاء لصنائير أهل لأندلس لهذا العهد، لفقدان العصبية في مواضعهم منذ أعصار بعيدة لئلاء العرب ودولتهم بها وخروجهم عن ملكة أهل لعصبية من البربر. فبقيت أساليب العربية محفوظة، والدربة إلى العز من العصبية والتناصر مفقودة. بل صاروا من حملة الرعايا المتخدين الذين تعددهم القهر ورثموا للمدلة، يحسبون أن أنسابهم مع مخرطة الدولة هي التي يكون بها العبد والتحكم فتجد أهل، خرف مهم والصنائع متصددين لذلك، ساعين في بئله. فأما من بشر أحوال، القبط والعصبية ودولهم بالعدوة لمغربية، وكيف يكون التعتب بين الأمم والعشائر، فقل ما يغلطون في ذلك أو يحطون في اعتدله.

ومن هذا الباب أيضاً ما يسلكه المؤرخون عند ذكر الدول وسبق ملوكهم، فيذكرون إسمه، ونسبه، وأمه، وأباه، وبسائه، ولقبه، وحاته، وقضيه، وحاحبه، ووزيره، كل ذلك تقليدًا لمؤرخي لدولتين، من غير تمطل لمقاصدهم ومؤرخون لذلك لهذا كانوا يضعون تواريخهم لأهل الدولة، وأسائهم متشوفون إلى سبب سلمهم ومعرفة أحوالهم ليقتوا آثارهم ويسجوا

على مؤلفهم، حتى في اصطلاح لرحل من حيث دولتهم، وتقيد حطط
والمرتب لأداء صانعهم ودويهم، ولقصاه يضد كانوا من أهل عصه الدولة
في عدد لوزراء، كما ذكرناه، فيحتجون إلى ذكر ذلك كله

وأما حين سبب لدور وتاعد من العصور، ووقف لعرض على
معرفة لمؤك بأنفسهم خاصة وسبب دور عصه من بعض في قديها
وعندها، ومن كان يدعها من الأثم ونصر عه. فم لقائه بمصنف لهذا
لعهده في ذكر الأباء والساء، ونقش الحنم، والملقب، وقاصي، والنور،
والاحت من دولة قديمة، لا يعرف فيها أصولهم ولا أنسابهم ولا مقامهم؟
بما حملهم على ذلك التقليد والعلة عن مقاصد مؤلفين لاقديمين، ودهون
عن تحري الأعراس من التاريخ ليه، لا ذكر النور، الذين عصم ثارهم
وعقب على المنوك أحسارهم كاحتاج واسر مكة، وبني سهران
نوبخت، واس ظاهر، وكافور لإحتيادي، وس أي عمرو، ومثله. فعب
كبر، لإندع بأبائهم، وإشاره إلى نحوهم لانتصامهم في عداد لمؤك

ولمذكره فائدة تحت كلام في هذا فصل به وهي أن شرح بما هو
ذكر، لأحدر لخاصة عصر أو حين، فأما ذكر لأحوال، لعمدة لأفاق والأحسن
والأعصار، فهو أس للمؤرخ، يسي عنه أكثر مقصده، ونسب به أحدره
وقد كان الدس بفر دونه سأنسب، كما فعله المسعودي في كتاب مروج
لذهب، شرح فيه أحوال لأثم والأفاق لعهده في عصر ثلاثين وثلاثين
عرب وشرقاً، وذكر حنهم وعو بدهم، ووصف لند ورحل ونجار
والمنالك والمدول، وفرق شعوب لعرب والعجم فصار ثم سمسور حين
يرجعون إليه، وأصلاً يعولون في تحقيق لكثير من أخبارهم عنه.

ثم جاء لكري من بعده، ففعل مثل ذلك في المنالك والمنالك خاصة،
دور غيرهم من لأحوال لأن لأثم ولأحين لعهده لم يقع فيها كثير نقل ولا
عصم تعبر وأما لهد لعهده، وهو حر مائة لثامنة، فقد اقتبس أحوال
المعرب لتي نحن شاهدها وتدلنا حصه، وعصم من أحوال اسرر، أنه

على قدم، بمن طراً فيه من لدن المائة الخمسة من خيال لعرب، بما كثروهم وعسوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان لمكتبهم هذا إلى ما نزل بالعمران شرق وعرف في منتصف هذه المائة لثمة من لافة اسموية في اطاعون حار ف الذي تحيف لأم وذهب بأهل جيل وطوى كثيراً من محاسن العمران ومجاهد وحاء لدول على حين هرمها وبسوخ العاية من مدها، ففقص من طلائها، وفن من حدها، وأوهى من سبطها، ونداعت إلى التلاشي والاصمحلال أحولها، وانتقص عمران الأرض بانتقص البشر، فحرت الأمصار والمصانع، ودرست السبل والمعالم، وحت لدير والمدار، وضعفت الدول والقبائل، وتبدل السكان وكثي بالمشرق وقد نزل به ما قد نزل بالمغرب، لكن على سسته ومقد ر عمرانه وكث ما دي لسر الكؤ في العالم ناخمول و لانقص صادر إلى الإحالة وله ورث الأرض ومن عيها.

وإذا تبدلت لأحوال حمية، فكأن تبدل اخيق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه حيق حديد، وشاة مستأنفة، وعالم مُحَدَث. فحتاح نهد العهد من يدوّن أحوال احبيقة ولأفق وأحبالها. ولعوئد ولتحر لتي تبدلت لأهلها، ويقفو مسدك لمسعودي لعصره ليكون صلاً يقتدي به من يأتي من المؤرخين من بعده.

ونا دكر في كتابي هذا ما مكنتني منه في هذا لقطر إما ' صريحتاً أو من رحت في أخباره وتوابعاً لاحتصاص قصدي في تأليف بالمغرب وأحوال أحبابه وأمه، وذكر ثمانكة ودونه دون ما سواه من الأقطار لعدم اطلاعي على أحوال لمشرق وأمه، وأن لأخبار المتبقية لا توفي كنه ما ريده منه. والمسعودي بما استوفى دنت لعد رحلته وتقنه في البلاد كما ذكره في كتابه. مع أنه لما ذكر المغرب قصّر في استيفاء أحواله وغنط في بعض نقله. وهورق

كل ذي علم عليم ومزود العلم كنه إلى الله، والشعر عاجز قصر، والاعتراف متعبر وحسب ومن كان لله في عونته تيسرت عليه المذاهب وأنجحت له المساعي والمطالب ونحن اخذون بعون الله فيما رمناه من أغراض التأليف. والله المسدد والمعين وعليه التكلان

وقد بقي علينا أن نقدم مقدمة في كيفية رسم الحروف لتي لست من لغة العرب إذا عرصت في كتابنا هذا. واعلم أن الحروف في النطق، كما يأتي شرحه بعد، هي كيميائيات للأصوات الخارجة من الحنجرة، تعرض من تقطيع الصوت بقرع للهاء وأطراف اللسان مع الحلق والحنك والأضراس، أو بقرع الشفتين ضمناً. فتتعاير كيميائيات الأصوات بتعاير دث القرع، وتحيء الحروف متميزة في السمع، وتتركب منها الكلمات الدالة على ما في الصمائر.

وليست لأهم كلها متساوية في اللفظ تنك الحروف، فقد تكون لأمة من الحروف ما ليس لأمة أخرى والحروف التي بظقت بها العرب، فهي ثمانية وعشرون حرفاً، كما علمت ونجد للعبرانيين حرفاً ليست في لغتنا، وكذلك للإفرنج، ولترك، ولبربر، وغير هؤلاء من العجم

ثم إن أهل لكتاب من لعرب اصطلاحوا في الدلالة على حروفهم المسموعة بأوصاع حروف مكتونة متميزة بأشخاصها، كشكل^٦، ألف، واء، وحيم، وراء، وطاء، إلى آخر لثمانية والعشرين. فإذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم، بقي مهملاً عن الدلالة، مغفلاً عن البيان. وربما يرسمه بعض لكتاب بشكل الحرف الذي يكتننه من لغتنا قبله أو بعده وليس ذلك بكاف في الدلالة، بل هو تغيير للحرف من أصله

ولما كان كتابنا مشتملاً على أحجار لبربر وبعض لعجم، وكنت تعرض لنا في أسمائهم أو بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابنا ولا اصطلاح

أوصاعه^{١٧} ، اضطرب إلى يابه ، ولم نكتف برسم الحرف الذي يسه كما قدنا ،
 إليه عند غير واف بالدلالة عليه . فصطلحت في كتابي هذا على أن أضع
 دلت الحرف العجمي بما يدل على الحرفين الذين كتفاه ليتوسط القارئ
 بالنطق به بين مخرجي ديت الحرفين ، فتحصل تأديته . وإنما قتبست ذلك من
 رسم أهل المصحف حروف الإشمام ، كالصراط في قراءة حلف . فإن النطق
 بصده معيهم متوسط بين الصاد والزاي . فوصعوا لصاد ، ورسومو في
 داخله . شكل الزاي . ودل ذلك عندهم على لتوسط بين الحرفين فكذلك
 رسمت كل حرف يتوسط بين حرفين من حروفا . كالكاك لتوسطة عند
 الرسرين الكاك الصريحة عندا والحيم . مثل رسم كُكَيْن ، فأصعها كُفُ
 وأقطفها سقطة الحيم واحدة من أسفل ، فيدل ذلك على أنه متوسط بين الكاك
 والحيم . وهذا الحرف أكثر ما يحيى في لغة البربر وما جاء من غيره وعلى
 هذا القياس ، أصع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين معا ليعلم
 القارئ أنه متوسط ، فينطق به كذلك ، فتكون قد دلنا عليه . ولو وصعه برسم
 حرف لواحد عن جانيبه لكن قد صرفناه من مخرجه إلى مخرج الحرف
 لذي من لغتنا ، وغيرنا لغة القوم . فاعلم ذلك .
 والله الموفق

١٧ ، أوصاعها [ب]

الكتاب الأول

في طبيعه العمران في الخليقة

وما يعرض فيه من البدو والحضر والتغلب والملك والكسب⁽¹⁾
والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والأسباب

(1) ولتغلب والكسب [ب].

[تمهيد]

اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خير عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال، مثل لتوحُّش والتأنُّس، والعصبيات، وأصناف التغلُّبات للبشر بعضهم على بعض، وما يشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال. ولما كان الكذب متطرقاً للحسر بطبيعته وأنه أسباب تفتضيه.

فمنها التشيعات للآراء والمذاهب. فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقَّه من التمهيص والنظر، حتى يتبين صدقه من كذبه. وإذا خامرها تشيُّع لرأي أو نحلة، قبلت ما يوافقها من لأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميثل والتشييع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقد والتمحيص، فيقع في قبول الكذب ونقله.

ومن الأسباب المقتضية للكذب في الأخبار أيضاً الثقة بالناقلين. وتمحيص ذلك يرجع إلى التعديل والتجريح.

ومنها الدهول عن المقاصد فكثير من الماقلين لا يعرف القصد بما عاين أو سمع ، وينقل الخبر على ما في طبعه وتحميه ، فيقع في الكذب .

ومنها توهم لصدق ، وهو كثر وإنما يحيى في الأكثر من جهة الثقة بالماقلين ومنها الجهل بتطبيق الأحكام على الأحوال لأجل ما يداخلها من التليس ولتصنع ، فيقبلها المحر كما رآها ، وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه .

ومنها تقرّب الناس في الأكثر لأصحاب التجوّة والمراتب بالثناء والمدح وتحسين لأحوال وإشاعة الذكر بذلك ، فتستفيض الأحبار بها على غير حقيقة فالغوس موعة بحب الثناء ، والناس متطاولون إلى مدبها وأشبها ، من جاءه أو ثروة ، وليسوا في الأكثر براعين في الفصائل ولا منافسين في أهله

ومن الأسباب لمقتضية له أيضاً الجهل بطائع الأحوال في العمران فإن كل حدث من حوادث ، دتاً كان أو فعلاً ، لا بد له من طبيعة تحسه في ذاته ، وفيما يعرض من أحواله . فإذا كن السامع عارفاً بطائع الحوادث وأحوال في الوجود ومقتضياتها ، أعده ذلك في تمحص الخبر على تمبير الصدق من لكذب . وهذا أبلغ في التمهيص من كل وجه يُعرض .

وكثيراً ما يعرض للسامعين قول الأحبار المستحيلة وينقونها وتؤثر عنهم كما يقبه السعودي عن الإسكندر لما صدته دواب لبحر عن بناء الإسكندرية ، وكيف اتخذ تابوت الخشب وفي ناطه صندوق الزجاج وعاص فيه إلى قعر البحر حتى كتب صور تلك الدواب الشيطانية التي رآها وعمل تماثيلها من أحجار معدنية ونصّبها حذاء لسيد ، وفرت تلك الدواب حين خرجت وعابنتها ، وتم له نأؤه ، في حكاية طويلة من أحديث خرافة ، مستحيلة من قبل اتخذ التابوت الزجاجي ومصدمة البحر وأموحه به ، ومن قيل أن الملوك لا تحمل أنفسهم على مثل هذا العرر . ومن اعتمده منهم فقد عرّص نفسه لهلكة واستفاد العقدة ، واجتماع الناس إلى غيره ، وفي ذلك تلاوه ، لا يتطرون به رجوعه من عروره . ذلك طرفة عين ومن قبل أن احنوا لا تعرف لها صور

ولا تمثيل تحتصُّ بها، إما هي قادرة على التشكل. وما يُذكر من كثرة الرؤوس لها، فإنما المراد به الشاعة والتهويل، لا أنه حقيقة.

وهذه كلها قاذحة في تلك الحكاية. والتقادح المحيل لها من طريق الوجود بآئين من هذا كله أنَّ المنعمس في الماء، ولو كان في الصدوق، يضيق عليه الهواء للتنفس الطبيعي، ويتسحق بسرعة لقلته، فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل لمزاج الربة والروح القلبي، ويهلك مكنه. وهذا هو السبب في هلاك أهل الحمامات إذا أطسقت عليهم عن الهواء البارد، والمتدلين في الآبار والزنى العميقة المهوى إذا سحن هواؤها بالعقونة ولم تداخلها الرياح فتحلحله، فإن المتدلى فيها يهلك لحينه. وبهذا السبب يكون موت الخوت إذا فارق البحر، فإن الهواء لا يكفي في تعديل ريته، إذ هو حار، والماء الذي يعدله بارد، فيستولي الحر على روحه الحيواني ويهلك دفعة. ومنه هلاك المصعوقين، وأمثال ذلك.

ومن الأخبار المستحيلة، ما نقله المسعودي أيضًا في ثمال الزرور الذي برومة، تجتمع إليه الزرار في يوم معلوم من السنة، حاملة للزيتون، ومنه يتخذون ريتهم. ونظر ما أبعد ذلك عن المجرى الطبيعي في اتخاذ الزيت. ومنها ما نقله السكري في بناء المدينة المسماة ذات الأبواب، تحيط بأكثر من ثلاثين مرحلة، وتشتمل على عشرة آلاف باب. والمدن إنما اتُّخذت للحصن والاعتصام، كما يأتي. وهذه خرجت عن أن يُحاط بها، فلا يكون فيها حصن ولا معتصم.

وكما نقله المسعودي أيضًا في حديث مدينة النحاس، وأنها مدينة كلها من نحاس بصحراء سجلماسة صَرَّقَهَا موسى بن نُصَيْر في غزوته إلى المغرب، وأنها مغلقة الأبواب، وأن الصاعد إليها من أسورها إذا أشرف على الحائط صَقَّ ورمى بنفسه، فلا يرجع آخر الدهر، في حديث مستحيل من خرافات القصاص. وصحراء سِجْلَمَاسَة قد نفضها الركاب والأدلاء ولم يقفوا لهذه

المدينة على خبر. ثم إن هذه الأحوال التي ذكروا عنها كلها مستحيل عادة، مداف للأموال الطبيعية في بناء المدن واختطاطها، وأن المعدن عاية الموحود منها أن يصرف في الآنية والحربي، وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من الاستحالة وأمثال ذلك كثير. وتمحيصه إنما هو معرفة طبائع العمران، وهو أحسن الوحوه وأوثقها في تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها

وإذا كان ذلك، فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأحبار أن نظري الاجتماع الشري الذي هو العمران، وتمييز ما يصدق من الأحوال لدته وعمقضى طبعه، وما يكون عارضاً لا يُعْتَدُّ به، وما لا يمكن أن يعرض له. وإذا فعنا ذلك كان لنا قانوناً في تمييز الحق من الباطل في الأحبار والصدق من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه. وحينئذ، فإذا سمعنا عن شيء من الأحوال الواقعة في العمران، علمنا ما نحكم بقوله مما نحكم بتزييفه، وكان لنا ذلك معياراً صحيحاً يتحرى به المؤرخون طريق لصدق والصواب فيما ينقبوه وهذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفه. وكأن هذا علم مستقل بنفسه. فإنه ذو موضوع، وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، ودو مسائل، وهي يبد ما يلحقه من العوارض والأحوال لداته، واحدة بعد أخرى وهذا شأن كل علم من العلوم وصعياً كان أو عقلياً

وعدم أن الكلام في هذا العرض مستحدث، لصعته، غريب النزعة، عزيز الفائدة، أعثر عليه البحث، وأدنى إليه لعوض. وليس من علم خطابة، الذي هو أحد الكتب المنطقية، فإن موضوع الخطابة إنما هو الأقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور إلى رأي أو صدّهم عنه. ولا هو أيضاً من علم السياسة المدنية، إذا السياسة المدنية هي تدبير المنزل أو المدينة مما يحب بمقتضى الأخلاق والحكمة، ليحمل لجمهور على مهاج يكون فيه حفظ النوع ونقاؤه فقد حائف موضوعه موضوع هذين الفين اللذين رعى يشبهه، وكأنه علم مستنبط النشأة، ولعمري لم أقف على الكلام في منحاها لأحد من الخليفة، ما أدري ألغفلتهم عن ذلك، وليس لظن بهم، أو لعمهم كتبوا في هذا العرض

واستوفوه ولم يصل إليها. فالعلوم كثيرة، وحكماء في ثم لنوع لإسسي متعددون، وما لم يصل إلينا من العلوم أكثر مما وصل. فبين علوم الفرس الندي أمر عمر بحجوها عند الفتح؟ وأين علوم الكلديين وأهل بابل، وما ظهر عليهم من أثارها وتآثجها؟ وأين علوم الفسط ولسريانيين من فيهم؟ وإلى وصل إلينا علوم أمة واحدة، وهم يونان حصة، لكف سامور بإخراجها من لعنهم وفتداره على ذلك بكثرة المرحمين وسبل لأموال فيها. وبه نفق على شيء من علوم غيرهم

وإذ كانت كل حقيقة متعلقة طبيعية يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها، وجب أن يكون باعتبار كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يحصه نكن الحكماء لعنهم بما لاحظوا في ذلك العناية بالثمرات وهذا إلى ثمرته، كما رأيت، في الأحبار فقط. وإن كانت مسئلة في ذاتها وباحتصاصاتها شريفة، لكن ثمرته تصحيح الأحبار، وهي صعبة. ولهذا هجره. والله أعلم. وما أوتيت من العلم إلا قليلاً

وهذا لمن الذي لاح له النظر فيه، بخد منه مسائل تحري بالعرض لأهل العلوم في براهين عمومهم. وهي من جنس مسئلة بالموضوع والمطلب، مثل ما يذكره الحكماء في إثبات السوة، من أن البشر معاويون في وجودهم فيحتاجون فيه إلى الحاكم والورع. ومثل ما يذكر في أصول الفقه في باب إثبات البعائ أن الناس محتاجون للعبارة عن لمقاصد بطبيعة لبعائهم ولاحتتماع، وشأن العبارات أخف، ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الأحكام الشرعية بالمقاصد في أن الزنا محبط للأسباب، ومفسد لمصوغ، وأن القتل أيضاً مفسد لمصوغ. وإن صمم مؤذن بحراب العمران المفتصي فساد لمصوغ، وغير ذلك من سائر المقاصد الشرعية في لأحكام وأنها كلها مبنية على المحافظة على العمران، فكان لها النظر فيما يعرض له. وهو طاهر من كلام هذا في هذه المسائل⁴

(4) بهذه حجة في [ب] المسائل ممثلة

وكذلك أبصَّ يقع إليـب لتقيل من مسائله في كلمات متفرقة لحكماء
لخليقة، لكنهم لم يستوفوه. فمن كلام الموندان لِنَهْرَامْ بن نَهْرَامْ في حكاية
المُوم لتي بقها المسعودي: 'يها لمدك! إـد المـك لا يتمُّ عزُّه إلا بالشرعية
والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره وبهيه. ولا قوام للشرعية إلا بالمدك.
ولا عزُّ لمدك إلا بالرحل ولا قوام للرجال إلا بالمال. ولا سبيل إلى المال إلا
بالعمارة ولا سبيل إلى العمارة إلا بالعدل. والعدل لميزان المنصوب بين
الخليقة، نصه الرب وحل له قِيَمًا، وهو المدك'

ومن كلام أَوْشِرَوَانْ في هذا المعنى عبية: الملك ماخذ، والجند المال،
والمال باخراج، والخراج بالعمارة، والعمارة بالعدل، والعدل بإصلاح العمال،
وإصلاح العمال باستقامة الورع، ورأس الكل يتفقد الملك أمور رعيته نفسه
واقتراره على تأديبه حتى يمكنها ولا تمكنه'

وفي الكتاب المسبوق لأرسطو في السياسة المتداول بين الجمهور جزء
صالح منه، إلا أنه عبر مستوفى ولا معطى حقه من الرايين، ومختلط بغيره.
وقد أشار في ذلك الكتاب إلى هذه لكيبات التي نقلناها عن الموندان
وأَوْشِرَوَانْ، وحلها في لدائرة العربية التي أعظم القول فيها، وهي قوله:
العالم سستان، سباجه الدولة ولدولة سستان تُحَيِّ به السنة ولسته سياسة
يسوسها الملك الملك راع يعضده الخيش' الجيش' أعوان يكملهم المال.
المال رزق تجمع الرعية الرعية عبيد يكفهم العدل. العدل مألف، وه قوام
العالم. العالم سستان... ثم يرجع إلى أول الكلام.

فهذه ثمان كلمات حكمية سياسية ارتبط بعضها بعض، وارتدت أعجازها
على صدورهم، وتصب في دائرة لا تتعین طرفها، فخر بعثوره عليها وعظم
من فوائدها وهذه صورته: 'وأنت إذا تأملت كلامنا في فصل المدك
ولدول وأعطيته حقه من التصحيح والتفهم، عثرت في أثناؤه على تفسير هذه

٥، لمدك نظام يعصمه، اخند [ب]

٦ اخند [ب]

٧ برده في [] سم لدائرة ولا برده في [ب]

الكلمات وتفصيل إجمالها مستوفى مبيناً بأوعب بيان وأوضح دليل وبرهان،
أصغت له عيه من غير تعليم رُسُطُو ولا إفادة المَوَدَّان.

وكذلك نجد في كلام ابن المقفع وما يستطرد في رسائله من ذكر السبسات
لكثير من مسائل كتاب هذا غير مرهنة كما مرهنة، إنما يحدها في الذكر على
محي خاصة في أسس وترسيب وبلاغة للكلام

وكذلك حوَم القاصي أبو بكر الطرُطوشي على هذا العرص في كتاب
سراج الملوك، وبوَه على أبواب تقرب من أبواب كتبت ومساكنه، لكنه لم
يصدق فيه لرمية، ولا أصب لشاكنة، ولا استوفى المسائل، ولا أوضح
لأدلة، إنما يتوَّ الب للمسألة، ثم يستكثر من لأحاديث ولائار، ويقبل
كلمات متفرقة لحكماء، الفرس مثل سُزْرَجْمُهر والموندان، وحكماء لهند،
والمأثور عن دانيال وهَرْمِس، وغيرهم من أكاثر الخليفة ولا يكشف عن
التحقيق فساد، ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجاب، إنما هو نقل وترعيب شيه
بأنواع عظم، وكأنه حوَم على العرض ولم يصدفه، ولا تحقَّق قصده، ولا
ستوفى مسائله

وحسن ألهما لله إلى ذلك إلهام، وأعثرنا على علم جعنا سس بكرة
وحقيقة خبره فإن كنت قد استوفيت مسائله وميزت عن سائر الصنائع
أظنره وأحساء، فتوفيق من الله وهداية وإن فاتني شيء في إحصائه،
واشبهت بغيره مسائله، وللناظر لمحقق صلاحه، ولي الفصل أسمى نهجت له
السبل وأوضح الطريق

والله يهدي سوره من يشاء

فنحن الآن سنن في هذا الكتاب ما يعرض لمشر في اجتماعهم من أحوال
العمران في الملك والكسب والعلوم والصنائع بوحوه برهانية يتضح بها
التحقيق في معارف الخاصة والعممة، وتندفع بها الأوهام، وترفع الشكوك
ونقول: لما كان الإسد متميزاً عن سائر الحيوانات بحواص اختصاص بها،
فمنها لعلوم والصنائع نتي هي شجرة الفكر لذي تميز به عن الحيوانات،

وشرّف بوصفه على المخوقات. ومنها الحاجة إلى حكم الوازع والسيطان
القاهر، إذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين حيوانات كلها إلا ما يقال عن
النحل والحراد وهذه، وإن كان لها مثل ذلك، فطريق إلهامي، لا بفكر
وروية. ومنها السعي في المعاش والاعتماد في تحصيله من وجوهه وكتساب
أسببه، لما جعل الله فيه من الافتقار إلى الغذاء في حياته وبقائه وهده إلى
التمسسه وطنه. قال تعالى: "عطى كل شيء حقه ثم هدى". ومنها العمران،
وهو التمكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشرة واقتضاء الحاجات، لما
في طباعهم من التعاون على المعاش، كما نبين.

ومن هذا لعمران ما يكون بدويًا، وهو الذي يكون في الصوحي
والحبل، وفي الحبل المنتحة للقمار وأطراف الرمال. ومنه ما يكون حصريًا،
وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن والمدائر للاعتصام بها والتحصن
بحدودها وله في كل هذه الأحوال أمور تعرض من حيث الاجتماع عروصًا
دانيًا له فلا جرم نحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة فصول.

الأول في عمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الأرض.

الثاني في العمران البدوي وذكر القبائل والأمة الوحشية

الثالث في لدول والخلافة والملث وذكر المراتب السلطانية.

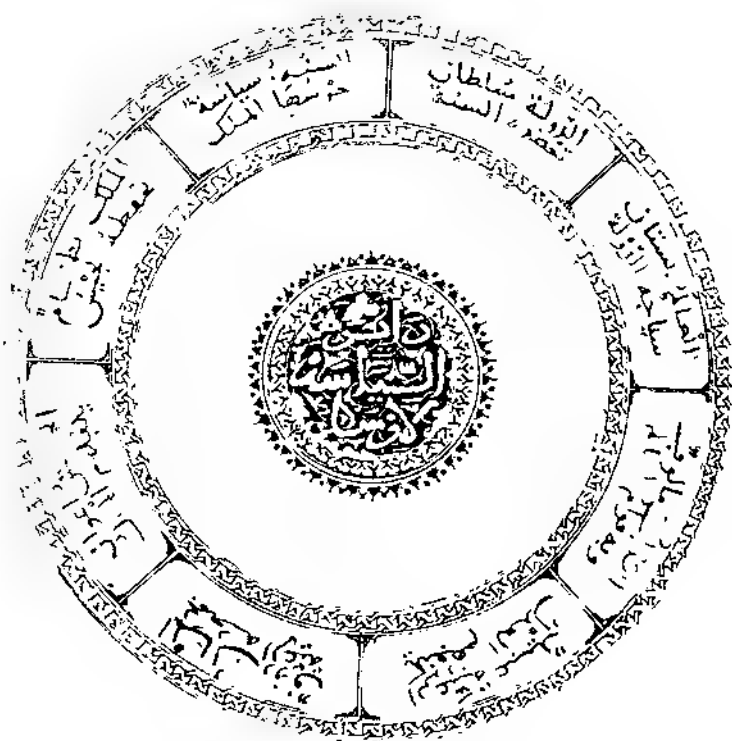
الرابع في العمران الحضري والبلدان والأمصار.

الخامس في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه.

السادس في العلوم واكتسابها وتعمقها.

وقدمت العمران البدوي لأنه سابق على جميعها، كما يتبين لث بعد
وكذا تقديم الملك على البلدان والأمصار وأما تقديم المعاش، فلأن المعاش
ضروري وطبيعي، وتعلم العلم كمال أو حاجي و لطبيعي أقدم من الكمال
وحملت الصنعة مع الكسب، لأنها منه بعض الوجوه ومن حيث العمران،
كما نبين بعد. والله الموفق والمعير⁸.

8 هبة حملة في [ب] والله الموفق



والمعروف بالسياسة

الفصل الأول

في العمران البشري على الجملة ومكانه من الأرض وأصنافه
وفيه مقدمات^(١)

(١) فصل الأول وفيه مقدمات [ب]

المقدمة الأولى في أن الاجتماع للإنسان ضروري

ويعبر الحكماء عن هذا بقولهم . الإنسان مدني بطبعه ، أي لابد له من اجتماع ، الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى العمران وبيده أن الله سبحانه خلق الإنسان وركبه على صورته لا تصح حياته وتقوؤها إلا بالعداء ، وهذاه إلى التماسه بقصرته وما درك فيه من القدرة على تخصيصه . لأن قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تخصيص حاجته من ذلك الغذاء ، غير موفية له بماذا حياته منه ، ولو فرضنا منه قل ما يمكن فرضه ، وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً ، فلا يحصل إلا بعلاج كثير ، من الطحن والعجن والطح وكذا واحد من هذه الأعمال لثلاثة يحتاج إلى مواعين وثلاث لا تتم إلا بصاعات متعددة ، من حدة دوتار وفخار . هب أنه يَكُنْه حياً من غير علاج ، فهو أيضاً يحتاج في تخصيصه حتماً إلى أعمال أخرى أكثر من هذه من نزرعة ، وإحصاء ، والدرس الذي يحرج حباً من غلاف السبيل ، ويحتاج كل واحد من هذه إلى ثلاث متعددة وصنائع كثيرة ، أكثر من لأوسى كثير ويسيجر أن توفي ذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد . فلا بد من اجتماع القدر الكثيرة من أبناء جنسه لتخصيص القوت له وبهم ، فيحصل بالتعاون قدر لكتفية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف .

وكذلك يحتج كل واحد منهم أيضًا في دفع عن نفسه إلى الاستعانة
بأنه حسنة، لأن الله سبحانه لما ركب الطين الحيواني كنهه وقسم القدر
بينها، جعل خطوط الحيوانات تُعْجَم من القدرة أكمل من خط الإنسان
فقدرة لغرس مثلاً أعظم بكثير من قدرة للإنسان، وكذا قدرة خمار وثور،
وقدرة الأسد والبعيل أصعاف من قدرته

وما كان لعدوان طبعه في حيوان، جعل لكل واحد منها عضوًا يختص
مدافعة ما يصل إليه من عادية غيره، وجعل للإنسان عوضًا من ذلك كنه الفكر
واليد ولقد مهتة لصنع بحكمة الفكر، والصناعات تحصل له الآلات التي
نوب له عن خوازج المعدة في سائر الحيوانات للدفاع، مثل رمح التي
نوب عن القرب لسطحة، ولسيوف لثنية عن محالب خارقة، والثراس
لثنية عن الشراش الحسية، إلى غير ذلك وغيره مما ذكره جالينوس في كتاب
منافع الأعضاء

فإن أحد من البشر لا تقوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات لعنه، سيما
المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة، ولا تفي قدرته أيضًا
بالتعامل بالآلات المعدة للمدافعة لكثرتها وكثرة الصناعات والمواعين المعدة لها
فلا بد في ذلك كله من التعود عليه سواء حسنة، وما لم يكن هذا التعود،
فلا يحصل له قوت ولا غذاء، ولا تتم حياته، ما ركه الله عليه من الحاجة إلى
العداء في حياته ولا يحصل له أيضًا دفاع عن نفسه، لفقد السلاح، فيكون
معرضة للحيوانات، ويعاينه لهلاك عن مدى حياته، ويضطر بوح الشرس، وقد
كان التعود، حصل له القوت للعداء والسلاح للمدافعة، ونمت حكمة الله
في صفاته حفظ نوعه

فإدب، هذا لاجتماع ضروري لتنوع الأشياء وإلا لم يكمل وجودهم
وما أراد الله من اعتماد العالم بهم وسنحلافه إليهم وهذا هو معنى
الاعتماد لدى جميعه موضوعه لهذا العلم

وهي هذا الكلام نوع إثبات لموضوع في فيه اندي هو موضوع له .
وهذا، وإن لم يكن واحداً على صاحب الفن لما تقرر في الصاعدة المنطقية أنه
نيس على صاحب علم إثبات الموضوع في ذلك النعم، فليس أيضاً من
المصنوعات عندهم. ويكون إثباته من التبرعات والله الموفق بفصله
ثم إن هذا لاجتماع د. حصل للنشر، كما قررناه، وتم عمر ن العالم بهم،
فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض، لما في طابعهم الحيوانية من لعدوان
والظلم. وليست السلاح لني جعلت دفة لعدوان الحيونات لعجم عنهم
بكافية في دفع العدوان بينهم، لأنها موحودة جميعهم فلا بد من شيء آخر
يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من غيرهم، لقصور جميع
الحيوانات عن مداركهم وإلهامتهم فيكون ذلك الوازع واحداً منهم، تكون
له عليهم أغلبة والسدّون وليد القاهرة، حتى لا يصل أحد إلى غيره بعدوان.
وهذا هو معنى الملك وقد تبين لك بهذا أنه خاصة للإنسان ضيعية، لا بد لهم
منها. وقد توجد في بعض الحيونات نعيم، على ما ذكره الحكماء، كما في
النحل والخراد، لما استقرّي فيها من حكم ولانقياد ولاتناع لرئيس من
أشخاصها متميز عنهم في خلقه وحنمانه إلا أن ذلك موحود لغير الإنسان
عمقتصي الفطرة ولهداية، لا بمقتضى لفكرة ولسياسة. أعطى كل شيء خلقه
ثم هدى^١.

ويزيد الفلاسفة على هذا البرهان، حيث يحاولون إثبات النبوة بالدليل
العقلي، وأنها خاصة طيعية للإنسان فيغرون هذا البرهان إلى غايته، وهو
أنه لا بد للنشر من الحكم الوازع ثم يقولون بعد ذلك: وذلك للحكم يكون
شرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من الشر يكون متميزاً عنهم بما
يودع الله فيه من خواص هدايته ليوقع لتسليم له والقبول منه، حتى يتم
الحكم فيهم وعليهم من غير إنكار ولا تشريب

(١) من عند الله تعالى [ب]

وهذه القضية المزيدة للحكماء غير طبيعية، كما تراه، إذ الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يمرضه الحاكم لنفسه، أو بالعصية التي يقتدر بها على قهرهم وحملهم على جادته. فأهل الكتاب والمتبعون للأنبياء قليلون بالنسبة إلى المجوس الذين ليس لهم كتاب، فإنهم أكثر أهل العالم. ومع ذلك فقد كنت لهم الدول والآثار، فضلاً عن الحياة. وكذلك هي لهم لهذا العهد في الأقاليم المحرقة إلى الشمال والجنوب، بخلاف حياة البشر فوضى دون وارع البتة، فإنه ممتنع. وبهذا يتبين لك غلطهم في وجوب السوات، وأنه ليس بعقلي وإنما مدركه الشرع، كما هو مذهب السلف من الأمة. والله ولي التوفيق والهداية.

المقدمة الثانية

في قسط العمران من الأرض وقسمة المعمور إلى الأقاليم
السبعة وذكر ما فيه من البحار والأنهار الكبرى¹

إله قد تبار في كتب الحكماء المذيرين في أحوال لعالم أن شكل لأرض
كروي، وأنها محمولة بعنصر الماء كأيها عنة طافية عنه وحسب ماء عن بعض
حواسها، لما أراده الله تعالى من تكوين الحيوانات فيها وعمرانها بأسرار
البشري الذي له خلافة على سائرها وقد يتوهم من ذلك أن الماء تحت
الأرض، وليس بصحيح. وإنما انفتحت لطبيعي قسمة الأرض ووسط كرتها
الذي هو مركزها، والكل يطله عما فيه من الثقل وما عد ذلك من حواسها
ولم الماء المحيط بها فهو فوق. وقد قيل في شيء منها أنه تحت، فإضافة إلى
جهة أخرى عنه

وهذا الذي يحسره عنه الماء من لأرض هو ربع من سطح كرتها في شكل
دائرة أحاط العنصر لما في بها من جميع جهاتها بحر يسمى 'بحر محيط'،
ويسمى 'بص' 'ثلاثية'، تنحيم الالام الثلاثة، ويسمى 'قياس'، أسماء
عجمية. ويقال له البحر 'لأحصر'، و'لأسود'

1 في قسط العمران من الأرض والإشارة إلى بعض ما فيه من البحار والأنهار الكبار [ب]

2 فاس [ب] و [ب]

ثم إن هذا المكتشف من الأرض للعميران فيه القفار والخلاء أكثر من عمارته. والحالي من جهة الجنوب منه أكثر من جهة الشمال. وإنما المعمور منه بقعة أميل إلى جانب الشمال على شكل سطح كروي ينتهي من جهة الجنوب إلى خط الاستواء، ومن جهة الشمال إلى خط مستقيم، وراءه حائل الفاصلة بينه وبين الماء العنصري التي بينها سد ياجوج وماجوج، وينتهي من الشرق والغرب إلى عنصر الماء أيضًا بقطعتين من الدائرة المحيطة.

وسبب خلاء الجنوب فيما ذكره إفراط الحر فيه بارتفاع الشمس عامة الفصول إلى مسامته الرؤوس وما حولها. فلا تزال أشعتها على الزوايا لقائمة أو قريبًا منها، فيكثر الضوء ويعظم الحر. والجانب الشمالي لإفراط البرد فيه بعكس ذلك، وهو هبوط الشمس ووصول أشعتها إلى الأرض على الزوايا المنفرجة، فيقل الضوء، فيعظم البرد، لأن الضوء سبب الحر والتسخين. وإذا خرجت كيفيات الحرارة والبرودة عن حدها فسد التكوين. فلذلك كان ما وراء خط الاستواء من الجنوب عندهم خلاء قفرًا.

ومعنى خط الاستواء الخط الذي تسامت الشمس رؤوس أهله عند حلولها بنقطتي الحمل والميزان، وهو من المشرق إلى المغرب. وذلك أنه تبين في موضعه من كتب الحركات الفلكية أن فلك الشمس ليس على قطب الفلك المحرك لسائر الأفلاك بحركته اليومية، بل القطبان مختلفان. والمعتبر في عمل الآلات كلها قطب الفلك المحرك الذي تعين بحركته الزمان والفصول. وكل فلك فيه دائرة هي أعظم دوائره وأوسعها. فتكون دائرة الشمس المنقسمة ببروجها الإثني عشر مقاطعة لدائرة المحرك، أو من نقطتي التقاطع ابتدئ قسمة البروج، فجعلت إحدهما لرأس الحمل، ومقابلتها لرأس الميزان. واختلف وضع الشمس بالنسبة إلى الأرض بمحاالة ولكها للمحرك، كما قلناه، ولدائرة سمت الرؤوس، كما نبينه. فصارت تارة مرتفعة، وتارة هابطة. بحسب بعدها من الدائرة العظمى التي لسمت الرؤوس، سواء كدت دائرة الفلك المحرك أم لا. فاختلف الحر والبرد باختلاف وضعها،

وانقسمت الأزمنة بالفصول، لما أَرَادَهُ اللّهُ من حصول التكوين في علم العناصر.

ثم إن الأفق، كما تقرر في كتب الآلات، هو الفرق بين ما يرى من السماء وما لا يرى. فكل أفق دائرة من الفلك هي أيضًا أعظم الدوائر المحيطة بهم، وهي مسامتة لرؤوسهم. فإن كان قطبا الفلك المحرك على ذلك الأفق، كانت دائرته العظمى هي المسامتة لهم، فتكون الشمس تسامتهم في نقطتي الحمل والميزان مرتين في السنة، وأبعد بعدها في ميلها عن مسامتتهم حلولها برأس السرطان والجدي. وهناك يقل الحر ويكثر فيما قرب من المسامتة، فيكون لأهل ذلك الأفق شتاءان وصيفان، وزمان صيفهم أطول، لأن المسامتة في زمنين. وكل ما قرب منها قل حركه. والميل في ذلك الأفق ليس بكثير، فيكون زمان الحر أطول جدًّا من زمان البرد. لأنه في برجتي الحمل والثور ونظيرهما من الحوت والدلو، ومقابل هذه الأربعة، فيكون ثمانية أشهر، والبرد في أربعة. إلا أنه قليل في كميته أيضًا، وإنما هو بالنسبة إلى الحر الموجود عندهم. فلذلك كان الحر في هذا الأفق كثيرًا جدًّا، ولكن ليس خارجًا عن حد التكوين. وليس هو بأفق واحد، بل هي آفاق ذاهبة من المغرب إلى المشرق. والخط الواصل بين جميعهما هو خط الاستواء الذي امتنع التكوين فيما وراءه من الجنوب لإفراط الحر. فإذا ارتفع القطب الشمالي على أفق بمقدار ما، نزل الجنوبي مثله، ونزلت دائرة الفلك في كل سنة، ما دامت المسامتة فيما بين نقطتي الحمل والسرطان، لأن كل نقطة تفرض فيها المسامتة من هذه القطعة تفرض في نظيرتها التي بعدها من السرطان مثلها. فإذا هبط رأس السرطان في الأفق المفروض عن المسامتة، صار فصل الحر والبرد واحدًا، وصار للاعتدال فصلان، أعدلهما ما خرج إلى الحر عن البرد.

و من هذا نفهم فساد التكوين فيما وراء الاستواء. والعرض في الأفق الذي يسامت فيه رأس السرطان أربعة وعشرون في تهامة وما إليها، وهو عدد ميل الشمس عن نقطة رأس الحمل الذي هو دائرة المحرك. فما راد من

العروض عن الأربعة والعشرين لا تسامت الشمس فيه رؤوس أهله. ولا تزال في انخفاض إلى أن تنتهي في الانخفاض عن السميت الذي في دائرة المحرك إلى ستين. وما زاد عليها، فيعم البرد عامة الأزمنة ويخرج عن حده فيفسد التكوين أيضاً. وذلك في جانب الشمال.

وللمحكماء على خلاف ما وراء الاستواء براهين ليس هذا موضع بسطها. ثم إن المخبرين عن هذا المعمور وحدوده وما فيه من الأمصار والمدن والجبال والأنهار والقفار والرمال، مثل بطليموس في كتاب الجغرافيا، وصاحب كتاب رجار من بعده، قسموا هذا المعمور بسبعة أقسام يسمونها السبع الأقاليم بحدود وهمية بين المشرق والمغرب. متساوية في العرض، مختلفة في الطول. فالإقليم الأول أطول مما بعده، وكذا الثاني، إلى آخرها. فيكون السابع أقصر لما اقتضاء وضع الدائرة الناشئة من انحصار الماء عن كرة الأرض.

وكن واحد من هذه الأقاليم عندهم منقسم بعشرة أجزاء، من المغرب إلى المشرق على التوالي. وفي كل جزء الخبر عن أحواله وأحوال عمرانه.

وذكروا أن هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة الغرب³ في الإقليم الرابع البحر الرومي المعروف. يبدأ في خليج متضايق في عرض إثني عشر ميلاً أو نحوها، ما بين طنجة وطريف، ويسمى الزقاق. ثم يذهب مشرقاً وينفسح إلى عرض ستمائة ميل. ونهايته في آخر الجزء الرابع من لإقليم الرابع. وعيه هناك سواحل الشام، وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب. أولها طنجة عند الخليج، ثم إفريقية، ثم برقة إلى الإسكندرية. ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية⁽⁴⁾، ثم البنادقة، ثم رومة، ثم الإفرنجية، ثم الأندلس إلى طريف عند الزقاق، قبالة طنجة. ويسمى هذا البحر 'الرومي'

(3) المغرب [ب]

(4) القسطنطينية [ب]. هكذا في باقي النص

و'الشامي وفيه جزر كثيرة عامرة، كبارها مثل إقريطش، وقبرص، وصقبة، وميورقة، وسردانية، ودانية.

قالوا ويخرج منه في جهة الشمال بحران آخران من خليجين، أحدهما مسامتة للقسطنطينية، يبدأ من هذا البحر متضيقاً في عرض رمية السهم، ويمر بالقسطنطينية في عرض أربعة أميال، ويستبحر وراءها في عرض ستين ميلاً، ويسمى هنالك بحر نيطس. وينحرف من هناك في مذهبه قليلاً إلى ناحية الشرق، فيمر بأرض هريقلية، وينتهي إلى بلاد الخزرية على ألف وثلاثمائة ميل من مبداه. وعليه من الجانبين أمم من الروم، والترك، وبرجن، ولروس. ويسمى "خليج القسطنطينية"، و"بحر نيطس".

والبحر الثاني من هذا البحر الرومي يخرج من بلاد الروم على سمت الشمال. فإذا انتهى إلى شنت أنجل، انحرف في سمت الغرب إلى بلاد البنادقة. وينتهي إلى بلاد أنطالية، على ألف ومائة ميل من مبداه. وعلى ضفتيه من البنادقة والروم وغيرهم أمم. ويسمى "خليج البنادقة".

قالوا: وينساح من هذا البحر المحيط أيضاً من الشرق وعلى ثلاث عشرة درجة في الشمال من خط الاستواء بحر عظيم متسع، يمر إلى الجنوب قليلاً حتى ينتهي إلى الإقليم الأول، ثم يمر فيه مغرباً إلى أن ينتهي في الجزء الخامس منه إلى بلاد الحبشة والزنج، وإلى باب المندب منه، على أربعة آلاف فرسخ وخمسمائة فرسخ من مبداه. ويسمى البحر "الصيني" و"الهندي" و"الحبشي". وعليه من جهة الجنوب بلاد الزنج، وبلاد بربر⁽⁵⁾ التي ذكرها امرؤ القيس في شعره، وليسوا من البربر الذين هم قبائل المغرب. ثم يلد سفلة، وأرض الرواق واق، وأم أخرى ليس بعدهم إلا القفار والخلاء. وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبداه، ثم الهند، ثم السند، ثم سواحل اليمن من الأحقاف، وزبيد وغيرها، ثم بلاد البجة عند نهايته، وبعدهم الزنج.

(5) المغرب [ب]

(6) بربر [ب]

قائلاً: ويخرج من هذا البحر الحبشي بحران آخران، يخرج أحدهما من نهايته عند باب المندب، فيبدأ متضايقاً، ثم يمر مستبحراً إلى ناحية الشمال ومغروباً قبلاً إلى أن ينتهي إلى مدينة القلزم، وبينه وبين قسطنطين مصر من هناك ثلاث مراحل. وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن، ثم الحجاز وجدة، ثم مدين وأيلة وفاران عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل الصعيد، وعيذاب، وسواكن، وزائع، ثم بلاد البجة عند مبدئه. وآخر عند القلزم يسامت لبحر الرومي عند العريش، وبينهما نحو ست مراحل. وما زال الملوك في الإسلام وقبلة يرومون خرق ما بينهما، ولم يتم ذلك.

والبحر الذي من هذا البحر الحبشي، ويسمى الخليج الأخضر، يخرج ما بين بلاد السند والأحفاف من اليمن، ويمر إلى ناحية الشمال مغروباً قبلاً إلى أن ينتهي إلى الأبلدة من سواحل البصرة في الجزء السادس من الإقليم الثاني وعشرون أربعمائة فرسخ وأربعين فرسخاً من مبدئه. ويسمى بحر فارس. وعليه من جهة الشرق سواحل السند، ومكران، وكرمان، وفارس، والأبلدة عند نهايته. ومن جهة العرب، سواحل البحرين، واليمامة، وعمان، والشحر، والأحفاف عند مبدئه. وفيما بين بحر فارس والقلزم هي جزيرة العرب، كأنها دخلت من البحر في البحر، يحيط بها البحر الحبشي من الجنوب، وبحر القلزم من الغرب، وبحر فارس من الشرق، وتفضي إلى العراق فيما بين الشام والبصرة على أنف وحسمائة ميل بينهما. وهناك الكوفة، والقادسية، وبغداد، وديوان كسري، والخيرة. ووراء ذلك أم الأعاجم^٨. وليس لنا في هذا الكتاب حاجة بذكرهم ولا ذكر بلادهم. وفي جزيرة العرب هي بلاد الحجاز في جهة الغرب منها، وبلاد اليمامة والبحرين وعمان في جهة الشرق منها، وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها، وسواحلها على البحر الحبشي.

(٧) القلزم. في الجزء الخامس من الإقليم الثاني على ألف وأربعمائة من مبدئه، ويسمى بحر القلزم، وبه [ب]

(٨) بلاد حمزة في [ب]؛ الأعاجم من الترك وغيرهم. والجملة التي تلي سقطت في [ب]

قالوا : وفي هذا المعمور بحر آخر منقطع عن سائر البحار في ناحية الشمال وبأرض الديلم يسمى بحر "جرجان"، و"طبرستان"، طوله ألف ميل في عرض ستمائة ميل. في غربيه اذربيجان والديلم، وفي شرقيه أرض الترك وخوارزم، وفي جنوبيه طبرستان، وفي شماليه أرض الخزر واللان. هذه جملة البحار المشهورة التي ذكرها أهل الجغرافيا.

قالوا : وفي هذا الجزء المعمور أنهار كثيرة، أعظمها أربعة أنهار. وهي : النيل، والفرات، ودجلة، ونهر بلخ المسمى "جيحون".

فأما النيل، فمبدؤه من جبل عظيم وراء خط الاستواء بست عشر درجة، وعلى سمت الجزء الرابع من الإقليم الأول. ويسمى "جبل القمر". ولا يُعَلَمُ في الأرض جبل أعلى منه. تخرج منه عيون كثيرة، فيصب بعضها في بحيرة هك وبعض في أخرى. ثم تخرج أنهار من البحيرتين، فتصب كلها في بحيرة واحدة، عند خط الاستواء وعلى عشرة مراحل من الجبل. ويخرج من هذه البحيرة نهران، يذهب أحدهما إلى ناحية الشمال وعلى سمت، ويمر ببلاد النوبة ثم ببلاد مصر، فإذا جاوزها تشعب في شعب متقاربة يسمى كل واحد منها حليخاً. وتصب كلها في البحر الرومي، عند الإسكندرية. ويسمى النيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه، والواحات من غربيه. ويذهب الآخر منعطفاً إلى الغرب⁽⁹⁾ على سمتة إلى أن يصب في البحر المحيط. وهو النيل السودان⁽¹⁰⁾، وأعمهم كلهم على ضعفته.

وأما الفرات، فمبدؤه من بلاد أرمينية في الجزء السادس من الإقليم الخامس. ويمر جنوباً في أرض الروم وملطية إلى منبج، ثم يمر بصفين، ثم بالركة، ثم بالكوفة، إلى أن ينتهي إلى البطحاء التي بين البصرة وواسط. ومن هنالك يصب في البحر الحبشي، وتنحلب إليه في طريقه أنهار كثيرة، ويتخرج منه أنهار أخرى تصب في دجلة.

(9) مغرب [ب].

وأما دجلة، فمبدؤها أعين ببلاد خلاط من أرمينية أيضاً. ويمر على سمت الجنوب بالموصل وأذربيجان وبغداد إلى واسط. فيتفرق في خدجان تنصب كلها في بحيرة البصرة، وتفضي إلى البحر الحبشي. وهو في الشرق عن نهر الفرات. وتتجلب إليه أنهار كثيرة عظيمة من كل جانب⁽¹⁰⁾.

وأما نهر جيحون، فمبدؤه من بلخ في الجزء الثاني من الإقليم الثالث من عيون هناك كثيرة. وتتجلب إليه أنهار عظام، ويذهب من الجنوب إلى الشمال فيمر ببلاد خراسان، ويخرج منها إلى بلاد خوارزم في الجزء الثامن من الإقليم الخامس، فيصب في بحيرة الجرجانية التي بأسفل مدينتها، وهي مسيرة شهر في مثله. وإليها ينصب نهر فرغانة والشاش الآتي من بلاد الترك. وعلى غربي نهر جيحون بلاد خراسان وخوارزم، وعلى شرقيه بلاد نخازي والترمذ وسمرقند. ومن هنالك إلى ما وراءه بلاد الترك وفرغانة والخزلفية وأمم الأعاجم⁽¹¹⁾ التي لا حاجة لنا بذكرهم.

وقد ذكر ذلك كله بطلميوس في كتابه، والشريف في "كتاب رجاء". وصوروا في الجغرافيا جميع ما في المعمور من الجبال والبحار والأودية، واستوفوا من ذلك ما لا حاجة لنا به لطوله، ولأن عنايتنا إنما هي بالمعرب الذي هو وطن البربر، وبالأوطان التي للعرب من المشرق. والله واهب المعونة.

(10) تزيد [ب] ها : وفيما بين الفرات ودجلة من أوله هي جزيرة الموصل، قبالة الشام من حدوتي الفرات، وقبالة أذربيجان من حدوتي دجلة.

(11) ها تنتهي الجملة في [ب].

المقدمة الثالثة

في المعتدل والمنحرف من هذه الأقاليم وتأثير⁽¹⁾ الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم

قد بينا أن المعمور من هذا المكتشف من الأرض إنما هو وسطه لإمراط حر في الجنوب منه والبرد في الشمال. ولما كان الجانبان من اجنوب وشمال متصادبين في البرد والحر، وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما إلى الوسط، فيكون معتدلاً.

ولإقليم الرابع أعدل العمران، والذي حفافيه من الثالث والخامس أقرب إلى الاعتدال، والذي يليهما السادس والثاني بعيدان من الاعتدال، والأول والسابع أبعد بكثير. فلهذا كانت العلوم والصنائع والمساكن والملابس والأقوات والفواكه، بل والحيوانات وجميع ما يتكوّن في هذه الأقاليم لثلاثة المتوسطة، مخصوصة بالاعتدال، وسكانها من البشر أعدل أجساماً وألواناً وأخلاقاً وأحوالاً. فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم وصنائعهم، يتخذون البيوت المنجدة بالحجارة المنمقة بالصناعة، ويتنعمون في استجادة الآلات والمواعين، يذهبون في ذلك إلى لغاية. وتوجد لديهم المعدن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص

(1) في المعتدل من الأقاليم والمنحرف، وتأثير [ب].

والمقصود به، ويتصرفون في معاملاتهم بالتدين العزيميز، ويسعدون عن الاحرف في عمة أحوالهم وهؤلاء أهل المغرب والشام وحجار واليمن والعراقين والهند والسند وصير²، وكذلك الأندلس ومن قرب منها من الفرنجة وحلالة والروم واليوبيين والأفرجة ومن كان مع هؤلاء³ وقريباً منهم في هذه الأقاليم المعتدلة. ولهذا كبر العراق والشام أعداء هذه كلها، لأنها وسط من جميع الجهات⁴.

وأم الأقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الأول والثاني والسادس والسابع، فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم فبناؤهم بالطير والقصص وأقواتهم من الدرة والعشب، وملابسهم من أوق الشجر يحصمونها عنهم، وأخلاقهم، وكثرتهم عرايا من اللباس وفواكه بلادهم وأدمهم عرية التكوين، مائلة إلى الاحراف. ومعاملاتهم بغير الحارين الشرعيين، من حاس أو حديد أو حلود، يقدرونها للمعاملات وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم، حتى ينقر عن كثير من السوداء، أهل الإقليم الأول، أنهم يأكل بعضهم بعضاً. وكذا لصقلية. والسبب في ذلك أنهم لمعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمزجتهم وأخلاقهم من عرض الحيوانات العجم، ويعذبون عن الإنسانية بمقدار ذلك وكذا أحوالهم في الديانة أيضاً. فلا يعرفون نوة ولا يدينون شريعة، إلا من قرب منهم من حواش الاعتدال، وهو في الأقل النادر، مثل أحشة المحاورين ليمين الدائنين بالنصرانية فيما قبل الإسلام وبالإسلام لهذا العهد، ومثل أهل مالي المحاورين⁵ لأرض المغرب، الدائنين بالإسلام لهذا العهد، يقال إنهم دوا به في المائة السابعة، ومثل من دنا بالنصرانية من أم لصقلية والترك، ومن سوى هؤلاء من أهل

2 والشام والعراق والسند والصير [ب]

3 وحلالة ومن كان مع هؤلاء [ب]

4 بريه [ب] وأما حجار واليمن، وإن كانت مائلة عن الوسط، إلا أن هؤلاء الحجار بها عدد من هو لها منحت من الوسط

5 مالي وكوكو المحاورين [ب]

تلك الأقاليم المنحرفة جنوباً وشمالاً فالدين مجهول عندهم، والعلم مفقود بينهم، وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الأديسي، قريبة من أحوال لهائهم. ويخلق ما لا تعلمون.

ولا يعترض على هذا القول بوجود ليمس وحصرموت والأحفاف وبلاد الحجاز واليمامة وما إليها من جزيرة العرب في الإقليم لأول ولثاني، فإن جزيرة العرب كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث، كما ذكرناه، فكان لرطوبتها أثر في رطوبة هوائها، فنقص ذلك من ليس والانحراف الذي يقتضيه الحر، وصار فيها بعض الاعتدال بسبب رطوبة البحر.

وقد توهم بعض الناس ممن لا علم لديه بطبائع الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح، حثصوا ببلد السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في نوره وفيما جعل الله من الرق في عقبه. ويتقنون في ذلك حكاية من حرافات القصص وهذه علة عن طبيعة الحر والبرد وأثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من الحيوانات.

وذلك أن هذا اللون شمل أهل الإقليم الأول والثاني من مراج هوائهم لحرارة المتضاعفة بجنوب فإن الشمس تسامت رؤوسهم مرتين في كل سنة، قريبة إحداهما من الأخرى، فتطول المسامتة عامة الفصول، ويكثر الضوء لأجلها وينح القيط الشديد عليهم، فتسود حيوهم لإفراط الحر.

ونظير هذين الإقليمين فيما يقابلهما من الشمال، الإقليم السابع والسادس، شمل سكانهما أيضاً لون اليبس من مزج هوائهم للبرد المفرط بالشمال، إذ الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرأى العين ولا ترتفع إلى المسامتة ولا ما قرب منها، فيضعف الحر فيها ويشد البرد عامة الفصول، فتبيض ألوان أهدنها وتنتهي إلى لزعورة. ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط من زرقة لعبون، وبرش الحنود، وصهوبة لشعور.

وتوسطت بينهما الأقاليم الثلاثة، الخامس والرابع والثالث. فكان لها في الاعتدال الذي هو مزاج المتوسط حظ وافر. والرابع أبعدا في الاعتدال غاية

لنهيته في التوسط، كما قدمناه. فكان لأهله من الاعتدال في حلقهم وحلقهم ما اقتضاه مزاج أهويتهم. وتبعه عن حاسيه، لثالث والخامس، وإن سم يلغا نهاية التوسط لميل هذا قليلاً إلى الجنوب الحار، وهذا قليلاً إلى الشمال البارد. إلا أنهما لم ينتهيا إلى الانحراف.

وكانت الأقاليم الأربعة منحرفة وأهلها كذلك في حلقهم وحلقهم. فالأول والثاني للحر والسود، والسادس والسابع للبرد والبياض وسمي سكان الجنوب من الأقليمين الأول والثاني باسم 'الحشة'، و 'الزنج'، و 'السودان'، أسماء مترادفة على الأمة المتغيرة بالسود. وإن كان إسم الحشة مختص منهم عن تجاه مكة واليمن، والزنج عن تجاه بحر الهند. وليست هذه الأسماء لهم من أجل انتسابهم إلى آدمي أسود، لا حام ولا غيره. وقد أخذ من السودان، أهل الجنوب، من يسكن الرابع، المعتدل أو السابع، لمنحرف إلى الباص، فتسبب ألوان أعقابهم على التدريج مع الأيام، وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال أو الرابع بالجنوب، فتسود ألوان أعقابهم. وفي ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء. قل ابن سينا في أرجوته في الطب

بالزنج حر غير الاجساد، حتى كسى حلودها سودا
والصقلب اكتسبت البياضا حتى غدت حلودها بضاض

وأما أهل الشمال، فلم يسموا باعتدال ألوانهم، لأن البياض كان لوناً لأهل تلك اللغة الواضحة للأسماء، فلم تكن فيه غرابة تحمل على اعتباره في التسمية لموافقته واعتياده. ووجدنا سكانه من الترك والصقالبة والطرغر والخرز واللان والكثير من الفرجة وياجوج وماجوج أسماء متفرقة وأحياناً متعددة، مسمى بأسماء متنوعة

وأما أهل لأقاليم الثلاثة المتوسطة، أهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الأحوال الطبيعية للاعتماد لديهم من انعاش والمساكن

والصنائع والعلوم والرئاست والمل، فكانت فيهم لسوت والمل والدون
والشرائع والعلوم والبدان والأمصا والغراسه" والصنائع اعائقة، وسر
لأحوال المعتدلة. وأهل هذه الأقاليم الذين وقفا على أحبارهم مثل لعرب
والروم وفارس وبني إسرائيل واليونانيين وأهل الهند والسند والصين.

ومارئي السببون اختلاف هذه الأمم سميتها وشعرها حسبوا ذلك لأهل
الأنساب فجمعوا أهل جنوب كلهم لسود من ولد حام، وارتبوا في
ألوانهم، فتكلفوا نقل تلك الحكية لوهية وحعلوا أهل الشمال كلهم أو
أكثرهم من ولد يافث، وأكثر الأمم المعتدلة، وهم أهل الوسط المنتحون
للعلوم والصنائع والمل والشرائع والسياسة والمل من ولد سام وهذا
الزعم، وإن صادف الحق في انتساب هؤلاء، فليس ذلك بقياس مطرد، إنما هو
بخبر عن الواقع، لا أن تسمية أهل الجنوب بالسود والخشون من أجل
انتسابهم إلى حام الأسود وما أذاهم إلى هذا الغلط لا اعتقادهم أن التمييز
بين الأمم إنما يقع بالأنساب فقط، وليس كذلك. فإن التمييز للحيل وللأمة
يكون بالنسب في بعضهم كما للعرب وبني إسرائيل والفارس، ويكون بالحجة
والسمة كما للفرنج والخشون والصقالية والسودان، ويكون بالعود والشعائر
مع نسب كما للعرب، ويكون بغير ذلك من أحوال الأمم وحو صهم
وميزتهم. فتعميم لقول في أهل جهة معينة، من جنوب أو شمال، بأنهم من
ولد فلان المعروف، لما شملهم من لون أو سمة أو سمة وحدت لدنث الأب،
إنما هو من الأعاليط التي وقع فيها العفلة عن طائعات الأكر والجهت، وأن
هذه كلها تندل في لأعقاب، ولا يجب استمررها، سة له في عبادته، ولن
نجد لسة لله تديلاً

٦ والأمصا والمل والغراسة [ب]

٧، وأهل السند والصين [ب]

المقدمة الرابعة في أثر الهواء في أخلاق البشر

قد رأينا من خلق السودان على العموم الحفة والطيش وكثرة الطرب،
مجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع، موصوفين الحمق في كل قطر.
والنسب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح
والسرور هي أشد الروح اخواني وتمشي، وطبيعة الحزن بالعكس، وهي
انقصاصه وتكاثفه وتقرر أن الحرارة مُقْبِيَةٌ للهواء ولخار، مُخْلِجَةٌ له، ردة
في كمته ولهذا يحد المنشي من لفرح والسرور ما لا يُعْتَرَعُه، وذلك بما
يدخل حار الروح في لقلب من الحرارة الغريزية التي تعنها سورة الخمر في
الروح من مزاحه، فيتمشى لروح، وتحيي طبيعة الفرح. وكذلك يجد المتعمين
الحمامات إذ تنفس في هوائه وتصت حرارة الهواء بأرواحهم فتسخت
لذلك، حدث لهم فرح، وسعت الكثير منهم بالغناء الناشئ عن لسرور
ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار و ستولى الحر على أُمزجتهم
وفي أصل تكوينهم، كان في أرواحهم من الحرارة على ستة أُنْدَاهُمْ
وإقليمهم فتكون أرواحهم بالقى إلى أرواح أهل الإقليم الرابع شَدَّ حَرًا،
فتكون أكثر تَفَشِيًا، فتكون أسرع فرحًا وسرورًا وأكثر سساطًا. ويحيي
الطيش على أثر هذه

وكذلك يحق لهم قبيلاً أهل البلاد سُحرية، لما كان هواؤهم متضعف
 خراة عما ينعكس عليه من أضواء بسط لحر وُشعته، كانت حصتهم من
 تواضع الحرارة في الفرح وخفة مه حودة أكثر من بلاد تتلوى و خبال الباردة.
 وقد نجد يسيراً من ذلك في أهل البلاد الحريدية من الأقباط الثالث
 يُؤفر الحرارة فيها وهي هوئها لأنها عريقة في الجنوب عن الأرياف والتلوى
 واعتبر ذلك بأهل مصر، وبها في مثل عرص البلاد الحريدية وهرباً منها، كيف
 لعب الفرح عليهم وخفة والعمدة عن العواصف، حتى أنهم لا يدجرون
 قنات ستهم ولا شهرهم، وعامة مأكنهم من أسواقهم. ولما كانت فس، من
 بلاد المعرب، بلعكس منها في التوغل في التلوى النادرة، كيف ترى ههنا
 مصرقن إطراق الحزن، وكيف أفرطوا في بطر اعواق. حتى أن الرجل منهم
 يبدح قنات سين من حبوب الحطة، ويناكر الأسواق لشراء قونه ليومه
 مخافه أن يبرراً شبتاً من مذكره وتتبع ذلك في الأقاليم والبلدان تحد في
 لأخلاق أثرًا من كفيات الهواء، والله الخلاق العليم

وقد تعرّض المسعودي لسحت عن السب في خفة لسودان وطيشهم
 وكثرة الطرب بهم وحاول تعيله فلم يأت فيه شيء ويقل عن حالسوس
 ويعقوب بن إسحق الكندي أن ذلك لصعب دمعته وم شأ عنه من ضعف
 عقوبهم وهذا كلام لا محصل له ولا برهان فيه
 والله يهدي من يشاء.

المقدمة الخامسة

في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ
عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم

اعلم أن هذه الأقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد له الخصب، ولا كل سكانها
في رعد من العيش. بل فيها ما يوجد لأهله حصص العيش من الحبوب والأدم
والخطة والفواكه لزكء الملبات واعتدال الطينة ووفور العمران، وفيها الأرض
حرة نتي لا تنبت زرعاً ولا عشباً بالجملة. فسكانها في شطف من العيش،
مثل أهل الحجاز و جنوب اليمن، ومثل المثلثين من صنهاجة الساكنين
بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان. فإن هؤلاء
يفقدون الحبوب والأدم جملة، وإنما أغديتهم وأقواتهم الألبان واللحوم.
ومثل العرب الحائلين في القفار، فإنهم وإن كانوا يأخذون الحبوب والأدم من
التلول، إلا أن ذلك في الأحياء وتحت رقبة من حاميتها وعلى الإقلال لفلة
وجدهم. فلا يتوصلون منه إلا إلى سد الحمة ودوسها، فصلاً عن الرعد
والخصب. وتجدهم يقتصرون في غلب أحوالهم على الألبان، وتغوصهم
من الخطة أحسن معاض. ونجد مع ذلك هؤلاء العاقدين للحبوب والأدم من
أهل القفار أحسن حالاً في جسامهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في
العيش فألوانهم أصفى، وأبدانهم أنقى، وأشكالهم أتم وأحسن، وأخلاقهم
أبعد من الانحراف وأذهانهم أثق في المعارف والإدراكات هذا أمر تشهد

له التجربة في كل حين منهم فكثير ما بين لعرب ولبربر فيم وصفاه. وبين
للمثمين وأهل التناول. يعرف ذلك من خبره
والسبب في ذلك، والله أعلم، أن كثرة لأعدية وروبوها تولد في حصب
فضلات رديئة ينشأ عنها بُعد أقطاره في غير سنة، وكثرة الأحلاط الفاسدة
النعفنة. ويتبع ذلك انكساف الألوان وقبح الأشكال من كثرة اللحم، كما
قلناه. وتعطى الرطوبات على الأدهان وأفكار. كما يصعد إلى الدماغ من
أحرتها الرديئة، فتجبيء الملادة والنعفنة ولاحراف عن الاعتدال باحمة
واعتر ذلك في حيوب لقفز وموطل الخدب من لعزاب وامهى والنعف
ولزرافة والحمر الوحشية والقمر مع أمثالها من حيوان التنول ولأرياف
والمراعي الحصة، كيف تجد بينها نوع بعيد في صفاء أديمها وحسن روفها
وأشكالها وتناسب أعصابها وحدة مداركها. فالعزبان أحمر المعرو، ولبربره أحمر
البعير، واحمر والقمر هو الحمر ولقمر، واللون بينهما ما رأيت وما ذلك إلا
لأجل أن الحصب في التنول فعن في أمدان هذه من الفضلات لردية
والأحلاط الفاسدة ما ظهر عليها أثره. والجوع حيوان القمر حسن في حلقها
وأشكالها ما شاء.

واعتر ذلك في الأدميين أيضا. فإنا نجد أهل الأقاليم لمحصة العيش
الكثيرة الزرع والصرع والأدم والمواكه يتصف أهلها علنا بسلافة في
أدهانهم والحشوة في أحسامهم وهذا شأن البربر المغمسين في الأدم
والحصة مع المتقشرين في عيشهم المتقشرين على الشعر أو الدر، مثل
المصامدة منهم، وغمارة، وأهل السوس، فتجد هؤلاء أحسن حالا في عقولهم
وحسومهم. وكذا أهل بلاد المغرب على حملة، معمسين في لأدم واسر،
مع الأندلس المفقود بأرضهم السمن حملة وعال عيشهم الدر، فتجد لأهل
الأندلس من ذكاء لعقل وحقة الأحسام وقبول التعقيم ما لا يوجد لهم.
وكذا أهل لضواحي من المغرب لحمية مع أهل خصر ولأمصار. فإن أهل
الأمصار، وإن كانوا أكثرين مشهم من الأدم ومخصبين في العيش، إلا أن

سعمالهم بها بعد العلاج، صبح ولتطيف عما يحطون معها، فيذهب
 ذلك عصبها ويرق فوامها وعمه ماكدتهم حمان انصا ولدحاج، ولا
 يحطون سمن من بين لأدم، لنفدهته، فقلل الرطوبات لذلك في أعديته
 ويحف ما تؤده إلى أحسنهم من انفصالات، الرديئة فلذلك بعد حسوم أهل
 الأمصار أحسن من حسوم أهل البادية وتطف

و عجم أن أثر هذا حصص في البدن وأحواله يظهر حتى في حال الدين
 و لعدة فحد منتقشين من أهل البادية و حصرة ثم بأحد نفسه رجوع
 ولتحافي عن ملاد أحسن ديناً وقبلاً على العبادات من أهل الترف والخصب،
 بل بعد أهل ندين قبيلين في البدن والأمصار، لما يعمهم من القساوة والعفة
 المصنة لاكثر من السمن والأدم ولب الترف ويحتصر وجود السمن
 والرهة لذلك منتقشين في عدائهم من أهل البادية وكذلك بعد حال أهل
 مدينة الواحدة في ذلك تختلف باختلاف حالها في الترف و حصص

وكذلك بعد هؤلاء المخصين لعيش المعمرين في طبيئته، لا من أهل
 البادية ولا من أهل حاصره والأمصار، إذ برلت بهم السيوت وأحدثهم
 مخاعات يسرع بينهم الهلاك أكثر من غيرهم، مثل بريرة العرب وأهل مدينة
 وس ومصر، فيما سعننا، لا مثل العرب أهل القفر والصحراء، ولا مثل أهل
 بلاد النحل الذين علب عيشهم التمر، ولا مثل إفريقية الهد لعهد الدين
 علب عيشهم الشعير، وأهل الأندلس الذين علب عيشهم السرة من
 هؤلاء، وإن أحدثهم السيوت ومخاعات، فلا تلب منهم ما تلب من أولئك،
 ولا يكثر فيهم الهلاك رجوع، بل ولا يندر

و نسب في ذلك، وله عجم، أن المعمرين في الخصب المتعودين للأدم
 والسمن خصوصاً تكتسب معاهم من ذلك رصوة فوق رطوبتها الأصلية

بعدة حسنة في [ب] حسوم أهل البادية محشور في العيش وألطف، بخلاف أهل البادية
 متعودين للرجوع، فإنهم لا فصلات في أحسنهم، عصبه ولا لطيفة
 ولا مثل أهل البادية [ب]

المزحجة حتى تحور حده فإذا حولف بها العدة بمقد الأدم وقلة الأقوت و استعمال الحش منها غير لمألوف، أسرع إلى المعى اليئس والانكماش، وهو عضو ضعيف في الغيبة، فسرعه إليه حرص، وبهالك صاحبه دفعة لأنه من المقتل، فإنها تكون في مناجعات بما فتهم الشبع المعتاد السنو، لا الحوع الحادث، للاحق وأما تتعود نعيمته وترك الأدم و لسمن، فلا تزال رضوتهم الأصبية واقعة عند حدها من غير زيادة، وهي قلة جميع الأعدية الطصية فلا يقع في معاهم نبت الأعدية بس ولا احراف، فيسلمون في العلب من الهلاك الذي يعرض لغيرهم بالحصب وكثرة الأدم في المأكول.

وأصل هذا كنه أن تعلم أن الأعدية وإيلافها أو تركها إما هو بالعدة فمن عود نفسه عداء ولاءه تدول كنه مألوف و صدر لخروج عنه والتبدل به داء، ما لم يخرج عن عرض العدة بالحملة كالسموم و ليشوع وما أفرط في الاحراف فأما ما وجد فيه التغدي والملاءمة، فيصير عداء مألوف بالعادة فإذا أحد الإنسان نفسه باستعمال الميس والفل عوص من الحطة حتى صار له ديداً فقد حصل له ذلك عداء، واستغنى به عن احتطة و حبوب من غير شك

وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع والاستعناء عن الطعام، كما ينقل عن أهل الرياضات فإنما سمع عنهم في ذلك أجباراً عربية يكاد ينكرها من لا يعرفها والنسب في ذلك لعدة، فإن النفس إذا ألقت شيئاً صدر من حبقها وطبيعتها، لأنها كثيرة التلؤف فإذا حصل لها اعتياد الحوع بالتدريج ورياضة، فقد حصل ذلك عادة وطبيعة لها.

وما يتوهمه الأطباء من أن الحوع مهلك، فليس عى ما يتوهمونه، إلا إذا حُمت النفس عليه دفعة وقُطع عنها الغداء بالكلية. فإنه حينئذ يتحسم المعى ويناله المرض الذي يُحشى معه لهلاك وأما إذا كان ذلك تدريجاً ورياضة

بإقلال العداء شيئاً فشيئاً كما يفعله المتصوفة، فهو بمنزلة الهلاك وهذا موحود حتى في الرجوع عن هذه الرياضة. فإنه إذا رجع إلى العداء الأول دفعة، خيف عليه الهلاك. وإنما يرجع به كما بدأ في الرياضة بالتدريج ولقد شاهدت من يصبر على الجوع أربعين يوماً وصلاً.

وحضر أسياننا بمجلس السلطان أبي الحسن، وقد رُفِع إليه امرأتان من أهل الجزيرة الخضراء ورُئِدَ حبستا أنفسهما عن الأكل جملة منذ سنين. ووقع اختبارهما، وشاع أمرهما، واتصل على ذلك حالهما إلى أن هلكتا ورأيت كثيراً من أصحابنا من يقتصر على حليب شاة من المعز، يلتقم ثديها في بعض النهار ويكون ذلك عذاؤه، واستدام على ذلك خمس عشرة سنة. وغيرهم كثير، ولا تستنكرون ذلك.

واعلم أن الجوع أصبح لبيد من كثرة الأعذية بكل وجه لمن قدر عليه، أو على الإقلال منها، وأن له أثراً في الأجسام و لعقول في صفاتها وصلاحها، كما قلنا واعتبر ذلك باثار الأعذية التي تحصل عنها في الجسم، فقد رأينا المتغدين بلحوم الحيوانات الفاخرة العظيمة الخثام، تشأ أجيالهم كذلك. وهذا مشاهد في أهل البادية مع أهل الحضرة و المتعذون بأئام الإبل ولحومها أيضاً كذلك، مع ما يؤثر في أخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الأثقال الموجود ذلك للإبل وتنشأ معاهم أيضاً على نسبة معي الإبل في الصحة والعلظ. فلا يطرقها لو هن ولا الضعف، ولا ينالها من مصير الأعذية ما ينال غيرهم. فيشربون لبتوعات لاستطلاق بطونهم غير مححوة، كالخنظل قبل نضجه والدرياس والعريون، ولا ينال معاهم منها ضرر وهي لو تناولها أهل الحصر الرقيقة معاهم بما شأت عليه من لطيف الأعذية لكان الهلاك أسرع إليهم من طرفة العين لما فيها من السمية.

ومن تأثير الأعذية في الأبدان ما ذكره أهل الفلاحة وشاهده أهل التجارة أن الدجاج إذا عذيت بالحبوب المطبوخة في بحر الإبل واتخذ بيضها ثم حصنت عليه، حاء الدجاج منها أعظم ما يكون وقد يستغنون عن تغذيتها

وطبج الحبوب بطرح ذلك المعر مع البصر المحصر ، فتحيء دحاها في عاية
العظم ، وأمثال ذلك .

فيدار أيد هذه الآثار من الأغذية في الأبدان ، فلا شك أن للجوع يُصدّ ثر
في الأبدان ، لأن الصدين على سسة وحدة في التأثير وعدمه فيكون تأثير
الجوع في نقاء الأبدان من الزيادات العاسدة والرطوبات المحتلطة للمسدة
لحسب والعقل ، كما كان لغذاء مؤثراً في وجود هذه وغيرها .
والله محيط بعدمه .

المقدمة السادسة

في أصناف المدركين بالفطرة للغيب من البشر مثل
العرافين والكهان، ويتبين منه حقيقة الرؤيا والوحي
(نص مخطوطة [1])

إن نجد في السوح الإنساني أشخاص يحضرون لكائنات قل وقوعها بصبة
فهم سمير بها صنعهم عن سائر لئس، ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة، ولا
يستندون عليه ثر من لحوم ولا غيرها، بما نجد مدركاتهم في ذلك تقتضي
حسنتهم وفطرتهم لئني فطروا عبيها، وذلك مثل نكهن، والعرافين الناضرين
في الأجسام لشعافة كالمري وضساس الماء، وناصريين في قلوب الحيوان
وكدهه وعصمه، وأهل لصرق الحصى والخموب من الخنطة والنوى. وهذه
كها موجودة في علم الإنسان، لا يسع أخذًا جحده ولا إنكارها.

والنفس الإنسانية لها أن تنال من الغيب، وذلك أنها ذات روحانية موجودة
بالقوة من بين سائر الروحانيات، وإنما تخرج من القوة إلى الفعل بالبدن
وحواله، وهذا أمر مترك لكل أحد. وكل ما بالقوة فله مادة وصورة، وصورة
هذه النفس التي بها يتم وجوده هي عين الإدراك والتعقل. فهي توجد أولاً
بالقوة مستعدة للإدراك وقبول المصور الكمية والجزئية. ثم يتم نشؤها

[1] نص لاور، المقدمة السادسة - نص []

نص لاور، المقدمة السادسة - نص []

وجوده بالفعل بمصاحبة البدن وما يعوّدها بورود مدركاته الجزئية المحسوسة عليها وما تنتزع هي من تلك الإدراكات من المعاني الكلية، فتتعقّل الصورة مرة بعد أخرى حتى يحصل لها الإدراك والتعقّل صورة بالفعل، فتتم ذاتها. ولهذا نجد الصبي في أول نشوه لا يقتدر على الإدراك الذي لها من ذاتها لا في نوم ولا بكشف ولا بغيرهما. وذلك لأن صورتها التي هي غير ذاتها وهي الإدراك والتعقّل لم تتم بعد، بل لم يتم لها انتزاع الكليات.

ثم إذا تمت ذاتها بالفعل، حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك : إدراك بآلات الجسم تؤديه إليها الحواس الظاهرة والباطنة، وإدراك بذاتها من غير واسطة، وهي معجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وشواغلها. لأن الحواس أبداً جاذبة لها إلى الظاهر، بما فطرت عليه أولاً من الإدراك لحسمني وربما تنغمس عن الظاهر إلى الباطن، فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصية التي هي للإنسان على الإطلاق، مثل النوم، أو بالفطرة التي فطر عليها بعض البشر مثل الكهانة، أو بالصناعة مثل أهل الكشف بالرياضة من المتصوفة وغيرهم. فتلتفت حينئذ إلى ذاتها، وهي تعقّل صرف وإدراك محض من جسس الذوات الروحية التي هي عقول بالفعل، وفيها صور الموجودات وحقائقها، فتتجلى فيها شيء من تلك الصور، وتقنيس منها علماً. وربما دفعت تلك الصور المدركة إلى الخيال، فتصرفه في القوالب المعتادة، ثم تراجع الحس بما أدركت إما مجرداً أو في قوالبه، فتخبر به.

هذا هو السبب العام في إدراك النفس للغمغيات من نوم ووحى أو كشف أو غيرها. وعلى هذا الإدراك الروحي، لأنه أمر من عند الله، إما فطرياً عليه أو يَسَّرَهُمْ لَهُ.

ومن أصبح الأدلة على وجود هذا الإدراك للنفس حال الرويا. فإنها من خواص البشر موجودة فيهم على العموم، ولا يخلو عنها أحد منهم، بل كل واحد من الأناسي فقد رأى في نومه ما صدق له في يقظته مراراً غير وحدة، وحصل له على القطع أن النفس مدركة للغيب ولا بد. وإذا جاز ذلك في عالم

النوم، فلا يتمتع في غيره من الأحوال، لأن الذات المدركة واحدة، وخواصها موجودة في كل حال.

وأما السبب المختص بالنوم في ارتفاع حجاب الحس، فهو أن لروح الحيواني الذي مركزه في القلب، وهو البخار اللطيف المنبعث مع الدم في الشريانات والعروق الذي يعطي الحس والحركة وتتعلق به النفس الناطقة من بين المواد الجسمية، فإذا لحق الجسم حال التعب والملال بكثرة السعي والتردد وغشيه الليل والبرد، طلب الجسم الراحة والسكون والدفء، فيطلبها الروح الحيواني كذلك، فينخس عن الحس الظاهر الذي فيه تعب وسعيه. فإذا انخس عن الحس الظاهر رجع إلى القوى الباطنة، وخفت الشواغل من الحس الظاهر، ولم يبق له إلا القوى الباطنة من البدن، فيكون حال شواغله أخف. فربما التفت لفته إلى عالمه الروحاني مع منازعة القوى الباطنة الدمعية، لكن لخفتها تجد السبيل إلى تلك اللمحة، فيدرك من صور الأشياء التي في عالم العيب ويحصلها، ويأخذها الخيال كما قلناه لأول وهلة. فيصرفها في القوالب المعهودة لديه، وتصاحبه إلى اليقظة فيخبر بها. هذا حال النوم وسببه، وهو خاصية للنفس الإنسانية في ارتفاع حجاب الحس.

وأما الوحي، وهو ارتفاع ذلك الحجاب لصنف الأنبياء لا لغيرهم من البشر بفطرة فطرهم الله عليها، وهي على حالة أكمل من حالات سائر المدركين للغيب بمراتب لا تنهاى، إذ هو يفارق الظاهر والباطن جميعاً ويتأيد بروح من الله في كمال فطرته أولاً وفي حال إدراكه ثانياً، فلا يُعبر عن منتهى مداركه.

وعلاقتهم أن توجد لهم في حال الوحي غيبة عن الحاضر كأنها غشي أو إغماء، وليست منهما في شيء، إنما هي استغراق في لقاء الملك الروحاني بالإدراك المناسب لهم الذي لا تعرف كنهه، أو بمشاهدته في صورة شخصية يخاطبه بما جاء به من عند الله، ثم تتجلى عنه تلك الحال وقد وعى ما ألقى عليه.

قل صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن الوحي "أحياناً يأتيني مثل صمصمة الجرس، وهو أشد علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قل. وأحياناً يتمش لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول." وقد يدركه أثناء ذلك من التعب و لغط ما لا يعبر عنه. ففي الحديث: "كان مما يعالج من التنزيل شدة". وقالت عائشة: "كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ويرجبيته ليتفصد عرقاً". وقال تعالى: إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً. ولهذه الحالة في تنزل الوحي كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ويقولون له ربي وتابع من الجن.

ومن علامتهم أيضاً أن يوجد لهم قبل الوحي حال لركاء ومحاربة الدمومات والرجس أجمع، كأنه مقطور على الخذر منها، وكأنها مدافعة لحائنه تلك، حتى من المستقذرات الحسية. فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يقرب البصر ولا الثوم. وقيل له في ذلك فقال: "إني أناجي من لا تحي" و بصر لما أخبر صلى الله عليه وسلم خديجة بحال الوحي أول ما عجبه وأرادت احتباره فقالت له: "اجعلني بينك وبين بدنك"، فلما فعل ذلك ذهب عنه فقالت له: "إنه ملك وليس بشيطان". ومعناه أنه لا يقرب النساء. وكذا سألته عن أحب الثياب إليه أن يأتيه فيها، فقال لها: 'البياض والخضرة"، فقلت: 'إنه مدث ، بمعنى أن الخضرة والبياض من ألوان الخير والملائكة، والسود من ألوان الشر والشياطين، وأمثال ذلك.

وأما لكهانة، وإن كانت طبيعية للصنف الموجودة فيهم، فلا يعمل ارتفاع حجاب الحس فيهم لأنه بالطبع كما قلناه. وأما التعلق الذي لتلك نفوس مع أبدنهن فتعلق ضعيف ومركزه مختل باختلال البنية وكونها على غير المجرى الطبيعي في الغالب. فتتقوى فيها قوة دون أخرى بحسب المناسبة في التعلقات. وهي خفية عن أكثر ما توجد في المشوّهين والنقصين لخلق من الدس. ولكون هذه النفوس الكاهنة فطرت ضعيفة وقاصرة عن رتبة الكمالات في نوعها يكون إدراكها في الجزئيات أكثر من الكلبيات لقصورها. فتكون

كثيرة التشبث بالحزنيات، متعاهدة لها، عذلة عن الكليات، لأنها ليست من حسن مدركها لصعقتها في أصل فطرتها. وهي إنما تتعاهد بالإدراك ما له أثر في تخصيص صورتها، وكمال ذاتها، وهي الحزنيات فتكون القوة المتخيلة فيهم هي علة القوة لأنها آلة الحزنيات، فتتعد فيها بقودا تاما حتي تحيط بها في نوم أو يقظة، ويكون عندها حاضرة عتيقة فإذا توحه الكاهن نحو شيء من الحزنيات أحصرتها القوة المتخيلة لقوتها، ولأن الحزنيات صارت له كالمرأة. فهو يطر فيها دئما على كمالها، ولا يقوى على الكمال في إدراك المعقولات، لأن وحيه من وحي اشباطين، وهو كله راجع إلى الوهم والخيال لصعق هذه النفس ونزولها عن رتبة الكمال في حثتها، فكذا إدراكها.

وأما المحايين أيضًا فمركز النفس فيهم مختل عن مكانه من التعق وعلو غير النسبة الطبيعية فيه فمزاحه البدني فسد في الغالب لضعف الروح الحيواني بما هو محرف عن طريق عمده الذي هو انفس الناطقة، فتكون نفسه غير مشتغلة بخواس ولا متعمسة فيها عما شعنها في ذاتها من القصور ومرضه. ويرى زحمها على التعق به روحانية أخرى شيطانية، تشبث به وتضعف هذه عن مدعتها، فيكون عنه التخط. وإذا أضده ذلك لتخط، إما لفساد مزحه من فساد مزاج النفس، أو لمزاحمة من النفوس لشيطنانية في تعلقه، عاب عن حسه حمله، وأدرك لمحة من عالم نفسه واطلع فيه بعض الصور وصرفها الخيال كما قلناه. وربما يظن على لسانه في تلك الحال من غير إرادة للنطق. وإدراك هؤلاء كهم مشوب فيه الحق بالباطل، لصعق هذه النفوس في أصل وصرتها، فلا يقوى على التجرد عن الجسمانيات بالحلمة، ولا تزال متشبهة بها، فيكون الكثير من إدراكاتها جسمانيًا وأكثره باطل.

وأما المتطرون في الأحسام الشفافة من المرايا والظلس وقلوب حيوان وأكادها وعظامها وأهل الضرق بالخصى والنوى، ورفع حجاب الحس في صنفهم أيضًا لضعف إلا أنه يحتاج إلى المعين والمشيّع. فيشعل الحس لظاهر تلك الأنواع ليعصر إدراكها في حس واحد، ويستعين بذلك على الغيبة

عن الحس بما هو عاكف على النظر في لمحسوس لسيط . وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل حُس بالبحور فقط والعزائم، ثم يحجر عما أدرك . ويزعمون أنهم يروون الصور مشحونة في الهواء تحكي لهم حول ما يتوجهون إلى إدراكه بالمثل وإشارة وغية هؤلاء عن الحس حفيفة ولعالم أبو الغرث .

وقد يدحق بهذا الباب الرحر في الطير وغيره . وهو قوة في النفوس والحدس بعد الفكر فيما رحر فيه من مرثي أو مسموع وتكون قوته المتخيلة كما قدمناه قوية، فيبعثها في البحث مستعيناً بما رآه أو سمعه، فيؤدّي ذلك إلى إدراك ما، كما تمدعه القوة المتخيلة في النوم عند ركود الحواس تتوسّط بين المحسوس المرثي في يفظته وتجمعه مع ما عقلته، فيكون عنها لرؤيا .

هذا تحصيل هذه الأمور وقد تكلم عليها لمسعودي في مروج الذهب فما صادف تحقيقاً ولا أصابه ويطهر من كلام الرحل أنه كان بعيداً عن الرسوخ في المعرفة، فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله

وهذه الإدراكات التي ذكرناها موحودة كلها في نوع الشر فقد كان لعرب يفزعون إلى الكهان في تعرف الحوادث ويتنّفرون إليهم في الخصوصات ليعرفونهم بالحق فيها من مدركات غيبهم وفي كتب أهل الأدب كثير من ذلك . واشتهر منهم في الحاهلية شوق من أنمار بن نزر، وسطيح، من مازن بن عسّان، وكان يُدرّج كما يدرج الثوب، ولا عظم فيه إلا الجمجمة . ومن مشهور الحكايات عنهما تأويلهما رؤيا ربيعة بن نصر، وما أخبراه من ملك الحبشة ليمن وملك مصر من بعدهم، و ظهور السوء المحمدية في قريش . وكذلك رؤيا المؤيدان التي أولّتها سطيح لما بعث إليه كسرى عبد المسيح وأخبره بشأن السوء وخراب ملك فارس . وهذه كلها مشهورة . وكذلك العرافون كان في لعرب منهم كثير، وذكرهم في أشعارهم . قال :

فقلت لعرف اليمامة داوئي فيك إن دويتني لطيب

وقل آخر

جعلت لعراف اليمامة حكمه وعرف نحد إن هما شمين
وقلا شفاك الله والله ما لت بما حملت منك الصنوع يدا

وعراف اليمامة رباح بن عثلة، وعراف نحد، الأبلق الأسدي والعراف هو الذي يأخذ الأمور بالظن والتحمين والطرق، وليس من الحن وكأنه يدعي معرفة الغيب ولما جاء الإسلام أتى على ذلك كله ومحو ثاره، إد الوحي هو القوة العظيمة التي يخققها الله في النوع الإنساني لإدراك ما وراء الحس وهو العنصر الكبير، لذلك فإذا ظهر نوره خمدت سائر الأمور الضعيفة، شأن السرج والذبال مع نور الشمس، إلا ما كاد يبه ويبس نوحى مناسبة في معقوليته وتحققه كالنوم، فإنه لا يذهب إدراكه العيني، بل تزيده النبوة قوة إلى قوته بما بينهما من المناسبة التي هي حصة عن ولا سبيل إلى تعرفها إلا من قبل الوحي. قل صلى الله عليه وسلم: 'الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة'، وفي رواية 'ثلاثة وأربعين'، وفي رواية سبعين. فدل ذلك على مناسبة بينهما لا يعرف كميتها إلا لله وأما غير السوم من هذه الإدراكات فإنها تسطل وتضمحل عند زمن النبوة ووجود الوحي، وتذهب كألم لم تكن، حتى تعود بعد حين من الدهر، والسر في ذلك والله أعلم، المحافظة على المعجزة وطرق الوحي أن يكون فيها مطعن للملحدين كما وقع في تنزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن 'شعر' والكنانة وأمثلة ذلك، هذه طرق رفع حجاب الحس التي خاصة كالنوم وبالطرفة في صنف دون آخر مثل الكهانة وسائرهما.

وفي النوع الإنساني أيضاً في رفع هذا الحجاب وحه أحر بالصناعة، وهي طريقة أهل لرياضة من المتصوفة وغيرهم، يحاولون بالريضة موتاً صناعياً بيمانة جميع القوى البدنية، ثم محو آثارها التي تلونت بها لنفس، ثم تعديتها

بالذكر لتزداد قوة في شئها ومن معلوم على القطع أنه إذا برل الموت بالبدن ذهب الحس وحججه، وظلعت النفس على ذاتها وعملها، فيحسبون ذلك بالصناعة ليقع لهم منه ما يقع، وتطلع للنفس على معيبت، وهو باب الكرامات في الصالحين منهم، ويسمونه الكشف والمكشفه وليس ذلك بأكبر وإن ذهب إلى إنكاره بعض لفقهاء فليس من الحق، ولو حود شاهد به وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن فيكم محدثين وإن منهم عمر' ولصحة منه كثير في قول بعضهم بهما أحك'، وغيره. إلا أنه بقل في زمن السوة للسر يدي ذكره. هذه أصناف الإدراك ليعيب برفع حجاب الحس إذا لا يمكن بدونه

وقد يزعم بعض الناس أنه يدرك من دور رفع هذا حجاب، ويحاولون ذلك بوجوه قصيرة عن المطلوب فيه كما بينه لك

فمن الأمور التي استنظها عامة من المتأخرين لاستخراج العيب وتعرف الكائنات صدعة الخط، ويسمونه حط الرمس، نسبة إلى المادة التي يصنعونها فيها وذلك أنهم يصيرون من لقط أشكالات أربع مرات تحتلف باختلاف مراتبها في الزوجية والفردية أو استوائها فيها فكانت ستة عشر شكلاً لأنها إن كانت أرواحاً كلها أو أفراداً كلها فشكالات وإن كان الفرد فيها في مرتبة واحدة فقط فأربعة أشكال. وإن كان الفرد في مرتبتين فسنة شكل وإن كان في ثلاثة مراتب فأربعة أشكال جاءت ستة عشر، سموها كلها بأسمائها وتووعوها إلى سعود وحوس، شأن الكواكب، وجعلوا لها ستة عشر سماً طبيعية بزعمهم، وجعلوا لكل شكل بيتاً وحطوطاً ودلالة على صف من موجودات عالم العناصر تحتص به، واستطاعوا من ذلك فتح حدوده من لجمامة ونوع قصته إلا أن أحكام النجمة مستندة إلى أوضاع طبيعية كما زعم الظالمين، وهذه بما مستندها أوضاع حكمية وأهواء اتقاقية، ولا دليل يقوم على شيء منها

وزعموا أن أصل ذلك من النبوءات القديمة في العالم، وربما نسبوه إلى دانيال أو إلى إدريس، شأن الصنائع كلها. ويحتجون بقوله صلى الله عليه وسلم: 'كان نبي يخطه فمن وافق خطه فذاك'. فإذا أرادوا استخراج مغيب بزعمهم عمدوا إلى قرطاس أو إلى رمل أو دقيق فوضعوا النقط سطورا على عدد المراتب لأربعة، ثم كرروا ذلك أربع مرات، ثم يطرحون النقط أزواجا ويصنعون ما بقي من كل سطر زوجا كان أو فردا في مرتبته على الترتيب، فتجيء أربعة أشكال يضعونها في سطور متتالية، ثم يولدون منها أربعة أشكال أخرى من جانب العرض باعتبار كل مرتبة وما قبلها من الشكل الذي يرافقه وما يحتتم منها من زوج أو فرد فتكون ثمانية أشكال موصوعة في سطر. ثم يولدون من كل شكلين شكلا تحتها باعتبار ما يجتمع في كل مرتبة من مرتبتي الشكلين أيضا من زوج وفرد فتكون أربعة أخرى تحتها، ثم يولدون من الأربعة شكلين كذلك تحتها ثم من الشكلين شكلا كذلك تحتها، ثم من هذين الشكلين الخامس عشر مع الأول شكلا آخر يكون آخر الستة عشر. ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعادة والنحوسة والضرر والحلول والامتراج والدلالة على أصناف الموجودات. وسائر ذلك تحكما غريبا.

وكثرت هذه الصناعة في العمران، ووضعت فيها التواليف واشتهر فيها الأعلام من المتقدمين والمتأخرين، وهي كما رأيت تحكم وهوى. والتحقيق الذي ينبغي أن يكون نصب فكرك أن الغيوب لا تدرك بأمر صناعي لبنة، ولا سبيل إلى تعرفها إلا للخواص من البشر المفظورين على الرجوع عن عالم الحس إلى عالم الروح. ولذلك يسمى المنجمون أهل هذا الصنف - الزهرئين - نسبة إلى ما تقتضيه الزهرة بزعمهم في أصل مواليدهم على إدراك العيب. فالخط وغيره إن كان الناظر فيه من أهل هذه الحاصية وقصد بها الأمور التي ينظر فيها من النقط والعظام وغيرها إشغال الحس لترجع النفس إلى عالم الروحانيات لحظة ما، فهو من باب الطرق

بالخصى والسطر في قلوب الحيوان والمرايا الشفافة كما ذكرناه . وإن لم يكن ذلك وإنما قصد معرفة المغيب بهذه الصناعة وأنها تفيد ذلك فهذر من القول والعمل . والله يهدي من يشاء .

والعلامة لهذه الفطرة التي فطر عليها أهل هذا الإدراك الغيبي أنهم عند توجُّههم إلى تعرف الكائنات يعترتهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالتأوب والتمسُّط ومبادئ الغيبة عن الحس . ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف وجودها فيهم . فمن لم توجد له هذه العلامة فليس من إدراك لغيب في شيء . والله علام الغيوب .

ومن القوانين التي اشتهرت أيضًا بين الناس لهذه العصور في استخراج الغيوب في رعم العامة الحساب الذي يسمونه "حساب النيم" . وهو مذكور في آخر كتاب السياسة المنسوب لأرسطو . وهو لمعرفة الغالب من المغلوب في المتحاربين من الملوك . وهو أن تحسب الحروف التي في اسم أحدهما - لحساب المصطلح عليه في حروف ابجد من الواحد إلى الألف . أحداً وعشرت ومئين وألفاً . فإذا حسبت اسمه وتحصل لك منه عدد فاحسب اسم الآخر كذلك ، ثم اطرح كل واحد منهما تسعة تسعة واحفظ بقية هذا ، ثم نظر بين العددين الباقيين من حساب الإسمين ، فإن كان العددان مختلفين في الكمية وكنا زوجين معاً وفردين معاً فصاحب الأقل منهما هو الغالب ، وإن كان أحدهما زوجاً والآخر فرداً فصاحب الأكثر هو الغالب ، وإن كان متساويين في الكمية وهما معاً زوجان فالمطلوب هو الغالب ، وإن كنا معاً فردين فالمطلوب هو الغالب . وينقلون بيتين يتضمنان هذا الحكم مشهورين بين الناس وهما :

أرى الزوج والأفراد يسمو أقلهما وأكثرها عند التخالـف غالب
ويغلب المطلوب إذا الزوج يستوي وعند استوا الفرد يغلب طالب

و ستخرجوا المعرفة ما يبقى من الحروف بعد طرحها بالتسعة قسماً معروفاً عندهم. وذلك أنهم جمعوا الحروف الدالة على الواحد في المراتب الأربع، وهي (ا) الدالة على الواحد، و(ي) الدالة على العشرة لأنها واحد في مرتبة العشرات، و(ق) الدالة على المائة لأنها واحد في مرتبة المئين، و(ش) الدالة على الألف لأنها واحد في مرتبة الآلاف. وليس بعد الألف عدد يدل عليه بالحروف لأن الشين هي آخر حروف ابجد.

ثم رتبوا هذه الحروف الأربع على نسق المراتب، فصارت منها كلمة رباعية وهي (ايقش). ثم فعلوا كذلك بالحروف الدالة على الإثنين في المراتب لثلاث وأسقطوا مرتبة الآلاف من الإثنين لنساق حروف ابجد كما قلناه. فكان مجموع حروف الإثنين في المراتب الثلاث ثلاثة حروف وهي (ب) الدالة على الإثنين في الأحاد و(ك) الدالة على الإثنين في مراتب العشرات وهي عشرون، و(ر) الدالة على الإثنين في مراتب المئين وهي مائتان. وصيروها كلمة واحدة ثلاثية على نسق المراتب، وهي (بكر). ثم فعلوا كذلك في الحروف الدالة على الثلاثة فنشأت عنها لفظة (جلس)، وكذلك إلى آخر حروف ابجد. وصارت تسع كلمات نهاية عدد الأحاد، وهي (ايقش)، (بكر)، (جلس)، (دمت)، (هنت)، (وضخ)، (زعد)، (حفظ) (طضغ). مرتبة على التوالي الأعداد. ولكل كلمة منها عددها الذي هي في مرتبته. فالواحد لكلمة (ايقش)، والإثنان لكلمة (بكر)، والثلاثة لكلمة (جلس)، وكذلك إلى التاسعة التي هي (طضغ). فتكون لها التسعة. فإذا أرادوا طرح الاسم بتسعة نظروا كل حرف منه في أي كلمة هو من هذه الكلمات وأخذوا عددها مكانه، ثم جمعوا الأعداد التي يأخذونها بدلاً من حروف ذلك لاسم. فإن كانت زائدة على التسعة أخذوا ما فضل عنها، وإلا أخذوه كما هو. ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخر وينظرون بين الخارجين بما قدمناه.

والسر في هذا القانون يبين . وذلك أن الباقي من كل عقد من عقود الأعداد بطرح تسعة إنما هو واحد . فكأنه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة ، فصارت أعداد العقود كلها كأنها أحاد . فلا فرق بين الإثنين أو لعشرين أو المائتين أو الألفين وكلها اثنان . وكذلك الثلاث والثلاثون والثلاثمائة والثلاثة آلاف إنما هي كلها ثلاثة ثلاثة . فوضعت الأعداد على التوالي دالة على أعداد العقود ، لا غير ، وجعلت الحروف الدالة على أصناف العقود في كل كلمة من الأحاد والعشرات والمئتين ، وصار عدد الكلمة الموضوع عليها نائباً عن كل حرف فيها ، سواء دل على الأحاد أو العشرات أو المئتين فيؤخذ عدد كل كلمة عوضاً من الحروف التي فيها وتجمع كلها إلى آخرها كما قلناه .

هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الأمر القديم . وكان من لقباه من شيوخنا يرون أنه ليس بصحيح . وينقلون عوض هذه الكلمات كلمات أخرى تسعة على التوالي الأعداد كما كانت هذه ، ويفعلون بها في الطرح تسعة مثل ما فعلوه بالكلمات الأخرى سواء وهي (ارب) ، (يسقك) ، (حزلط) ، (مدوص) ، (هف ..) ، (تخذن) ، (غش) ، (خج) ، (تضط) ، تسع كلمات فيها الثلاثي ، وفيها الرباعي . وفيها الثنائي . وهي كما نراه غير مستقيمة ولا حرية على أصل فيما فهمناه . ولكن كان شيوخنا ينقلونها عن شيخ المعرب في هذه المعارف من السيميا وأسرار الحروف والنجامة وهو أبو العباس البهاء . ويقولون عنه أن العمل بهذه الكلمات في طرح حساب السيم أصح من لعمل بكلمات (ايقش) .

وهذه كلها مدارك للغيب غير مستندة إلى برهان ولا تحقيق . والكتاب الذي وجد فيه حساب النيم غير معزو إلى أرسطو عند المحققين لما فيه من الآراء البعيدة عن مناهج الحق والبرهان ، يشهد لك بذلك تصفحه إن كنت من أهل الرسوخ .

ومما يتداوله الناس قانوناً لاستخراج الغيوب الزايرة المسماة بـ ريرجة العلم ، المعزوة إلى أحمد السبتي ، من أعلام المتصوفة بالمعرب في المائة

السادسة وهي دائرة عظيمة في داخلها دور متوردة. فمنها دور للأفلاك
والمعاصر والمكونات وللروحانيات ولغير ذلك من أصداف الموحودات، كل
في موضعه وكل دائرة مقسومة بأقسام فلنكها، إما للروح وما للعنصر أو
غيرهما، وحطوط كل قسم مارة إلى المركز ويسمونها لأوتار. وعلى كل
ور حروف متنوعة وأعداد مرشومة برشوم الزمام وأخرى برشوم العبار
متناسقة كتب مع تلك الحروف. وفي مقلوب الدائرة جدول متكثر البيوت،
حواسب منه معمورة بيوت بالعدد، وحواسب حالية ولا تعم بسنة الأعداد في
أوصاعها ولا بسنة البيوت العمرة من حالية. ومع الجدول نيات من عروض
طويل على روي التلام لمصوبة تتضمن صورة العمل في استخراج
لمصوب من تلك الزايرة. لا أنها مستعجلة غير حالية فإذا أرادوا
استخراج الحروف عما يسألون عنه أحصوا آلة الأضطراب لأخذ الارتفاع
واستخرج لطلع. فإذا علموا درجه من السراج أحصوه. وأحد أس ذلك
السراج هي تلك الزايرة ويسمونه سلطان لطلع ثم أخذوا ما على الوتر
الذي كتب سراج الطالع من أوله من الحروف ومن الأعداد يصيرونها أيضًا
حروف وقد يفتقرون أحادها إلى العشرات وعشراتها إلى المئتين على ما
اقتضاه قلوبهم. ثم يأخذون حروف السؤال متقطعة ويصربون أيضًا في
الأس لأكر ويسمونه الدور الأصبي ويدخلون ما يجمع لهم على
مقنصى تقنون في بيوت الجدول على نسبة عمية بقانون ما يخرج لهم من
ذلك بحروف بيت واحد من تلك القصيدة وهو قوله .

سؤن عظيم الخلق حزب فصل إبدن غرث سر صوبها الحد مثلا

ويؤلفون تلك الحروف، ثم يستخرجون منها حروفًا أخرى بصناعة
يسمونها الكسير، بعدد عدداً ويأخذون ما بعد نهايته من الحروف على
نسبة قسوية معروفة عندهم فيستخرجون بذلك العمل حروفًا كثيرة

يضعونها ناحية، ثم يعدّون تلك الحروف أيضًا بعدد معلوم عندهم، وحيث ما بعد أخذوا الحروف الذي ينتهي إليه وأحرفه ناحية إلى أن تفرغ تلك الحروف لأولى وتخرج منها بذلك العدد حروف أخرى يفعلون فيها بعدد آخر مثل ما فعلوا في الأولى يفعلون ذلك مرات معدودة عندهم سموها الأدوار، تخرج آخرها أعداد متولية مقطعة. فإذا لُت خرجت منها كلمات مطبوعة في بيت واحد على النور و نروي الذي لأبيات القصيدة المرسومة مع الحدود وقد يزعم بعضهم أنه يخرج منها أبيات أكثر من واحد على أعديص أخرى. ولهم بيت متداول بينهم يزعمون أنه يخرج في الجواب عن سؤال أهل العمل تلك الزايرة صحيحة أم لا؟ وهو

تروحن روح اقدس أسر سره لإدريس فاسترقى بها مرتقى العلا

ولا بد عندهم لمن أحكم العمل بهذا القانون أن يخرج له الجواب عن سؤاله منظومًا مفهومًا، وقد يكون مستغلًا على انهم لقصور الملكة في لعمل بذلك القانون.

وهي من الأعمام العربية في استخراج الأحوبة. وبعض الخواص مؤلّعون بها، متهاالكون في أحكام العمل بقاوبها، يعتقدون استخراج الغيوب بذلك القانون وعمله. وهم من ذلك على خط كما نبيته. وآخرون مديعون لإبكرها، يزعمون أن لعمل بقانونها غير صحيح في نفسه وأنه من الحيل، ضًا منهم أن صاحب ذلك العمل يعد البيت منظومًا ويخرجه حوائ عن لسؤال، فيطير به لاستغرب كل مطر، وليس ذلك بصحيح. فأما أنه يستخرج به حوائ عن السؤال فأمر بين يظهر من صورة العمل إذا شهدت من أحكم ممكنه قد فرغ لعمله و استخراج به مطلوبه وأما أنه يفيد معرفة الغيب الذي استأثر الله بعلمه، فلا.

ووجهه أن العالم كله بما فيه من كلي وحزئي علو، وسفلاً وأفلاك وعناصر ودوات ومعاني وألفاظ وحروف وأسماء وأفعالاً متناسبة كلها على تقدير مقدرة ومرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً غير منفصل، ومن ذلك لسؤال وجوب في ألفاظهم وحروفهم ومعانيهما. وهذا لتناسب في عالم الملك الذي هو المحسوسات وما إليها. وأما عالم الملكوت فمستعينة عن عالم الملك من كل الوجوه. والعلم المحيط حاصر لذلك كله، والعلم الشري بما حس مدرّكه في عالم الملك، درك غير محيط ولا بالغاً إلى النهاية. وقد يكون لبعضهم مدد إلهي من عالم الملكوت ومعة ربانية، فينص بها إدراكه عن لم يخص له تلك النفحة، لكن في حس مدرّكه لشريعة لا فيما خرج عن نطاقها. حتى لقد عبط في ذلك بعض علاة المتصوفة ورغم أنه يدرك في جس مدرّكه ما لا ينتهي من جزئياتها إفرطاً حميمهم عليه التعلغل والغلط وإدائت لك بهذا الذي قررناه اتساع نطاق العلم الشري في بعض دون بعض في جس مدرّكتهم بلمد الربني الحاصل بعد كشف حجاب حس، فلا يعد أن يحصل لبعض من انكشف له الحجاب وضع القانون في استخرج الجواب من السؤال بعد أن يكون قد اطلع على لتناسب بين الأمور التي يستخرج ذلك بها وعلى ربط بعضها ببعض بما اتسع له من نطاق علمه لشري. ولقد كان ينبغي له أن لا يدعه لما يحب من صو الأسرار الربانية إذا أطلع الله عليها من أطعمه من حقه. ومع هذا كله فلا يفيد هذا معرفة لغيب، وليس التاسب المذكور بالذي يفيد معرفة ما استأثر الله به من غيبه. لأن الوقائع كلها حاصلة في العلم لقديم، وهو محيط بها، والتاسب بين العلم الرباني الذي من عالم الملكوت وبين علم الملك بعيد كما قدمناه، فكيف يندرج تحت هذا القانون الذي مسا على التاسب بين الكائنات في علم الملك؟ فالقوابير الصناعية لا توصل إلى معرفة الغيب بوجهه ويشهد لك بذلك في هذه الزايرة أن كثيراً من أحوتها لا يصدق مقتضه في الوجود والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

المقدمة السادسة

في أصناف المدركين للعب من البشر بالفطرة أو بالرياضة
ويتقدمه الكلام في الوحي والرؤيا
(نص مخطوطة [ب])

اعلم^١ أن الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصاً فضيلاً بخطابه،
وفطرهم على معرفته، وجعلهم وسطاً بينه وبين عباده، يعرفونهم
بهدايته، ويأخذون بالحجرات منهم عن مهالكهم وكان فيما ينقي
إليهم من المعارف ويظهر على ألسنتهم من الخوارق الإخبار بوقوع
كائنات مغيبة عن البشر لا سبيل إلى معرفتها إلا منهم، كما قال صلى
الله عليه وسلم: ألا وإنني لا أعلم إلا ما علمني الله واختص خبرهم
في ذلك بالصدق دائماً لأنه من عند الله، وكل ما هو من عند الله فهو حق
لا يشوبه الباطل، وما هو من عند غير الله فحقه مختلط بباطله
وانظر قوله صلى الله عليه وسلم لما سأل ابن صياد، وقد قيل عنه ما
قيل، يسأله عن حاله في ذلك فقال: يأتيني صادق وكاذب فقال
خلط عليك الأمر فكذا قال صلى الله عليه وسلم في الرؤيا، وجعلها
ثلاثة أصناف: رؤيا من الله، ورؤيا من الملك، ورؤيا من الشيطان فخص
التي من الله والملك بالحق، والتي من الشيطان بالكذب، وهي أصناف

١ - ورد كل التعديلات والبريدات اسمي هر ب على نص في [ب] بخط مختلف (خط عصف،
سميره عن نص [])

أحلام. فكأن ما هو من عند الله، فهو حق. هذا محصل أمر الوحي على الجملة

ولبعضهم في شرح أمر الوحي مسلك آخر، وهو أن الوحي هو ارتفاع حجاب الحس لصنف الأنبياء بفطرة فطرهم الله عليها، وهي على حالة أكمل من حالات سائر المدركين للغيب بمراتب لا تتناهى، إذ هو يفارق الظاهر والباطن جميعاً ويتأيد بروح الله في كمال فطرته أولاً وفي حال إدراكه ثانياً فلا يعبر عن منتهى مداركه.

وعلا متهم أن توجد لهم في حال الوحي غيبة عن الحاضرين مع غطيط كأنها عشي أو إغماء. وليست منهما في شيء حقيقة، إنما هي استغراق في لقاء الملك الروحاني إما بالإدراك المتناسب لهم الذي لا تعرف كنهه. أو مشاهدته في صورة شخصية يخاطبه بما جاء به من عند الله، ثم تتجلى عنه تلك الحال وقد وعى ما ألقى عليه.

قال صلى الله عليه وسلم، وقد سئل عن الوحي: "أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشد علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال. وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول". وقد يدركه أثناء ذلك من الشدة والغط ما لا يعبر عنه. ففي الحديث: "كان مما يعالج من التنزيل شدة". وقالت عائشة: "كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً". وقال تعالى: إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً". ولهذه الحالة في تنزل الوحي كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ويقولون له "رثي" أو "تابع" من الجن.

ومن علاماتهم أيضاً أنه يوجد لهم قبل الوحي حال الزكاء ومجانبة المذمومات والرجس أجمع، كأنه مفطور على التنزه عنها والحذر منها، وكأنها منافية لحاله تلك، حتى من المستفدرات الحسية. فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يقرب البصل والثوم. وقيل له في ذلك، فقال: 'إني أناجي من لا تحبون'. و نظر لما أحبر صلى الله عليه وسلم خديجة بحال الوحي أو من

فحثة وأرادت اختباره فقالت له : "اجعلني بينك وبين ثوبك". فلما فعل ذلك ذهب عنه، فقالت : "إنه ملك وليس بشيطان". ومعناه أنه لا يقرب النساء. وكذا سألته عن أحب الثياب إليه أن يأتيه فيها فقال لها : "البياض والخضرة". فقالت : "إنه الملك". بمعنى أن الخضرة والبياض من ألوان الخير والملائكة، والىسواد من ألوان الشر والشياطين. وأمثال ذلك.

وأما الرؤيا، وهي من خواص البشر ومن أوضح الأدلة على وجود الروح المجرد. وهي موجودة فيهم على العموم، ولا يخلو عنها أحد منهم، بل كل أحد من الأناسي فقد رأى في نومه ما صدق له في يقظته مراراً غير واحدة، وحصل له على القطع أن النفس مدركة للغيب ولا بد. وإذا جاز ذلك في عالم النوم، فلا يمتنع في غيره من الأحوال، لأن الذات المدركة واحدة، وخواصها موجودة في كل حال.

وأما السبب المختص بالنوم في ارتفاع حجاب الحس فهو أن الروح الحيواني الذي مركزه في القلب، وهو البخار اللطيف المنبعث مع لدم في الشريبات والعروق الذي يعطي الحس والحركة، وتتعلق به النفس الباطنة من بين المواد الجسمانية، فإذا خُفّ الجسم حال التعب والملال بكثرة السعي والتردد وعشيه لين ولبرد طلب الجسم الراحة والسكون والدفع، فيطلبها لروح الحيواني كذلك، فينخس عن الحس الظاهر الذي فيه تعب وسعيه. فإذا انخس عن الحس الظاهر ورجع إلى القوى الباطنة، وخفت الشواغل من الحس الظاهر، ولم يبق له إلا القوى الباطنة من البدن، فتكون حال شواغله أخف، فربما التفت لفتة إلى عالمه الروحاني مع منازعة القوى الباطنة الدماغية، لكن لحفتها تجد السبيل إلى تلك اللحمية، فيدرك من صور الأشياء التي في علم الغيب ويحصلها، ويأخذها الخيال كما قلناه لأول وهلة، فيصرفها في القوالب المعهودة لديه، وتصاحبه إلى اليقظة، فيخبر بها. هذا حال النوم وسببه. وهو خاصية للنفس الإنسانية في ارتفاع حجاب الحس.

ثم إن نجد في النوع الإنساني أشخاصًا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس، ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة، ولا يستدلون عليه بأثار من النجوم ولا غيرها، إنما نجد مدركاتهم في ذلك بمقتضى جبلتهم وفطرتهم التي فطروا عليها. وذلك مثل الكهان، والعرافين الناظرين في الأجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء، والناظرين في قلوب الحيوان وأكبادها وعظامها، وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى. وهذه كلها موجودة في عالم الإنسان، لا يسع أحدا جحدها ولا إنكارها.

والنفس الإنسانية لها أن تنال من الغيب. وذلك أنها ذات روحانية موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات، وإنما تخرج من القوة إلى الفعل بالبدن وأحواله. وهذا أمر مدرك لكل أحد. وكل ما بالقوة فله مادة وصورة، وهذه النفس التي بها يتم وجودها هي عين الإدراك والتعقل. فهي توحد أولاً بالقوة مستعدة للإدراك وقبول الصور الكلية والجزئية، ثم يتم شؤده ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن، وما يعودها بورود مدركاته الجزئية المحسوسة عليها، وما تنتزع هي من تلك الإدراكات من المعاني الكلية، فتتعقل الصورة مرة بعد أخرى حتى يحصل لها الإدراك والتعقل صورة بالفعل، فتتم ذاتها. ولهذا نجد الصبي في أول نشته لا يقتدر على الإدراك الذي لها من ذاتها لا في نوم ولا بكشف ولا بغيرهما. وذلك لأن صورتها التي هي غير ذاتها، وهي الإدراك والتعقل، لم تتم بعد، بل لم يتم لها انتزاع الكليات.

ثم إذ تمت ذاتها بالفعل، حصل لها ما دامت مع البدن نوعان من الإدراك : إدراك بآلات الجسم تؤديه إليها الحواس الظاهرة ولباطنة، وإدراك بذاتها من غير واسطة، وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس وشواغلها. لأن الحواس أبداً جاذبة لها إلى الظاهر، بما فطرت عليه أولاً من الإدراك الجسماني. وربما تنغمس عن الظاهر إلى الباطن، فيرتفع حجاب

البدن حظة، إما بالخاصية التي هي للإنسان على الإطلاق، مثل نوم، أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الكهانة والطرق؛ أو بالريضة مثل أهل الكشف وسجادة من الصوفية وغيرهم، فتلفت حينئذ إلى ذاتها، وهي تعقل صرف وإدراك محض من جنس الذوات الروحانية التي هي عقول بالفعل، وفيها صور الموجودات وحقائقها، فيتجلى فيها شيء من تلك الصور، وتقتبس منها علماً، وربما دفعت تلك الصور المدركة إلى الخيال، فتصرفه في القوالب المتعددة، ثم تراجع الحس بما أدركت إما مجرداً أو في قوالبه، فتخبر به. هذا هو السبب العام في إدراك النفس. وقد يكون ذلك بخلق الله تعالى من غير رجوع إلى سبب ولا تعليل، كما في الوحي.

ثم الكهانة، وإن كانت ضيعة للصنف الموجودة فيهم، فلا يعلل ارتداع حجاب الحس فيهم لأنه بالطبع كما قلناه. وأما التعلق الذي لتلك النفوس مع أربابها، فتعلق ضعيف ومركز مختل باختلال البنية وكونها على غير المنحى لطبيعي في الغالب. فتقوى فيها قوة دون أخرى بحسب المناسبة في التعبدات. وهي خفية عنا وأكثر ما توجد في المشوهين والناقصين الحق من الناس ولكون هذه النفوس الكهانة فطرت ضعيفة وقاصره عن رتبة الكمال في نوعها يكون إدراكها في الجزئيات أكثر من الكلليات لقصورها. فتكون كثيرة التشبث بالجزئيات، متعاهدة لها، غافلة عن الكلليات، لأنها ليست من جنس مدركتها لضعفها في أصل فطرتها. وهي إنما تتعاهد بالإدراك ما يثر في تحصيل صورتها وكمال ذاتها، وهي الجزئيات. فتكون القوة المتخيلة فيهم في غاية لقوة لأنها آلة الجزئيات، فتنفذ فيها نفوذاً تاماً حتى تحيط بها في نوع يقظة. وتكون عندها حاضرة عتيقة. فإذا توجه الكاهن نحو شيء من الجزئيات، أحضرته القوة المتخيلة لقوتها، ولأن الجزئيات صارت له كالمرآة. وهو ينظر فيها دائماً على كمالها، ولا يقوى على الكمال في إدراك المعقولات، لأن وحيه من وحي الشيطان، وهو كله راجع إلى الوهم والخيال لضعف هذه النفس ونزولها عن رتبة الكمال في جبلتها، فكذا إدراكها.

وَأَمَّا الْمُحَابِبِينَ يُصْصَا فَمَرْكَزُ الْفَنَسِ فِيهِمْ مَخْتَلٌ عَن مَّكَانِهِ مِّنَ التَّلَوُّقِ وَعَلَى
عَبْرِ الْمَسَّةِ نَطْصَعِيَّةٌ فِيهِ. فَمَزَاحُهُ الْبَدِي وَفَسَدٌ فِي الْغَالِبِ لُصْعَفُ الرُّوحِ
الْحَيَوَايِي مَ هُوَ مَنَحَرَفٌ عَن طَرِيقِ مَعْدِهِ الْبَدِي هُوَ لِنَفْسٍ لِبَاطِفَةٍ. فَيَكُونُ بِنَفْسِهِ
عَبْرَ مَشْتَعَلَةٍ رَاحِيَسٍ وَلَا مَنَعْمَةٍ فِيهِ، عَمَّا شَعْبِهِ فِي دَنَاهَا مِّنَ النِّقْصِ وَفَرْصِهِ.
وَرَمَا دَرَجَتُهُمَا عَمَى لَتَعْلُقُ بِهِ رُوحَانِيَّةٌ شَيْطَانِيَّةٌ، تَنْشِثُ بِهِ وَتُصْعَفُ هَذِهِ
عَن مَدْنَعِيَّتِهِ، فَيَكُونُ عَمَهُ الْتَخْطُطُ وَإِذَا أَصَابَهُ ذَلِكَ التَّخْطُطُ، يَمُوتُ لِنَفْسِهِ مَزَاحُهُ
مِّنَ فُسَادِ مَزَاحِ الْفَنَسِ، وَأَمَّا رَاحِمُهُ مِّنَ الْفَنَسِ شَيْطَانِيَّةٌ فِي تَعْبِقِهِ، عَابَ
عَن حَسَبِهِ حَمَلَةٌ، فَأَدْرِكُ لُحَّةً مِّنَ عَالَمِ بِنَفْسِهِ، وَنَطْعٌ فِيهِ عَصَصُ الْبُصُورِ،
وَصَرْفُهُ رَاحِيَالٌ كَمَا قَلْبَاهُ وَرَمَا يَطُوقُ عَمَى لِسَانِهِ فِي تِلْكَ الْحَارِ مِّنَ عَبْرِ إِرَادَةٍ
بِنَطْقٍ وَإِدْرَاكِ هَؤُلَاءِ كَدِّهِمْ مَشُوبٌ فِيهِ حَقٌّ بِالْبَاطِلِ، لُصْعَفُ هَذِهِ الْفَنُوسِ
فِي أَصْلِ فِطْرَتِهِ. فَلَا تَقْوَى عَمَى التَّحَرُّدِ عَن حَسَمَانِيَّةٍ بِأَحْمَةِ وَلَا تَزَالُ
مَنْشِثَةٌ بِهِ، فَيَكُونُ الْكُثِيرُ مِّنَ إِدْرَاكِتِهِ حَسَمَانِيَّةً وَكُثْرُهُ بَاطِلٌ.

وَأَمَّا لِصُورِهِ فِي الْأَجْسَامِ لُشْفَافَةٌ مِّنَ الْمَرِيَا وَلُطْسَاسٌ وَقُلُوبٌ حَيَوَانٌ
وَكُدْهَةٌ وَعَصَامِيَّةٌ وَأَهْلُ الطَّرِيقِ رَاحِيَصِيٌّ وَالنُّوَى، فَرَمَعٌ حَجَبُ الْحَسَنِ فِي
صَفِيهِمْ نُصَابًا لَطْعٌ إِلَّا أَنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى الْمَعِينِ وَالْمَشِيعِ، فَيَشْعُرُ حَسَنُ الظَّاهِرِ
بِنَبْذِ الْأَنْوَاعِ لِيُبَحْصَرَ إِدْرَاكِهَا فِي حَسَنِ وَاحِدٍ، وَيَسْتَعِينُ بِذَلِكَ عَمَى الْعَبِيَّةِ
عَن الْحَسَنِ هُوَ عَدَاكُهُ عَمَى لِنَطْرِ فِي الْحَسُوسِ لِنَسِيطٍ وَرَمَمَا يَظُنُّ أَنَّ
مُشَاهَدَةَ هَؤُلَاءِ لَمَّا يَرُونَهُ هُوَ فِي سَطْحِ الْمَرَاةِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، بَلْ لَا يَزَالُونَ
يَنْظُرُونَ فِي سَطْحِ الْمَرَاةِ إِلَى أَنَّ يَغِيبُ عَن حَسَبِهِمْ وَيَصِيرُ إِدْرَاكِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ
وَبَيْنَ الْمَرَاةِ بِصُورٍ تَتِمَثَّلُ هُنَاكَ وَتُخْبِرُهُم بِالْإِشَارَةِ وَالْمَثَالِ وَقَدْ شَاهَدُوا مِنْ
هَؤُلَاءِ مَن يَشْعُرُ حَسَنًا بِالسَّحُورِ فَقَطْ وَلَعَرَّمْ، ثُمَّ يَحْجُرُ عَمَّا أَدْرَكَ.
وَيَسْرِعُمُونَ نُهُمُ يَرُونَ نُصُورَ مَشْجُوعَةٍ فِي لَهْوَةٍ، تَحْكِي لَهُمْ أَحْوَالَهَا
يَتَوَحَّجُونَ إِلَى إِدْرَاكِهَا لِمَثَالِ وَالْإِشَارَةِ وَعَبِيَّةٌ هَؤُلَاءِ عَن حَسَنِ حَقِيقَةٍ. وَالْعَالَمُ
أَبُو الْعَرَائِبِ

وقد يلحق بهذا الباب الزجر في الطير وغيره . وهو قوة في النفوس
واحدس بعد الفكر فيما رحر فيه من مرثي أو مسموع . وتكون قوته المتخبة
كما قدمناه قوية، فيعثر في لثت مستعينا بما رآه أو سمعه، فيؤديه ذلك إلى
إدراك ما، كما فعله بقوة المتخبة في النوم عند ركود الخواس، توسط بين
المحسوس المرثي في بقطته وتجمعه مع ما عقلته، فيكون عنها لرؤي هذا
تخصيل هذه الأمور . وقد تكلم عليها المسعودي في مروج الذهب فما صادف
تحقيقاً ولا ضابها . ويظهر من كلام الرجل أنه كان بعيداً عن الرسوخ في
المعرف، فينقل ما سمع من أهله ومن غير أهله .

وهذه الإدراكات التي ذكرها موحودة كلها في نوع البشر فقد كان
العرب يفتزعون إلى الكهان في تعرف الحوادث، ويتناقلون إليهم في
الخصومات ليعرفوهم بالحق فيها من مدركات عينهم وفي كتب أهل الأدب
كثير من ذلك واشتهر منهم في الجاهلية شق، من أمار بن نزر، وسطيح، من
مار بن عسد، وكان يدرج كما يدرج الثوب، ولا عظم فيه إلا خمخمة
ومن مشهور الحكايات عنهما تأويلهما رؤيا ربيعة بن نصر، وما أختره من
منك أحشبه ليمن، وملك مصر من بعدهم، وظهر لنبوة المحمدية في
فريش . وكذلك رؤيا لمونذ ن التي أولها سطيح لما عث إليه كسرى عبد
المسيح، فأخبره بشئ النبوة وخراب ملك فارس وهذه كلها مشهورة .
وكذلك العرب فون كان في العرب منهم كثير، وذكرهم في أشعارهم . قال .

فقلت لعرف اليمامة دوبي فإني إن داويتني لطيب

وقال آخر :

جعلت لعرف اليمامة حكمه وعرف نحد إن هما شمسان
وقالا شمالك الله والله ما لنا مما حملت منك الضموع يدان

وعراف اليمامة رياح بن عجلة، وعراف نحد لأبني الأسدي والعراف هو الذي يأخذ الأمور بالفض ولتخمين ويطرق، وليس من حن وكأنه يدعي معرفة الغيب.

ولما جاء الإسلام أتى على ذلك كله ومحا أثره. إذ الوحي هو القوة العظيمة التي يحقها الله في النوع الإنساني لإدراك ما وراء الحس، يقينه من الملك المحلود لذلك فإذا طهر نوره خمدت سائر الأنوار الضعيفة، شأن السراج والذبال مع نور الشمس، إلا ما كان بينه وبين الوحي مناسبة في معقوليته وتحققه، كالنوم، فإنه لا يذهب إدراكه العيني، بل تريده السوة قوة إيمى قوته بما بينهما من المناسبة التي هي حفية عنا ولا سبل إلى تعرفها إلا من قبل الوحي. قل صلى الله عليه وسلم، 'الرؤيا الصالحة حراء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة' وهي رواية، ثلاثة وأربعين، وهي رواية، سبعين فدل ذلك على مناسبة بينهما لا يعرف كمينها إلا الله وأما غير النوم من هذه الإدراكات فإنها تطل وتضمحل عند زمن النبوة ووجود الوحي، وتذهب كأن لم تكن، حتى تعود بعد حين من الدهر. والسري ذلك، ولله 'عسم، المحفظة على المعجزة وطرق الوحي أن يكون فيها مطعن لمنحدين كما وقع في نزيه النبي صلى الله عليه وسلم عن الشعر والكتانة ومثل ذلك.

هذه طرق رفع حجب الحس التي بالخاصية كالنوم والفطرة في صف دون آخر مثل الكهانة وسائرهما

وفي النوع الإنسي أيضاً في رفع هذا الحجاب وحه آخر بالصناعة، وهي طريقة أهل الرياضة من المتصوفة وغيرهم، يحاولون بالرياضة موتاً صاعياً بإماتة جميع لقوى البدنية، ثم محو آثارها التي ثبوت بها النفس، ثم تعديتها بالذكر لتزداد قوة في سئها. ومن المعلوم على انقطع أنه يد نزول الموت بالبدن ذهب الحس وحجابه، واطلعت النفس على ذاتها وعالمها فيحاولون ذلك بالصناعة ليقع لهم مه ما يقع، وتطلع النفس على المعينات، وهو باب الكرامات في الصالحين منهم، ويسمونه "الكشف والمكاشفة" وليس ذلك

بكثير وذهب إلى إنكاره بعض الفقهاء فليس من الحق والوجود شئ به. وقد كتب في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قل: إن فيكم محدثين وإن منهم عمر' ولبصحة منه كثير في قول بعضهم إنهما أحذك'. وغيره. بل أنه يقى في زمن السنة للسرا الذي ذكره

هذه أصناف الإدراك للعب برفع حجاب الحس، إذ لا يمكن بدونه وقد يزعم بعض الناس أنه يدرك من دون رفع هذا الحجاب، ويحاولون دحض بوجوه قاصرة عن المطلوب فيه كما سيه لك.

فمن الأمور التي استنطها العامة من المتأخرين لاستحراح اللعب وتعرف لكائب صناعة الخط، ويسمونه خط لرمس'. سنة إلى المدة التي يصعونه فيها. وذلك أنهم صيروا من النقط أشكالاً ذات أربع مراتب تختلف باختلاف مراتبها في الزوجية والفردية أو سنوائها فيها. فكنت ستة عشر شكلاً. لأنها إن كنت زوجاً كلها أو أفراداً كلها فشكلاً وإن كنت فردياً فيها في مرتبة واحدة فقط فربعة أشكال. وإن كنت الفردي في مرتبتين فستة أشكال. وإن كان في ثلاثة مراتب فربعة أشكال، جاءت ستة عشر، سموها كلها أسمائها ونوعوها إلى سعود وسحوس، شأن لكواكب، وحلوا لها ستة عشر بيتاً صعبة بزعهم، وحلوا لكل شكل بيتاً وخطوطاً ودلالة على صف من موجودات عالم العنصر تحتص به، واستنطوا من ذلك فناً حدوداً به من لنجامة ونوع قصته. بل أن أحكم النجامة مستندة إلى وضع طبيعية كما رعم بظلموس، وهذه إنما مسندها، وأصاع حكمية وأهوء تدقية، ولا دليل يقوم على شيء منها

ورعموا أن أصل ذلك من النوءات القديمة في عالمهم. ورمد بسوه إلى ديان أو إلى دريس، شأن نصنع كلها ويحتجوب بقوله صلى الله عليه وسلم 'كان نبي يحط، فمن وافق حصه فذلك. فإذا أرادوا استحراح معيب بزعهم عمدوا إلى قرطاس أو إلى رمل أو دقيق فوضعوا النقط سطوراً على عدد المراتب الأربعة، ثم كرروا ذلك أربع مرات، ثم بطرحوا النقط أروحا

ويصعب ما بقي من كل سطر روحاً كان فرداً في مرتبة على لترتب ،
فنجيء أربعة أشكال يصعبها في سطور متتالية ، ثم يولدون منها أربعة
أشكال أخرى من جانب لعرض باعتبار كل مرتبة وما قدسها من الشكل الذي
يرائه وما يجمع منها من زوج أو فرد فتكون ثمانية أشكال موضوعة في
سطر ، ثم يولدون من كل شكلين شكلاً تحتها باعتبار ما يجمع في كل مرتبة
من مراتب لشكلين أيضاً من روح وفرد فتكون أربعة أخرى تحتها ، ثم يولدون
من الأربعة شكلين كذلك مجتمعا ثم من شكلين شكلاً كذلك تحتها ، ثم من هذا
الشكل احدى عشر مع الأول شكلاً آخر يكون حراً السنة عشر ، ثم
يحكمون على خط كله في فئته أشكاله من السعوية والحوسة والسطر
والمحور والامتزاج والدلالة على أوصاف الموحودات وسائر ذلك تحكما
عريفاً

وكثرت هذه الصناعة في العمران ، ووضعت فيها التواليف وشنهر فيها
لأعلام من متقدمين وتأخرين ، وهي كما رأيت تحكم وهوى .
والتحقيق يدي يسعى أن يكون نصب فكرك أن العيوب لا تدرك دأمر
صاعبي لئلا ، ولا سبيل إلى عرفت إلا للحواص من البشر المفلطرين على
لرجوع عن عدم الحس إلى عدم الروح . ولدلت يسمي المنحمون أهل هذه
الصنف - 'لزهرين ، بسبه إلى ما تقتضيه الزهرة زعمهم في أصل
موايدهم على إدراك العيب واخط وغيره إن كان الناظر فيه من أهل هذه
الخاصة وقصد بها الأمور التي يظن فيها من لقط والعظام وغيرها شعاع
الحس فترجع النفس إلى عالم الروحانيات لحظة ما ، وهو من باب تطرق
بالحصى ولصر في قبور احيوان والمرابا الشفافة كما ذكرته . وإن لم يكن
ذلك وما قصد معرفة لمعبت هذه الصناعة وأنها تصد ذلك ، فهدر من لقول
والعمل . والله يهدي من يشاء

و لعلامة لهذه القصة التي فطر عليها أهل هذا الإدراك العيبي أنهم عند
نوحهم إلى تعرف الكائنات يعترفهم حروح عن حالتهم لطبيعية كالتشاوب

والتمطط ومادئ العينة عن الحسن. ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف وجودها فيهم. فمن لم توجد له هذه للعلامة فليس من إدراك العيب في شيء. والله علام لعيوب.

ومن القوايين التي شتهرت أيضاً بين الناس لهذه العصور في استخراج الغيوب في زعم العمة لحساب الذي يسمونه حساب النيم" وهو مذكور في آخر كتاب السياسة المنسوب لأرسطو وهو لمعرفة الغالب من المغلوب في متحاربين من الملوك. وهو أن تحسب الحروف التي في اسم أحدهما لحساب المصطلح عليه في حروف أبجد من الواحد إلى الألف، أحداً وعشرات ومئتين وألفاً فإذا حسبت اسمه وتحصل لك منه عدد فاحسب اسم الآخر كذلك، ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسمين، فإن كان العدداً مختلفين في الكمية وكانا روحين معاً وفردين معاً فصاحب الأقل منهما هو الغالب، وإن كان أحدهما روحاً ولآخر فرداً فصاحب الأكثر هو الغلب، وإن كان متساويين في الكمية وهما معاً روحان فالملطوب هو الغلب، وإن كانا معاً فردين فالطالب هو الغالب. ويتقنون بيتين يتضمنان هذا لحكم مشهورين بين الناس وهما:

أرى لزوح والأفراد يسمو قُلهم وأكثرها عند التخالف غالب
ويعب مضوب إذا الزوح يستوي وعند استوا الفرد يعلب طالب

واستخرجوا لمعرفة ما يبقى من حروف بعد طرحها بالتسعة قانوناً معروفاً عندهم. وذلك أنهم جمعوا لحروف لدالة على الواحد في المراتب الأربع، وهي () الدالة على الواحد، و(ي) الدالة على العشرة لأنها واحد في مرتبة العشرات، و(ق) الدالة على المائة لأنها واحد في مرتبة المئين، و(ش) الدالة على الألف لأنها واحد في مرتبة الآلاف. وليس بعد الألف عدد يدل عليه بالحروف لأن الشين هي آخر حروف أبجد ثم رتوا هذه الحروف الأربع

على سق المرتب، فصارت منها كلمة رباعية وهي (ايقش). ثم فعلوا كذلك بالحروف الدالة على الإثنين في المراتب الثلاث وأسقطوا مرتبة لآلاف من الإثنين لتعداد حروف ابجد كما قبلناه. فكان مجموع حروف الإثنين في المراتب لثلاث ثلاث حروف وهي (ب) الدالة على الإثنين في الأحاد، و(ك) الدالة على الإثنين في مرتب العشرات وهي عشرون، و(ر) لدالة على الإثنين في مرتب المئتين وهي مئتان، وصيروها كلمة واحدة ثلاثية على نسق المراتب، وهي (بكر). ثم فعلوا كذلك في الحروف لدالة على الثلاثة فسمّوا عنها لفظ (جس)، وكذلك إلى آخر حروف ابجد. وصارت تسع كمات نهاية عدد الأحاد، وهي: (ايقش)، (بكر)، (جلس)، (دمت)، (هنت)، (وصخ)، (رعذ)، (حفظ)، (طضغ)، مرتبة على التوالي الأعداد ولكل كلمة منها عددها الذي هي في مرتبته. فلو اُخذ لكلمة (ايقش)، ولإثنان لكلمة (بكر)، والثلاثة لكلمة (جلس)، وكذلك إلى تسعة التي هي (طضع). فتكون لها التسعة فإذا أرادوا طرح لاسم بتسعة بطروا كل حرف منه في أي كلمة هو من هذه الكلمات وأخذوا عدده مكنه، ثم جمعوا لأعداد التي يأخذونها بدلاً من حروف ذلك الاسم. فإن كنت رائدة على التسعة أخذوا ما فصل عنها، ولا أخذوه كما هو. ثم يفعلون كذلك بالاسم الآخر ويططرون بين الخارجين مما قدمناه.

والسر في هذا القابول بين وذلك أن الباقي من كل عقد من عقود الأعداد طرح تسعة إنما هو واحد. فكانه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة، فصارت أعداد العقود كلها كأنها حد. فلا فرق بين الإثنين أو العشرين أو المائتين أو الألفين. وكلها اتحد. وكذلك الثلاث والثلاثون ولثلاثمائة والثلاثة آلاف إنما هي كلها ثلاثة ثلاثة. فوضعت الأعداد على التوالي دالة على أعداد العقود، لا غير، وحملت الحروف الدالة على أصاف لعقود في كل كلمة من الأحاد والعشرات والمئتين، و صار عدد الكلمة موضوع عليها نائما عن كل

حرف فيها، سواء دل على الواحد أو العشر أو المئتين فيؤخذ عدد كل كلمة عوضاً من الحروف التي فيها وتجمع كلها إلى حرها كما قدس

هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الأمر قديم وكبر من بقيته من شيوخنا يرون أنه ليس بصحيح، ويتقنون عوض هذه الكلمات كلمات أخرى تسعة على التوالي لأعداد كما كانت هذه، ويفعلون بها في الطرح تسعة مثل ما فعلوه بالكلمات الأخرى سواء وهي (ر ب)، (يسفك)، (حزلف)، (مدوص)، (هف ..)، (تحدن)، (عش)، (جع)، (تصط)، تسع كلمات فيها ثلاثي، وفيها ارباعي، وفيها لثنائي وهي كما تراه غير منتظمة ولا حرية على أصل فيما فهمناه ولكن كان شيوخنا يتقنونها عن شح للمعرب في هذه المعارف من السيم وشرار حروف والخدمة وهو أبو العباس بن لبياء. ويقولون عنه إن يعمل بهذه الكلمات في طرح حساب السهم أصبح من لعمل بكلمات (البش)

وهذه كلها مدارك للعب غير مستندة إلى برهان ولا تحقيق والكتاب الذي وجد فيه حساب النيم غير معزو إلى أرسطو عند المحققين لما فيه من الآراء لبعده عن مذهب الحق ولرهد، يشهد بذلك تصفحه إن كنت من أهل الرسوخ

وما يتدونه الناس قنونا لاستخراج لعبوز نرابرحة المسماة - ريرحة العالم، المعروفة إلى أحمد السنيني، من أعلام المتصوفة بالمعرب في لمة السادسة. وهي دائرة عظيمة في دخبها دوائر موزنية فمها دوائر للأفلاك والعناصر والمكونات والبروجات ولغير ذلك من أصداف الموجودات، كل في موضعه وكن دائرة مقسومة بأقسام متكها، إما لبروج وإما للعناصر أو غيرهما، وحطوط كل قسم مدرة إلى المركز ويسمونها لأوتار وعلى كل وتر حروف متدعة وعدد مرشومة برشوم زماء وأخرى برشوم لعدا متسقة كلها مع تلك الحروف وفي مقنوب لدرته حدود مكتر البيوت، جواب من معمورة بيونه للعدد، وحواك حالية، ولا نعم بسة الأعداد في

وصاعها ولا نسنة لبيوت العمارة من الخالية. ومع الحدود أليات من عروض لطوبس على روي اللام المنصوبة تتضمن صورة العمل في استخراج لملطوب من تلك الزايرة، إلا أنها مستعجمة غير جنية.

فإذا أرادوا استخراج الحواب عما يسألون عنه أحضروا آلة لأصطرلاب لأحد الارتفاع و استخراج الطلوع. فإذا عمدوا درحه من البرج حصوه، وأخذوا أس ذلك الريح في تلك الزايرة ويسمونه 'سلطان الطالع'. ثم أخذوا ما على الوتر الذي 'كتف برح الطالع' من أوله من الحروف ومن الأعداد يصبرونها أيضًا حروفًا وقد يقلون أحدها إلى العشرات وعشراتها إلى اثنين على ما اقتضاه قانونهم ثم يأخذون حروف السور منقطعة ويصبرون أيضًا في الأس الأكبر ويسمونه 'لدور الأصلي'. ويدخلون عما يجتمع لهم على مقتضى القانون في بيوت الحدود على نسبة عمدية يقبلون ما يخرج لهم من ذلك حروف ست واحد من تلك القصيدة وهو قوله

سؤال عظيم لخلق حزت فصن إذن عرائب سر صونها الحد مثلا

ويؤلفون تلك الحروف، ثم يستخرجون منها حروفًا أخرى بصيغة يسمونها 'التكسير'. يعدون عددًا ويأخذون ما بعد نهايته من الحروف على نسبة قدسية معروفة عندهم فيستخرجون بذلك العمل حروفًا كثيرة يصنعونها ناحية، ثم يعدون تلك الحروف أيضًا بعدد معلوم عندهم، وحيث ما نفذ أخذوا الحرف الذي انتهى إليه وأخره ناحية إلى أن يفرغ تلك الحروف الأولى وتخرج منها بذلك العدد حروف أخرى يمعنون فيها بعدد آخر مثل ما فعلوا في الأولى يمعنون ذلك مرات معدودة عندهم يسمونها 'الأدور'. تخرج آخرها أعداد متوالية مقطعة فإذا ألفت خرجت منها كمات منظومة في بيت واحد على النور ولروي الذي لأليات القصيدة المرسومة مع الحدود وقد يزعم بعضهم أنه يخرج منها أليات أكثر من واحد على

أعاريص أخرى. ولهم بيت متداول بينهم يزعمون أنه يخرج في الجواب عن سؤال 'هل العمل تنبئ الزايرة صحيح أم لا؟' وهو:

تروحن روح القدس أبرد سرها لإدريس فاسترقى بها مرتقى لعل

ولا بد عندهم لمن 'حكم العمل بهذا القانون أن يخرج له الجواب عن سؤاله منظومًا مفهوميًا، وقد يكون مستغلًا على الفهم لقصور المسكة في العمل بذلك القانون.

وقد وقع إلينا الكثير من يستخرج أجوبة المسائل منها، فبعضهم يستخرج أكثر من بيت وبيتين وثلاثة وأربعة. ونقل لنا أن بالمشرق من يستخرج منها الجواب منظومًا في كل بحر وعلى كل روي. والله أعلم. ونحن الآن ننقل الزايرة كما هي مكتوبة من أصل يغلب على الظن صحته. ولسنا من عهدة الصحة في شيء، إذ لم تصح لنا الرواية فيها عن أحد من المشيخة، ولكننا نحرينا الصحيح منها بحسب الجهد¹². وإذا فرغنا من نقلها فنذكر كيفية العمل بها على ما تأدى إلينا من لقيناه من القائمين عليها

كيفية العمل في استخراج أجوبة المسائل من زايرة العالم بحول الله

السؤال له ثلاثمائة وستون جوابًا، عدة الدرج. وتختلف الأجوبة عن سؤال واحد في طالع مخصوص باختلاف الأسئلة المضافة إلى حروف الأوتار وتناسب العمل من استخراج الأحرف من بيت القصيدة.

(2) لا يوجد في مخطوطة [ب] رسم من زايرة

تنبيه

تركيب حروف الأوتار والجدول على ثلاثة أصول : حروف عربية تنقل على هيئاتها، وحرروف برشم الغبار. هذه حروف تتبدل، فمنها ما ينقل على هيئته متى لم تزد الأدوار عن أربعة، فإن زادت عن أربعة، نقلت إلى المرتبة الثانية من مرتبة العشرات. وكذلك لمرتبة المئين على حسب العمل، كما نبينه. ومنها حروف برشم الزمام كذلك غير أن رشم الزمام يعطي نسبة ثانية فهي بمنزلة واحد ألف، وبمنزلة عشرة ولها نسبة من خمسة بالعربي. فاستحق البيت من الجدول أن يوضع فيه ثلاثة حروف في هذا الرشم، وحررفين في الرشم []^١ فاختصروا من اجدول بيوتاً حالية فمتى كانت أصول الأدوار زائدة على أربعة حسبت في العدد في طول الجدول وإن لم تزد عن أربعة لم يحسب إلا العامر منها

والعمل في السؤال يقتصر إلى سبعة أصول. عدة حروف الأوتار، وحفظ أدوارها بعد طرحها اثني عشر - وهي ثمانية أدوار في الكامل، وستة في الناقص أبداً -، ومعرفة درج الطالع، وسلطان البرج والدور الأكبر الأصلي - وهو واحد أبداً -، وما يخرج من إضافة الطالع للدور الأصلي، وما يخرج من صرب الطالع والدور في سلطان البرج، وإضافة سلطان البرج للطالع.

والعمل جميعه ينتج على ثلاثة أدوار مضرورة في أربعة، تكون اثنا عشر دوراً ونسبة هذه الثلاثة أدوار التي هي كل دور من أربعة إنشاءات ثلاثة، كل نشأة لها ابتداء ثم إنها تضرب أدواراً رباعية في ثلاثة تكون دورات أيضاً ثلاثية ثم إنها من ضرب ستة في اثنين، فكان لها نشأة ابتداءين، يظهر ذلك في العمل.

وتتبع هذه الأدوار الإثنا عشر نتائج، وهي نهاية الأدوار، إما أن تكون نتيجة أو أكثر إلى ستة.

٣ نص في المحفوظة

فأول ذلك نفرض سؤالاً عن الزايرجة . 'هل هي علم محدث أو قديم؟'
بطالع أول درج من القوس فوضعنا حروف وتر رأس القوس . ونظيره من
رأس الخوزاء ، وثالثه وتر رأس الدلو إلى حد المركز . وأضعنا إليه حروف
السؤال .

ونظرنا عدتها ، وأقل ما تكون ثمانية وثمانين ، وأكثر ما تكون ستة
وتسعين . وهو جملة دور صحيح . فكانت في سؤالي ثلاثة وتسعين
ويختصر السؤال إن زاد عن ستة وتسعين ، ثم تسقط جميع أدواره الإثنا
عشرية ، ويحفظ ما خرج منها وما بقي فكانت في سؤالي سبعة أدوار .
الباقية تسعة أثبتتها في الحروف ما لم يبلغ الطالع اثنا عشر درج . فإن بلغها
لم تثبت لها عدة ولا دور . ثم تثبت أعدادها أيضاً إن زاد الطالع عن أربعة
وعشرين في الوجه الثالث

ثم يثبت الطالع ، وهو واحد ، وسلطان الطالع ، وهو أربعة ، والدور
الأكبر ، وهو واحد . وجمع ما بين الطالع والدور ، وهو اثنان في هذا
السؤال ، واضرب ما خرج منها في سلطان البرج ، يبلغ ثمانية . وأصف
السلطان للطالع ، يكون خمسة فهذه سبعة أصول .

فما خرج من صرب الطالع والدور الأكبر في سلطان القوس مما لم يبلغ
اثنا عشر فيه ، يدخل في ضلع ثمانية من أسفل الجدول صاعداً . وإن زاد
على اثنا عشر ، طرح أدواراً . وتدحل بالباقي في ضلع ثمانية ، ونعلم
على منتهى العدد . والخمسة المستخرجة من السلطان والطالع يكون
المدحل في ضلع السطح المبسوط الأعلى من الجدول . وتعد متواليات
خمس أدواراً وتحفظها إلى أن يقف العدد في مقابلة البيوت العمارة
بالعدد من الجدول . وإن وقف في مقابلة الخافي من بيوت الجدول على
أحدهما فلا تعتبر ، وتستمر على أدورك على حرف من أربعة ، وهو ألف
أوباء أو جيم أو زاي فوق العدد في عملنا على حرف ألف وحلف ثلاثة
أدوار فضربت ثلاثة في ثلاثة ، كانت تسعة فهو عدد الدور الأول

فأثبتته، واطمع ما بين الصلغير القائم والمبسوط يكن في بيت ثمانية في مقابلة البيوت العامرة بالعدد من الجدول

وادخل بعدد ما في الدور الأول، وذلك تسعة في صدر الجدول مما يلي البيت الذي اجتماع فيه ماؤًا إلى جهة اليسار، وهو ثمانية. فوقع على حرف لام ألف، ولا يحرج أبداً منها حرف مركب، وإنما هو إذن حرف ثاء، أربعمائة برشم الزمام، تعلم عليها بعد نقلها من بيت القصيدة

واجمع عدد الدور للسلطان، يبلغ ثلاثة عشر، ادخل بها في حرف الأوتار وأثبت ما وقع عليه العدد، وعلم عليه من بيت القصيدة

ومن هذا القانون تدري كم تدور الحروف في النظم الطبيعي وذلك أن تجمع حرف الدور الأول، وهو تسعة، لسلطان البرج، وهو أربعة، يبلغ ثلاثة عشر أصفها لمثلها، تكن ستة وعشرين أسقط منه درج الطالع، وذلك واحد في هذا السؤال الباقي خمسة وعشرون فعلى ذلك يكون نظم الحرف الأول ثم ثلاثة وعشرون مرتين، ثم اثنان وعشرون مرتين على حسب هذا الطرح، إلى أن تنتهي إلى الواحد من آخر البيت المنظوم. ولا تقف على أربعة وعشرين لطرح ذلك الواحد أولاً

ثم ضع الدور الثاني، وصف حروف الدور الأول إلى ثمانية الخارجة من ضرب الطالع والدور في السلطان، يكن سبعة عشر، الباقي خمسة. واصعد في ضلع ثمانية بخمسة من حيث انتهيت في الدور الأول، وعلم عليه وادخل في صدر الجدول بسبعة عشر، ثم بخمسة، ولا تعد الخالي والدور عشري فوجدنا حرف ثاء، حمسمائة وإنما هونون، لأن دورنا في مرتبة العشرات فكانت الخمسمائة بخمسين، لأن دورها سبعة عشر.

ولو تكن سبعة وعشرين لكان مئينيًا. فأثبت نون

ثم ادخل بخمسة أيضًا من أوله، وانظر ما حاذى ذلك من السطح تحد واحدًا فقهقر العدد واحدًا، يقع على خمسة أضف لها واحد السطح يكون ستة. أثبت واو، وعلم عليها من بيت القصيد أربعة، وضمها

للثمانية الخارجة من ضرب الطالع مع الدور في السلطان، يبلغ اثنا عشر. أضف لهما الباقي من الدور الثاني، وهو خمسة، يبلغ سبعة عشر وهو ما للدور الثاني. فدخلنا بسبعة عشر في حروف الأوتار، فوق العدد على واحد. أثبت ألف وعلم عليها من بيت القصيد وأسقط من حروف الأوتار ثلاثة حروف، عدة الخارجة من الدور الثاني.

وضع الدور الثالث، وأضف خمسة إلى ثمانية يكن ثلاثة عشر. الباقي واحد انقل الدور في ضلع ثمانية بواحد، وادخل في بيت القصيد بثلاثة عشر. وخذ ما وقع عليه العدد، وهو ق. وعلم عليه، وادخل بثلاثة عشر في حروف الأوتار، وأثبت ما خرج، وهو س. وعلم عليه من بيت القصيد ثم ادخل مما يلي السين الخارجة بالباقي من دور ثلاثة عشر، وذلك واحد. فخذ ما يلي حرف سين من الأوتار فكان ب. أثبتنا وعلم عليها من بيت القصيد. وهذا يقال له "الدور المعطوف" وميزانه صحيح وهو أن تضعف ثلاثة عشر بمثلها إليها وتضيف إليها الواحد الباقي من الدور يبلغ سبعة وعشرين وهو حرف باء المستخرج من الأوتار من بيت القصيد. وادخل في صدر الجدول بثلاثة عشر، وانظر ما قابله من السطح، وأضعفه بمثله، وزد عليه الواحد الباقي من ثلاثة عشر. فكان حرف جيم فكانت الحملة سبعة. فذلك حرف زاي فأثبتناه، وعلمنا عليه من بيت القصيد. وميزانه أن تضعف سبعة بمثلها، وزد عليها الواحد الباقي من ثلاثة عشر، يكون خمسة عشر. وهو الخامس عشر من بيت القصيد. وهذا آخر أدوار الثلاثيات.

وضع الدور الرابع، وله من العدد تسعة، بإضافة الباقي من الدور السابق. فاضرب الطالع من الدور في السلطان وهذا الدور آخر العمل في البيت الأول من الرباعيات فاضرب على حرفين من الأوتار، واصعد بتسعة في ضلع ثمانية، وادخل بتسعة من دور الحرف الذي أخذته آخرًا من بيت القصيد. فالتاسع حرف راء فأثبتناه وعلم عليه وادخل في صدر

الجدول بتسعة، وانظر ما قابلها من السطح يكون جيم. فقهقر العدد واحداً، يكون ألف. وهو الثاني من حرف الراء من بيت القصيد فأثبتته وعلم عليه. وعدم مما يلي الثاني تسعة يكون ألف أيضاً. أثبتته وعدم عليه واضرب على حرف من الأوتار. وأضعف تسعة بمثلها، تبغ ثمانية عشر وادخل بها في حروف الأوتار، تقف على حرف راء أثبتتها وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعة وادخل بثمانية عشر في حروف الأوتار تقف على س. أثبتتها وعلم عليها اثنين وأضعف اثنين إلى تسعة يكن أحد عشر. وادخل في صدر الجدول بأحد عشر، فقابلها من السطح ألف. أثبتتها وعلم عليها ستة

وضع الدور الخامس، وعدته سبعة عشر، الباقي خمسة اصعد بخمسة في ضلع ثمانية واضرب على حرفين من الأوتار وأضعف خمسة بمثلها وأضعفها إلى سبعة عشر، عدد دورها الحملة سبعة وعشرون ادخل بها في حروف الأوتار فتقع على ت. أثبتتها وعلم عليها اثنين وثلاثين واطرح من سبعة عشر اثنين التي هي أس اثنين وثلاثين الباقي خمسة عشر ادخل بها في حروف الأوتار تقف على قاف أثبتتها وعلم عليها ستة وعشرين وادخل في صدر جدول بستة وعشرين، تقف على اثنين بالغبار وذلك حرف باء. أثبتته، وعلم عليه أربعة وخمسين

واضرب على حرفين من الأوتار، وضع الدور السادس وعدته ثلاث عشر الباقي منه واحد. فتبين إذذاك أن دور النظم من خمسة وعشرين فإن الأدوار خمسة، وتسعون، وسبعة عشر، وخمسة، وثلاثة عشر، وواحد. فاضرب خمسة في خمسة يكن خمسة وعشرين. وهو الدور في نظم البيت. فانقل الدور في ضلع ثمانية بواحد ولكن لم يدخلوا في بيت القصيد ثلاثة عشر كما قدمناه، لأنه دور ثاني من تشاة تركيبية ثانية بل أضفنا الأربعة التي من أربعة وخمسين الخارجة على حرف باء من بيت القصيد إلى الواحد، يكون خمسة. فضع خمسة إلى ثلاثة عشر التي

للدور تبغ ثمانية عشر ادخل في صدر الجدول بها، وحد ما قبدها من السطح، وهو ألف. أثبتته وعلم عليه من بيت القصيد اثنا عشر واضرب على حرفين من الأوتار.

ومن هذا الحد تنظر أحرف السؤال فما خرج منها رده مع بيت القصيد من آخره وعلم عليه من حرف السؤال ليكون داحلاً في العدد في بيت القصيد وكذلك تفعل بكل حرف خرج بعد ذلك مناسباً لحروف السؤال فما خرج منها رده إلى بيت القصيد

ثم أصف إلى ثمانية عشر ما عمدته على حرف الألف من الأحاد فكان اثنين تبغ الجملة عشرين ادخل بها في حروف الأوتار تقف على حرف راء. أثبتته وعلم عليه من بيت القصيد ستة وتسعين وهو نهاية الدور في الحرف لوتري

فاضرب على حرفين من الأوتار، وضع الدور السابع، وهو ابتداء المخترع ثاني ينتشي من الاختراعي وبهذا الدور من العدد تسعة تضاف لها واحد بكل عشرة للنشأة الثانية.

وهذا الواحد تزيده بعد إلى اثنا عشر دوراً إذا كان من هذه النسبة أو تنقصه من الأصل تبغ الجملة عشرة فاصعد في صلح ثمانية وتسعين، وادخل في صدر الجدول بعشرة، تقف على خمسمائة وإعما هي خمسون، نون، مصاعفة بمشها، وتلك ق فأثبتها وعلم عليها من بيت القصيد اثنين وخمسين، وأسقط من اثنين وخمسين اثنين، وأسقط تسعة التي للدور الباقي أحد وأربعون فدحل بها في حروف الأوتار، تقف على واحد، أثبتته وكذلك ادخل بها في بيت القصيد تحد واحداً فهذا ميزاد هذه النشأة الثانية

تعلم عليه من بيت القصيد علامتين، علامة في الألف الأخير الميزي، وأخرى على الألف الأولى فقط واثنتان أربعة وعشرون وصر على حرفين من الأوتار، وضع لدور الثاني وعدده سبعة عشر الباقي خمسة

ادخل في ضلع ثمانية وخمسين، وادخل في بيت القصيد بخمسة تقع على ع، سبعين، أثبتتها وعلم عليها. وادخل في الجدول بخمسة، وخذ ما قابلها من السطح، وذلك واحد. أثبتته وعلم عليه من البيت ثمانية وأربعين. وأسقط واحداً من ثمانية وأربعين للأس الثاني. وأضف لها خمسة الدور. الجملة اثنان وخمسون. ادخل بها في صدر الجدول، تقف على حرف اثنين غبارية. وهي مرتبة مثنوية لتزايد العدد، فتكون مائتين، وهي حرف راء. أثبتتها وعلم عليها من بيت القصيد أربعة وعشرين. فانسقل الأمر من ستة وسبعين إلى الابتداء، وهو أربعة وعشرون. فصف إلى أربعة وعشرين خمسة الدور، وأسقط واحداً تكون اجملة ثمانية وعشرين. ادخل بالنصف منها في بيت القصيد، تقف على ثمانية. أثبت ح وعلم عليها.

وضع الدور التاسع، وعدده ثلاثة عشر. الباقي واحد. اصعد في ضلع ثمانية بواحد. وليست نسبة العمل هنا كتسبتها في الدور السادس، لتضاعف العدد، ولأنه من النشأة الثانية، ولأنه أول الثلث الثالث من مربعات البروج وآخر النسبة الرابعة من المثلثات.

فاضرب ثلاثة عشر التي للدور في أربعة التي هي مثلثات البروج السابقة. الجملة اثنان وخمسون. ادخل بها في صدر الجدول، تقف على حرف اثنين غبارية. وإنما هي مثنوية لتجاوزها في العدد عن مرتبتي الأحاد والعشرات. فأثبتته مائتين، راء، وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين. وأضف إلى ثلاثة عشر الدور واحد الأس، وادخل بأربعة عشر في بيت القصيد تبلغ ح. فعلم عليها ثمانية وعشرين. واطرح من أربعة عشر سبعة الباقي سبعة.

اضرب على حرفين من الأوتار، وادخل بسبعة تقف على حرف لام. أثبتته وعلم عليه من البيت.

وضع الدور العاشر، وعدده تسعة. وهذا ابتداء المثلثة الرابعة واصعد في ضلع ثمانية بتسعة يكون خلاء. فاصعد بتسعة ثانية تصير في

السابع من الابتداء. اضرب تسعة في أربعة لصعودنا بتسعتين، وإنما كانت تضرب في اثنين. ادخل في الجدول ستة وثلاثين، تقف على أربعة زمامية. وهي عشرية، فأخذناها أحادية لقلّة الأدوار. فأثبت حرف دال. وإن أضفت إلى ستة وثلاثين واحدًا الأس كان حدها من بيت القصيد. فعلم عليها. ولو دخلت بتسعة، لا غير، من غير ضرب في صدر الجدول، لوقف على ثمانية. فاطرح من ثمانية وأربعين، الباقي أربعة. وهو المقصود. ولو دخلت في صدر الجدول بثمانية عشر التي هي تسعة في اثنين، لوقف على واحد زمامي، وهو عشري. فاطرح منه اثنين تكرر التسعة، الباقي ثمانية، نصفها المطلوب. ولو تدخل في صدر الجدول بسبعة وعشرين ضربها في ثلاثة لوقف على عشرة زمامية، والعمل واحد.

ثم ادخل بتسعة في بيت القصيد، وأثبت ما خرج، وهو ألف. ثم اضرب تسعة في ثلاثة التي هي مركب تسعة الماضية، وأسقط واحدًا، وادخل في صدر الجدول ستة وعشرين، وأثبت ما خرج، وهو مائتان بحرف راء. وعلم عليه من بيت القصيد ستة وتسعين.

واضرب على حرفين من الأوتار، وضع الدور الحادي عشر، وله سبعة عشر، الباقي خمسة. اصعد في ضلع ثمانية بخمسة ونحسب ما تكرر عليه المشي في الدور الأول. وادخل في صدر الجدول بأربعة تقف على خاء. فخذ ما قابله من السطح، وهو واحد. فادخل بواحد في بيت القصيد تكون س. أثبتته وعلم عليه أربعة. ولو يكون الوقوف في الجدول على بيت عامر لأثبتنا الواحد ثلاثة. وأضعف سبعة عشر بمثلها، وأسقط واحدًا، وزدها أربعة تبلغ سبعة وثلاثين. ادخل بها في الأوتار تقف على ه. أثبتتها وعلم عليها خمسة، وأضعفها بمثلها، وادخل في البيت تقف على ل. أثبتتها وعلم عليها عشرين.

واضرب على حرفين من الأوتار، وضع الدور الثاني عشر أوله ثلاثة عشر، الباقي واحد. اصعد في ضلع ثمانية بواحد. وهذا الدور آخر الأدوار وآخر الاختراعين وآخر المربعات الثلاثية وآخر المثلثات الرباعية

فيالواحد في صدر الجدول يقع على ثمانين زمامية. وإنما هي آحاد ثمانية، وليس معنا في الأدوار إلا واحد. فلو زاد على أربعة من مربعات اثني عشر أو ثلاثة من مثلثات اثني عشر لكانت ح. وإنما هي دال. فأثبتها وعلم عليها من بيت القصيد أربعة وسبعين. ثم انظر ما ناسبها من السطح يكن خمسة. أضعفها بمثلها للأس تبلغ عشرة. أثبت ي وعلم عليها، وانظر في أي المراتب وقعت. وجدناها في السابعة فدخلنا بسبعة في حروف الأوتار. وهذا المدخل يسمى 'التوليد الحرفي'. فكانت ف. أثبتنا وضمف إلى سبعة واحد الدور. الجملة ثمانية. ادخل بها في الأوتار تبلغ س. أثبتنا وعلم عليها ثمانية، واضرب ثمانية في ثلاثة الزائدة على عشرة الدور. فإنها آخر مربعات الأدوار بالمثلثات تبلغ أربعة وعشرون. ادخل بها في بيت القصيد وعلم على ما يخرج منها وهو مائتان. وعلامتها ستة وتسعون. وهو نهاية الدور الثاني في الأدوار الحرفية.

واضرب على حرفين من الأوتار، وضع النتيجة الأولى لها تسعة وهذا العدد يناسب أبدًا الباقي من حروف الأوتار بعد طرحها أودارًا. وذلك تسعة

فاضرب تسعة في ثلاثة التي هي زائدة على تسعين من حروف الأوتار، وضمف لها واحداً الباقي من الدور الثاني عشر يبلغ ثمانية وعشرين. فادخل بها في حروف الأوتار تبلغ ألف. أثبت ي وعلم عليه ستة وتسعين. وإن ضربت تسعة التي هي أدوار الحروف التسعينية في أربعة، وهي الثلاثة الزائدة على تسعين، والواحد الباقي من الدور الثاني عشر كذلك.

واصعد في ضلع ثمانية بتسعة، وادخل في الجدول بتسعة تبلغ اثنين زمامية. واضرب تسعة في ما ناسب من السطح، وذلك ثلاثة. وأضف لذلك سبعة، عدد الأدوار الحرفية، واطرح واحد الباقي من دور اثني عشر يبلغ ثلاثة وثلاثين. ادخل بها في البيت تبلغ خمسة. فأضعفها

وأضعف تسعة بمثلها، وادخل في صدر الجدول بثمانية عشر وخذ ما في السطوح، وهو واحد. ادخل به في حروف الأوتار تبلغ م. أثبتته وعلم عليه.

واضرب على حرفين من الأوتار، وضع النتيجة الثانية ولها سبعة عشر. الباقي خمسة. فاصعد في ضلع ثمانية وخمسين، واضرب خمسة في ثلاثة الزائدة على تسعين تبلغ خمسة عشر. أضف لها واحد الباقي من الدور الثاني عشر تكن تسعة. وادخل بستة عشر في البيت تبلغ تاء. أثبتته وعلم عليه أربعة وستين. وضم إلى خمسة الثلاثة الزائدة على تسعين، وزد واحد الباقي من الدور الثاني عشر، يكن تسعة وثلاثين، دخل بها في صدر الجدول تبلغ ثلاثين زمامية. وانظر ما في السطح تجد واحدًا أثبتته وعلم عليه من بيت القصيد، وهو التاسع أيضًا من البيت. وادخل بتسعة في صدر الجدول تقف على ثلاثة، وهو عشرات. فأثبت لام. وعلم عليه. وضع النتيجة الثالثة، وعددها ثلاثة عشر. الباقي واحد فانقل في ضلع ثمانية بواحد، وضم إلى ثلاثة عشر الثلاثة الزائدة على تسعين وواحد الباقي من الدور الثاني عشر، تبلغ سبعة عشر وواحد لنتيجة تكن ثمانية عشر. ادخل بها في حروف الأوتار تكن لام. أثبتتها فهذا آخر العمل.

المثال في هذا السؤال السابق أردنا أن نعلم هل هذه الزيرجة علم محدث أم قديم، بطالع أول درج من القوس، أثبت حروف الأوتار، أي الحروف المكتوبة بإزاء كل برج على وتره. ثم حروف السؤال، ثم الأصول وهي: ل عدة الحروف ثلاثة وتسعون، أدوارها سبعة، الباقي منها تسعة، الطالع واحد، سلطان القوس أربعة، الدور الأكبر واحد، درج الطالع مع الدور اثنان، ضرب الطالع مع الدور في السلطان ثمانية، إضافة السلطان للطالع خمسة.

بيت القصيد

سؤال عظيم الخلق حزت فصن إذا غرائب شك ضبطه الجدد مثلاً

حروف الأوتار

ص ط د ظ ه ز ث ك ه م ض ص و ن ث ه ش ا ب ل م ن
ص ع ف ض ق ر س ي ك ل م ن ص ع ف ق ر س ن ث خ ذ
ظ غ ش ط ك ن ع ح ص ز و ح ل ص ك م ن ص ا ب ج د ه و ز ح ط ي

السؤال

الذي رجعت علم مح د ث ام قدي م

٢٤٨

الدور الأول	تسعة	
الدور الثاني	سبعة عشر	الباقى خمسة
الدور الثالث	ثلاثة عشر	الباقى واحد
الدور الرابع	تسعة	
الدور الخامس	سبعة عشر	الباقى خمسة
الدور السادس	ثلاثة عشر	الباقى واحد
الدور السابع	تسعة	
الدور الثامن	سبعة عشر	الباقى خمسة
الدور التاسع	ثلاثة عشر	الباقى واحد
الدور العاشر	تسعة	

كيفية العمل في الزايرة

الدور الحادي عشر	سبعة عشر	الباقى خمسة
الدور الثاني عشر	ثلاثة عشر	الباقى واحد
النتيجة الأولى	تسعة	
النتيجة الثانية	سبعة عشر	الباقى خمسة
النتيجة الثالثة	ثلاثة عشر	الباقى واحد

س	561255
و	876
ا	
ل	
ع	
ظ	
ي	
م	
ا	
خ	
ل	
ق	
ح	
ز	
ت	
ف	

18	ص
19	ن
20	ا
21	ذ
22	ن
23	غ
24	ر
25	ا
26	ي
27	ب
28	س
29	ك
30	ض
31	ب
32	ط
33	هـ
34	ا
35	ل
36	ج
37	د
38	م
39	ث
40	ل
41	ا

ت و ن ا ق م ر ب ز ر ا ر م ا ت ق ب ا ر ق ا ع ا ر م ح ر ج ل د ا ر س ه ل د ي ف س ر ا ه م ت ا ل ل

تروحن روح القدس أبرز سرها لإدريس فاسترقى مرتقى العلا
إلى لغرب تشية عزيمة جده ليدرك مجدا امنه قد تسهلا
إذ السابغ الأصلي تقدم بينه يلسي رتبة عنها فصح له لولا
يقدمها اماما ثم يسري ابانها على حكم ضوء قصده قد تكملا

دورها على خمسة وعشرين ، ثم على ثلاثة وعشرين مرتين ، ثم على
أحد وعشرين مرتين إلى أن ينتهي الواحد من آخر البيت ، وتنقل الحروف
جميعها . والله أعلم .

ت ر و ح ن ر و ح ا ل ق د س ا ب ر ز س ر ه ا ل ا د ر ي س ف ا س ت ر ق ا ب ه ا م ر ت ق ا ا ل ع ل ا

وهي من الأعمال الغريبة في استخراج الأجوبة . فبعض الخواص مولعون
بها ، متهاكون في إحكام العمل بقانونها ، يمتقدون استخراج الغيوب
بذلك لقانون وعمله . وهم في ذلك على خطأ كما نبينه . وآخرون مذيعون
لإنكارها . يزعمون أن العمل بقانونها غير صحيح في نفسه وأنه من الخيل ،
ظناً منهم أن صاحب ذلك العمل يعد البيت منظوماً ويخبر به جواباً عن
السؤال ، فيظير به الاستغراب كل مطار ، وليس ذلك أيضاً بصحيح فاما أنه
قانون يستخرج به الجواب عن السؤال فأمر بين يظهر من صورة لعمل إذا
شاهدت من أحكم ملكته قد فرغ لعمله واستخرج به مطلوبه . وأما أنه يفيد
معرفة الغيب الذي استأثر الله بعلمه ، فلا .

وجهه أن العالم كله بما فيه من كلي وجزئي علواً وسفلاً وأفلأً وعناصر
وذوئاً ومعالي وألقاظاً وحروفاً وأسماءً وأفعالاً متناسبة كلها على مقادير

مقدرة ومرتبطة بعضها ببعض ارتباطاً غير منفصل، ومن ذلك السؤال والحوار في ألفاظهما وحرفيهما ومعانيهما وهذا التناسب في عالم الملك الذي هو المحسوسات وما إليها وأما عالم المكنوت فنسبته بعيدة عن عالم الملك من كل الوحوه والعلم المحيط حاصر لذلك كله، والعلم البشري إما حسن مدركه في عالم الملك إدراكاً غير محيط ولا بالغاً إلى النهاية وقد يكون لبعضهم مدد إلهي من عالم المكنوت ونفحة ربانية، ينهض بها إدراكه عن لم تحصل له تلك النفحة، لكن في حسن مدركاتة البشرية لا فيما خرج عن نطاقها ولقد غلط في ذلك بعض غلاة المتصوفة وزعم أنه يدرك في حسن مدركاتة ما لا يتناهى من حزناتها إفراطاً حمدهم عليه التغفل والغلط وإذا ثبت لك بهذا الذي قررناه اتساع نطاق العلم البشري في بعض دونه بعض في حسن مدركاتهم بالمدد الرباني الحاصل بعد كشف حجاب الحسن، فلا يبعد أن يحصل لبعض من انكشف له الحجاب وصح القانون في استخراج حوار من السؤال بعد أن يكون قد اطلع على التناسب بين الأمور التي يستخرج ذلك بها وعلى ربط بعضها ببعض مما اتسع به من نطاق علمه البشري ولقد كان ينبغي به أن لا يذيعه لما يجب من صون الأسرار الربانية إذ أطلع الله عليها من أطلعه من خلقه. ومع هذا كله فلا يفيد هذا معرفة لغيب، وليس التناسب المذكور بالذي يفيدنا معرفة ما استأثر الله به من غيبه، لأن الوقائع كلها حاصلة في العلم القديم، وهو محيط بها والتناسب بين العلم لرباني الذي من عالم المكنوت وبين عالم الملك بعيد كما قدمناه فكيف يندرج تحت هذا القانون الذي مبناه على التناسب بين الكائنات في عالم الملك؟ فالقوانين الصناعية لا توصل إلى معرفة الغيب بوجه ويشهد لك بذلك في هذه الزبحة أن كثيراً من أجوبتها لا يصدق مقتضاه في الوجود والله يعلم وأنتم لا تعلمون

المقدمة السابعة

في انتقال العمران من جانب من المعمور إلى جانب

علمنا نأخذ لعمران لهذا العهد كنهه تنتقل من جهة الجنوب إلى جهة الشمال فإن اليمن كان لعهد لتسعة وما قبلها مقراً للدول العظيمة للعرب من عاد وثمود وحِمْيَر والتَّيَّابَةِ. وكذا جزيرة العرب كلها كان عمران بها موفوراً أيضاً بقوم عاد وغيرهم وكذا نشأ لعهد بني إسرائيل كان في غاية العمران بالأمم والقبائل مثل مَدْيَن وبني لُوط والعَمَالِيقَة والروم وِيسْطِينِيَّة وكُنْعَان. وكذا إقليم مصر بالقُفْط ومن إليهم من نساء يُنْصَر من حام. وكان لمغرب موفور لعمران بلبرس من بني ماريح بن كنعان مابين بلاد سُودَان والبحر لرومي في عرصه متصلاً من لُسُوس إلى الإسكندرية في طوله وكانت الدول العظيمة في هذه لأقصر مثل التسعة وبني إسرائيل والقبط والفرس و لروم. وكان الشمال دون ذلك في عمرانته ودولته وممالكه من الترك والفرجة والصفالة.

ونجد الأمر لبوم بالعكس فهذه بغداد، دار الإسلام وكرسي الخلافة بالعراق قد حُرِبَتْ، وكانت تشمل على نحو خمسين مدينة متصلاً بعضها ببعض صارت بدءاً واحداً مثل بغداد ودار السلام والرافقة وسير من رأى وأمثلة. وكان عمران صاحبيتها لا يقدر عمران وكذا الكوفة والبصرة من

مدن لعراق في الملة الإسلامية. وانقروان، قاعدة إفريقية وحاصرتها، وكانت تشمل أيضًا على نحو خمس وعشرين مدينة تصل بعضها بعض، مثل رَقادة والمنصورة والقيروان والقصر لقديم وغيرها. وكانت بإفريقية من المدن والحواضر كثير مثل المسيلة وناهرت وطبنة وبغاية وتيجست والنفعة وسيطيف وغيرها وكذا مدن رقة وحو ضرها من برقة وزوينة ولبدة وغيرها وكذا مدن المغرب الأوسط وأمصره من شيلف وميتيجة وحمزة وناهرت ومرسى الدجاج والحصراء ورزفة وقصر عجيسة ومثلها.

وسائر عمران الحوي كله من اليمن والحجاز والشام ومصر والمغرب وعراق العرب قد تقوّص وحرب وخصوصًا المغرب، فلم يبق من عمرانه إلا الأقل، سيما مع البحر، لا يكاد عرضه يجاوز مرحلتين. والدول موكية في هذه لمالك كلها قد تنقصت عما كانت عليه من القوة والاستطالة تنقص شيئًا من جهة تناقص العمران فيها. ويسفنا عن بلاد الشمال أن عمرها موفور ودولها مستمحلة في أم من الإفرنجية والترك. ففعل العمارة تنقل من الحوب إلى الشمال فإن هذا الخلاء لدي وقع بجهة الجنوب وأقطره أمر له ما بعده والسبب في ذلك إما من جهة لأموار الأرضية ولعمران المشهد، فليس إلا استئلاء العرب وتعلمهم، وهو مؤذن بالخراب لما يتغلون عليه، ومن جهة الأمور السماوية، فإن للمحمدين في ذلك كلام ليس هذا موضع سطره والله قادر على ما يشاء.

الفصل الثاني

في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل
وما يعرض في ذلك من الأحوال
وفيه أصول وتجهيزات⁽¹⁾

صاعد في [1] بصفتها الكتاب تحملان عنوان الفصل الثاني والفصل الأول منه "تدائن نو دما
بصر لمعواي وعصر الفصل الأول من الفصل الثاني استناداً إلى [ب]

[1]"

اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف حاجتهم من المعاش فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه وبسيط قبل الحاحي والكمالي.

فمنهم من ينتحل الفلح من الغراسة والزراعة، ومنهم من ينتحل عبيد عبي الحيوان من الشاء والبقر والإبل والنحل والدود لتتاجها واستخراج فصلاتها. وهؤلاء القاتمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة، ولا يسألون إلى لبدو، لأنه يتسع لما لا يتسع له الخواضر من المزارع والحدن والمسارح للحيوان وغير ذلك. فكان اختصاص هؤلاء ألبدو أمراً ضرورياً لهم، وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجات معاشهم وعمرانهم من نفوت ولكن والدفع إلى هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك.

ثم إذا اتسعت أحوال هؤلاء المتحليين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجة من الغنى ولرفه، دعاهم ذلك إلى السكون والندعة، وتعاونوا في النزاد على

١، سقط هذا الفصل في [1] وسقط المصنف في [ب]

انصروفة، واستكثرو من لأفوت والملاس و نُنق فيها، وتوسعة السوت، واحتفظ لمدن والأمصار لتحصن ولأعتصم. ثم تزايد أحول لرفه و لبرعد، فتحيء عوائد تُعرف بُاعة مألعه في التأنق في علاج الفوت واستحادة لمطامح. وانتفاء للملاس الفاحرة في أنوعه، من الحرير والديباج وغير ذلك، ومعداة سوت ونصروح وإحكام وضعها في سحبده، ولانتهاء بالنصانع في حرواح من القوة إلى جعل إلى عنتها فيتحدون انقصور وانبار ويحرون فيها البده. ويعلون في صروحها ويبالغون في تحبدها، ويحتفون في ستحادة متحدونه لمهمهم من نوس أو فراش أو دنية و موعوب وهؤلاء هم حصر ومعه خاضرون، أهل الأمصار و لبلدان، فمن هؤلاء من يسجل في معاشه الصنيع، ومنهم من يسجل التجارة وتكون مكاسبهم كدبهم [١] ، لأن أحولهم رتبة على انصروزي. ومعشهم على سبة و حدهم

فقد نسي أن أحول سدو والخصر ضيعية، لاند منها. ولله أعلم.

[2] في أن حيل العرب في الحليقة طبيعي¹

فقد قدما في الفصل أنه أهل البدو هم المتحنون للمعاش الطبيعي من
الفتح والقيم على الأعم، وأنهم مقتصرون على الضروري في لأقوات
والملاسل والمنسكس وسائر لأحور ولعوثا، ومقتصرون عما فوق ذلك من
حاحي أو كمالي فيتخذون لبوت من الشعر أو نوبر أو لشحر أو من نظير
غير مسحدة، إما هو قصص، لاستطلاع ولكن، لا ما وره وقد يأنوون إلى
العيان والكهوف. وأما أقوتهم فيناونونها بيسير العلاج وبغير علاج التة،
إلا مَسْنَةُ السر

فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفتح، كان المقدم به أولى من
الطعن وهؤلاء سكك مسائر ولقرى والجمال، وهم عامة لبربر والأعاحم،
ومن كان معاشه في لسائمة مثل القرو لغنم، وهم ظواغن في لأعلب لارتبد
المسارح وانيه لحيوانهم، إذ لتقرب في لأرض صبح بها ويسمور شايوة،
ومعذه القاثمور على الشاء² والقرو. ولا يعدون في الفقر لفقدان المسارح
به وهؤلاء مثل البربر، وانترك، والصقلية.

1 يعود إلى [] كآصل سقط عور هذا الفصل في [ب]

2 الشاء [ب]

أما من كاد معاشهم في الإبل، فهم أكثر ظعناً وأبعد في نقفر محالاً، لأن
 مسارج التلوي وساتها وشجرها لا تستغني به الإبل في قوام حياتها عن مرعى
 لشجر في القفر، وورود مياهه المنحة، والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فراراً
 من أدى لرد إلى دفء هوائه وطلتاً لمحص الترح في رماله، إذ الإبل أصعب
 خيول فصلاً ومحاضاً وأحوجها في ذلك إلى الدفء، فاصطروا إلى إبعاد
 لنجعة، ورعا ذتهم الحامية عن التلوي أيضاً، فأوعلوا في القمار مرة عن
 لصمة منهم ولجزاء بعداوتهم فكانوا لدلت أشد انس توحشا، وتنزلوا
 من الأدميين منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوانات العجم،
 وهؤلاء هم العرب. وفي معابهم ظواعن ببربر ورنانة بالمعرب، والأكراد
 بالمشرق إلا أن العرب أبعد نجعة وأشد مداوة، لأنهم مختصون بالقيام على
 الإبل فقط، وهؤلاء يقومون عليها وعلى الشاء ولتقر معها
 فقد تبين لك أن حيل العرب طبيعي لاند منه في العمران.
 والله الخلاق، لعليم.

[3] في أن البدو أقدم من الحصر وسابق عليه، وأن البادية أصل العمران والأمصاّر ومدد لها

قد ذكرنا أن البدو هم المعتصرون على الصروري في أحوالهم، لعذر من عمن فوقه، وأن الحصر، مُعْتَصِرُونَ ساجدت ترف وكمال في أحوالهم وعونهم. ولا شك أن صروري أقدم من ححي ولكماني وسبق عليه وكان الصروري أصل، والكماني فرع شيء عنه ولندو أصل لندمدن والحصر سبق عديها لأن نور مطاب لإسار صروري، ولا ينبغي أن نعرف والكماني إلا إذا كان الصروري حاصلًا فحشونة لندوه قبل رفة الحصرة. ولهذا نجد التمدن عدي لندوي، يحرق إنيها ويهني بسعيه إلى مقترحه منها ومتى حصل على الرياش الذي تحصل به أحوال الترف وعوانده، عذب إلى الدعة، وتمكن نفسه من قيد الدعة وهكذا شأن أهل لفش المتدنية كنهم والحصري لا يتشوف إلى أحوال البادية إلا لندوره ندعه إنيها أو لتقصير عن أحوال أهل مدينته

ومما يشهد لنا أن لندو أصل للحصر ومقدم عليه أن إدا فتش أهل مصر من الأمصاّر وجدنا أولية أكثرهم من أهل لندو الذين صاحبة ذلك مصر وفي قراه، وأنهم أيسروا فسكوا المصاّر وعدلوا إلى الدعة والترف الذي في الحصر وذلك يدل على أن أحوال حصره تالية عن أحوال لندوه، وأن أصل لها، فتمهمه

نُصص لذي، 3

ثم يد كل واحد من لبدو واحصر متفاوت الأحوال من حسه قرب حي
عظم من حي، وقبيلة أعظم من قبيلة، ومصر أوسع من مصر، ومدسة أكثر
عمراً من مدينة

وقد تن أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصير وُصل بها،
كما أن وجود المدن والأمصير من عوائد اتريف والدعة، الذي هو متأخر عن
عوائد الضرورة المعيشة

[4] في أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر

وسببه أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول جميع ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر. قال صلى الله عليه وسلم: كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه". وبقدر ما يسبق إليها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر، ويصعب عليها اكتسابه. فصاحب الخير إذا سقت إلى نفسه عوائد الخير وحصلت لها ملكته عُذَّ عن الشر، وصعب عليه طريقه. وكذا صاحب الشر، إذا سبقت إليه أيضًا عوائده.

وأهل الحضر لكثرة ما يعنونه من أحوال المعاملات وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلَوَّتْ أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر، ويُعدت عليهم طُرُقُ الخير ومسالكة بقدر ما حصل لهم من ذلك، حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم. فنجد الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كُرَّائهم وأهل محارمهم، لا يصدُّهم عنه وازع الحشمة، لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالقواحيش قولاً وعملاً.

وأهل البدو، وإن كانوا مُقْبِلِينَ عَلَى الدُّنْيَا مِثْلَهُمْ، إِلَّا أَنَّهُ فِي الْمَقْدَارِ الصَّرُورِيِّ، لَا فِي الثَّرَفِ وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْ أَسْبَابِ الشَّهَوَاتِ وَاللَّدَاتِ

ودو عليها. فعوا، تدهم في معاملاتهم على سسنتها، وما يحصل فيهم من مذهب
السوء ومدمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحصر أقل بكثير فهم أقرب إلى
الفطرة الأولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة العوائد
المدومة وقبحها، فيسهل علاجهم عن علاج الحصر. وهو طاهر. وقد بوضح
فيما بعد أن الحضارة هي نهية لعمران وخروجه إلى الفساد، ونهاية الشر
والبعد عن الخير.

فقد تبين أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة وأنه يحب
المتقين

ولا يُعْتَرَضُ على ذلك ما ورد في حديث البخاري من قول الحجاج لسُئمة
بن الأَكْوَع، وقد بلغه أنه حرج إلى سكي البادية، فقال له: 'رئدت عني
عقبك، تعرّيت'. فقال: لا، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أدن لي
في البدو. فإن الهجرة كانت أولاً هي الإسلام والأخذ بعاداه وحكاه،
والتعرب هو البقاء على مذاهب الأعراق في جهليتهم. ولذلك بهى الله
نعالى رسوله عن التنقل في الأرض لغير حاجة، فقال: 'ولا تمش في أرض
مرحاً. فاحتص المسلمون من العرب بسكنى المدينة من أهل الهجرة إلى
الإسلام وأهله، وبقي من عداهم من أهل الكفر على الداوة وحلق لتعرب،
وصارت الهجرة علامة على الإسلام، والتعرب علامة على الردة، والكفر في
بدي الرأي. وكان من يعدل إلى التعرب والداوة يتوهم فيه لردة والاحراف
عن الهجرة، ولهذا أكر عليه صاحبه، التعرب، لا لمجرد الداوة، بل لما يتوهم
فيها حينئذ من الردة. وأما إذا ثبتت الهجرة ورسخ الإسلام في القلوب، فلا
فرق بين سكي البادية والحادثة، ولو كانت لبادية مسكرة كما فهمه خجاج
ما أدن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم لسمة كما قاله، فدل على أن ذلك
إما كان أيام الهجرة إلى المدينة والإسلام، ويقطع باستيلاء ذلك حين قال
صلى الله عليه وسلم يوم لفتح: لا هجرة ولكن جهاد ونية'. ورجع البدو
إلى ما كان عليه قبل الهجرة، كما قلناه.

[5] في أن أهل البدو أقرب إلى البسالة من أهل الحضر

ولسب في ذلك أن أهل الحضر نُفِّقُوا حنوبهم على مهاد اراحة والدعة، واعمسو في السعي و لترف، و وكنوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأفسهم إلى واليهم واحكم لدي بسوسهم والحامية لتي تولت حرستهم، واستموا بنى الأسوار، لتي تحوطهم والحر الذي يحول دويهم، لا يُهَيِّجُهُم هيعة، ولا يُنْفِرُ لَهُم صيدٌ فهم عدرون امنون، قد نُفِّقُوا السلاح، وربيت على ذلك منهم أحيان، وتنزّو منزلة النساء والودان الذين هم عيال على أبي مثوهم، حتى صار ذلك حُفًّا لهم ينزّل مرلة نطبيعة

وأهل البدو لنقردهم عن لمحنم ونو حشهم في اصواحي وبعدهم عن الحامية واستادهم عن الأسور والأواب فثمون مدفعة عن أنفسهم، لا يَكُونُهَا إِنِّي سواهم ولا تنفون فيها بغيرهم فهم دائم يحملون السلاح، ويتلفتون عن كل جانب في الطرق، ويتحذون عن الهجوع بلا عاراً في المنجالس وعلى الرجال وفوق الأفتاب، يتوَحَّشُونَ لِسُنَّتِ والهيعات، وينفردون في لقعر واليدء ملابئ بسهم، و ثقيين بأنفسهم، قد صار لهم الناس حُفًّا و لشجاعة سجية يرحعون إليها متى دعوهم دعو أو ستمزهم صرح وأهل الحضر مهما حاطوهم في المدينة أو صاحوهم في السفر عبال

عليهم، لا يمكن أن يكون معهم شيء من أمر أنفسهم^١. وذلك مُشَاهِد بالعين، حتى في معرفة النوح حي و جهات وموارد لماء ومشاريع لسبل. وسبب ذلك ما شرحناه وأضناه أن لإنسان ابن عوائده ومألوفه، لا ابن طبيعته ومزاجه. فالذي ألقاه من الأحوال حتى صدر له خُلُقٌ وَمَنْكَةٌ وعادة وديدنًا تنزل^٢ منزلة لطبيعة والحيلة واعتبر ذلك نجد منه كثير في الأدميين والله يخلق ما يشاء^٣.

١ من أنفسهم [ب]

٢ ينزل [ب]

٣ يريد [ب] والله أرحم الراحمين

[6] في أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم،
ذاهبة بالمنفعة منهم

وذلك أنه ليس كل أحد مالكا أمر نفسه، إذ الرؤساء والأمراء المالكون لأمر الناس قبيل بالنسبة إلى غيرهم. فمن الغالب أن يكون الإنسان في ملكة غيره، ولابد. فإن كانت الملكة رفيقة لا يُعاني منها حكم ولا منع وصد، كان من تحت يدها مدلين بما في أنفسهم من شجاعة أو جبن، واثقين بعدم الوازع، حتى صار لهم الإدلال جلة لا يعرفون سواها. وأما إذا كانت الملكة وأحكامها راقهر والسطو، فتكسر حينئذ من سورة بأسهم وتذهب منعها عن نفسها لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة، كما نبينه.

وقد بهى عمر سعدا رصي الله عليهما عن مثلها لما أخذ زهرة بن حوية سلب الجاثوس وكانت قيمته خمسة وسعين ألفا من الذهب، فانتزعه منه سعد وقال: "ألا انتظرت في اتعاه إذني". وكتب إلى عمر يستأذنه. فكتب إليه عمر: "تعمد إلى مثل زهرة، وقد صلي بما صلي به وبقي عليك ما بقي من حربك، فتكسر قرنه وتفسد قلبه". وأمضى له عمر سلبه.

وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب، فمذهبية لبأس بالكلية لأن وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يكسبه المدلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك. وأما إذا كانت الأحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصغر، أثرت في ذلك بعض الشيء لرباه على المخافة والانقياد. فلا يكون مدلا ساسه.

ولهذا نجد لتوحشيين من العرب، أهل البدو، أشد أسئ من تأخذه الأحكام ويجد أيضاً الذين يعاون الأحكام وممتلكها من لدن مردهم في التأديب والتعقيم في الصنائع ونعوم^١ والديارات يقصر ذلك من بأسهم كثيراً ولا يكادون يدافعون عن أنفسهم عادية بوجه من لوحه وهذا شأن طلبة العلم المنتحين للقراءة والأخذ عن لأشياح^٢ والأئمة، المدرسين للتعليم والتأديب في محالس لوقار والهيبة. فتفهم هذه الأحوال ودهنها بالمنعة والناس.

ولا تستكرن ذلك مما وقع في الصحة من أحدهم بأحكام لدين والشرعية، وقد كانوا أشد الناس بأساً، لأن الشرع صوات لله عليه، لما أخذ المسمون عنه دينهم كان وارعه فيه من أنفسهم لما تلا عنهم من الترعيب والترهيب فتم نزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت، ولم تحدثها طعير التأديب وإحكام قال عمر رضي الله عنه: 'من لم يؤدبه لشرع لا أدبه الله' حرصاً على أن يكون الوازع لكل أحد من نفسه. ولما تنقص الدس في الناس وأخذوا بالأحكام الوازعة، ورجعو إلى الحصرة وحقق لانقياد إلى الحكم^٣، فصبت بذلك سورة الناس فيهم

فقد تبين أن الأحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للناس، لأن الوزع فيها أجنبي وأم الشرعة، فعير مفسدة، لأن لوازع فيها ذاتي. وهذا كانت هذه الأحكام السلطانية والتعليمية مما يؤثر في أهل الخواصر في ضعف نفوسهم وخضد الشوكة منهم بمعانتها في وليدهم وكهولهم والبدو بمعزل عن هذه المنزلة، لبعدهم عن أحكام السلطان والتعليم والأدب. ولله يهدي من يشاء

(١) ويجد الدين [ب]

(٢) في الصنائع والتعليم [ب]

(٣) لشيوع [ب]

(٤) لحكام [ب]

[7] في أن سكنى البدو لا يكون إلا للقبائل أهل العصبية^١

اعلم أن له سبحانه ركب في طماع لشرب الخمر و شر . كما قال تعالى
وهديده الحديدين وقال تعالى فأنهمها فجورها و تقواها
ولشر أقرب الخلال إليه إذ أهمل في مرعى عوئده ولم يهده الاقتداء
بالدين . وعلى ذلك خم العنبر إلا من وقفه لله ومن أخلاق لشرب فيهم
الظلم و لعدوان بعض على بعض ، فمن امتدح عليه إلى متع أخيه امتدت
يده إلى أخيه ، إلا أن يصده و رع . كما قال المثنوي

والظلم من شيم الفوس فإن تجد ذا عمة فبعثة لا تطم

فأما بدو و لأمصرا ، وعدوان بعضهم على بعض يدفعه خكام و لدولة
قبصوا على أيدي من تحبهم من تكفه أن يمتد بعضهم إلى بعض أو وعدو
عليه فهم مكبو حون بحكمة لمهر و سبط عن النظام ، إلا إذا كان من
الحاكم نفسه و أما لعدوان لذي من حارح امدنة ، يدفعه سباح لأسور

^١ في أن سكنى البدو أقل طمعا من حصر [١]

عد الغفمة أو لغرة ليلاً أو العحز عن المقاومة نهائياً، ويدفعه دباد الحامية من أعوان الدولة عد الاستعداد والمقاومة

وأما أحياء الدو، فيزَع بعضهم عن بعض مشيخهم وكراؤهم ى وقر في صوس الكافة لهم من الوقار والتجّة وأما حلهم في يدود عنها من خارج حامية حي من أنجادهم وفتياهم المعروفين البسالة فيهم ولا يصدق دوعهم وديادهم إلا إذا كانوا عصية وأهل نسب واحد، لأبهم بذلك تشتد شوكتهم ويحسنى حاشهم، دثغرة كل أحد على سبه وعصبيته أهم. وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والشعرة على ذوي أرحامهم وقرباهم موجود في الصاع البشرية، وبها يكون التعاضد والتناصر، وعظم رهبة العدو لهم. واعتبر ذلك فيما حكاه القرآن عن إخوة يوسف حين قالوا لأبيه: "لئن أكله الدثب وحن عصاة إنا إداً لخاسرون" والمعنى أنه لا يتوهم العدو على أحد مع وجود الغفصة له.

وأما المتفردون في أنسابهم، فقل أن تصيب أحد، منهم بكرة على صاحبه. فإذا أظلم الحو بالشر، تسأل كل أحد منهم يسغي النحاة بنفسه خيفة واستبحاش من التبادل فلا يقتدرون من أجل ذلك على سكى القفر لما أنهم حينئذ طعمة لمن يتنهمهم من الأمم سواهم. وإذا تبين ذلك في السكى التي تحتح إلى المدفعة والحماية، فبمثله يتبين لك في كل أمر يحمل الناس عليه من نوة أو إقامة ملك أو دعوة، إذ بلوغ العرض من ذلك كله إما يتم بالقتال من العصية، كما ذكرناه نقاً. فاتخذة إماماً تقتدى به فيما نورهه عليك من بعد. والله الموفق

[8] في أن العصبية إنما تكون من الالتحام
بالنسب أو ما في معناه

وذلك أن صلة لرحم طبيعي في الشجر. إلا في أقل ومن صنتها الثعرة على دوى لقري وأهل الأرحام أن يتألفهم صميم أو تصيبهم هلكة فإن التقريب يحد في نفسه عصاة من صمم قريته أو العداء عليه. ويؤذلو يحول به ويبين ما يصله من المعاص والمهت. نزعة طبيعية هي الشجر مند كنوا. فإذا كان النسب نوصلين المتباشرين قرياً حدثت حيث حصص به لالتحام والاتحاد. كانت نوصلة طاهرة. فاستدعت ذلك تمجدها ووصوحها. وقد بعد النسب بعض الشيء. فرى تُنوسني بعضه. وتبقى منه شهرة. فتحمي على النصرة لدوي بسبه بالأمر لمشهور منه فراراً من لغصاة التي يتوهمها في نفسه من طمه من هو منسوب إليه بوجه.

ومن هذا الباب الولاء والحنف. بدعره كل أحد على أهل ولائه وحنفه للألفة التي تحقق النفس من اهتمام حابها أو قريبها أو سبيها بوجه من وجوه النسب. وذلك لأجل اللحمة الخاصة من لولاء مثل خمة لنسب أو قرياً منها. ومن هذا تفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم: تعموا من أسابكم ما يصون به أرحامكم' بمعنى أن لنسب إى فائدته هـ لالتحام الذي يوجب صلة الأرحام. حتى يقع لمصرة والنصرة. وما فوق ذلك

مستغنى عنه، يد السب أمر وهمي لا حقيقة له. ونعمه إنما هو في هذه الوصلة والالتحام. فإذا كان طاهرًا واضحًا حمل النفوس على طبيعتها من النعمة، كما قبضه. وإذا كان إنما يستعد من خير العبد، صُعِفَ فيه الوهم ودهت وئدته، وصدر الشغل به محانًا ومن أعمال اللهو المنهى عنه عند الحكماء.

وهذا معنى قولهم: النسب عَم لا يجمع، وجهالة لا تضرر بمعنى أن النسب إذا حرح عن الوضوح وصدر من قبيل العلوم دهت وئدته لوهم فيه عن النفس، وانتفت المعرة التي تحمل عليها نعصية، فلا منعقة فيه حينئذ

[9] في أن الصريح من النسب إنما يوجد
للمتوحشين في القفر من العرب ومن في معناهم

وذلك ما تنصونه من نكد لعيش وشطف لأحوال وسوء لموطن،
حملتهم عليها لصورة النبي عيت لهم تلك القسمة، وهي ما كان معاشهم
من لقياد على الإبل وتحتها ورعايتها، ولإبل ندعوهم إلى سموحش في القفر
سرعيها من شجره ونساجها في رملها، كما تقدم ونقفر مكار الشطف
والنسب، فصار لهم بقاء وعادة، وريب فيها أحببهم حتى شككت حنق
وحدة فلا يبرع بينهم أحد أن يساهمهم في حنهم، ولا نأسهم أحد من
الأحبال بل لو وحد واحد منهم سبيلى لفرز من حاله ومكة ذلك ما
تركه فبوم عيهم لأجل ذلك من حلاط أنسبهم وفسادهم، ولا تزال بينهم
محفوفة صريحة، وغتر هذ في مضمر من فريش، وكبد، ونيف، وسي
أسد، وفذيل، ومن حورهم من خراعة، ما كثر أهل شطف ومواضع
دات درع ولا صرح، وبعدها من رباب الشام ونعراق ومعدن لأدم
وحيوب، كيف كانت أنسبهم صريحة محفوفة لم يدحجها حلاط ولا
عُرف فيها شوب

،، أحد من أسم أو يساهمهم [ب]

وَمَنْ الْعَرَبُ الَّذِينَ كَانُوا فِي التَّلُولِ فِي مَعَادِنِ الْخَصْبِ لِلْمَرَاعِي وَلِعَيْشٍ
 مِنْ حِمِيرٍ وَكَهْلَانٍ، مِثْلَ لَحْمٍ وَجَذَامٍ وَغَسَّانٍ وَصَيٍّ وَقُضَاعَةٍ وَإِيَادٍ، فَخْتَنِطَتْ
 أَنْسَابُهُمْ وَتَدَاخَلَتْ شُعُوبُهُمْ، فَفِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ بِيُوتِهِمْ مِنَ الْخِلَافِ عِنْدَ النَّاسِ
 مَا تَعْرِفُ. وَلَا تُجِدُ أَحَدًا مِنْهُمْ يَخْلُو عَنْ اخْتِلَافٍ وَالْجَهْلِ بِأَصْلِ نَسَبِهِ. وَإِنَّمَا
 جَاءَهُمْ ذَلِكَ مِنْ قَبْلِ الْعَجْمِ وَمَخَالَطَتِهِمْ. وَهُمْ لَا يَعْتَبِرُونَ الْمَحْفَظَةَ عَلَى
 لِنَسَبٍ فِي بِيُوتِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ، وَإِنَّمَا هَذَا لِلْعَرَبِ فَقَطْ. قَالَ عُمَرُ: تَعْبَمُوا
 لِنَسَبٍ، وَلَا تَكُونُوا كَنَبْطِ السَّوَادِ إِذَا سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ أَصْلِهِ قَالَ: 'مِنْ قَرْيَةٍ
 كَذَا'. هَذَا إِلَى مَا لَحِقَ هَؤُلَاءِ الْعَرَبِ، أَهْلُ الْأُرْيَافِ، مِنَ الْإِزْدِجَامِ مَعَ النَّاسِ
 عَلَى لِسَانِ الطَّبِيبِ وَالْمَرَاعِي الْخَصْبَةِ، فَكُتِبَ الْإِخْتِلَاطُ وَتَدَاخَلَتْ الْأَنْسَابُ. وَقَدْ
 كَانَ وَقَعَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ الْإِنْتِمَاءُ إِلَى الْمَوَاطِنِ، فَيُقَالُ: 'جُنْدٌ قَسْرَنٌ'،
 حَمْدُ دِمَشْقٍ، 'جُنْدُ الْعَوَاصِمِ'. وَانْتَقَلَ ذَلِكَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ. وَلَمْ يَكُنْ لِأَطْرَحِ
 الْعَرَبِ أَمْرُ النَسَبِ. وَإِنَّمَا كَانَ لِإِخْتِصَاصِهِمْ بِالْمَوَاطِنِ بَعْدَ الْفَتْحِ، حَتَّى عُرِفُوا
 بِهَا وَصَارَتْ لَهُمْ عَلَامَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى النَسَبِ يَتَمَيَّزُونَ بِهَا عِنْدَ أُمَرَائِهِمْ ثُمَّ وَقَعَ
 الْإِخْتِلَاطُ مَعَ الْعَجْمِ وَعَبَرَهُمْ وَفَسَدَتْ الْأَنْسَابُ بِالْجُمْلَةِ وَفُقِدَتْ نُمُوتُهَا مِنَ
 الْعَصْبَةِ، فَأُطْرَحَتْ. ثُمَّ تَلَاسَتْ الْقِبَالُ وَدَثُرَتْ فَدَثُرَتْ الْعَصْبَةُ بِدَثُورِهَا
 وَلِلَّهِ وَارِثُ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا.

[10] في اختلاط الأنساب كيف يقع

إنه من ليس أن بعضاً من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب آخر تنزوع إليهم أو حلف أو ولاء، أو لقرار من قومه بجناية أصابها. فيُدعى بنسب هؤلاء ويُعدُّ منهم هي ثمراته من النعمة والقود وحمل الديات وسائر الأحوال. وإذا وُجدت ثمرات النسب، فكانه وُجد. لأنه لا معنى لكونه من هؤلاء أو من هؤلاء إلا حريان أحكامهم وأحوالهم عليه، وكأنه التحم بهم ثم به قد يُتناسى النسب الأول بطول الزمان ويذهب أهل العلم به، فيحصى على الأكثر. فما زالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب، ويلتحم قوم بآخرين في الجاهلية والإسلام، والعرب والعجم. وانظر خلاف الناس في نسب آل المنذر وغيرهم تتبين شيئاً من ذلك.

ومنه شأن بجيلة في عرفة بن هرة لما ولّاه عمر عليهم فسألوه الإعفاء منه وقلوا: "هو فينا تزيف"، وطلبوا أن يُؤلّي عليهم جريراً. فسأله عمر عن ذلك، فقل عرفة: "صدقوا يا أمير المؤمنين. أنا رجل من الأزد، أصبت دم في قومي ولحقت بهم". وانظر منه كيف اختلط عرفة ببجيلة ولبس جلدتهم

وَدُعِيَ بِنَسَبِهِمْ حَتَّى تَرشَحَ لِلرَّئَاسَةِ عَلَيْهِمْ لَوْلَا عِلْمُ بَعْضِهِمْ بِوَشَائِعِهِ، وَلَوْ
غَفَلُوا عَنْ ذَلِكَ وَامْتَدَّ الزَّمَانُ لَتَنُوسِيَ بِالْجُمْلَةِ، وَعُدَّ مِنْهُمْ بِكُلِّ وَجْهٍ وَمَذْهَبٍ.
فَأَفْهَمَ، وَاعْتَبَرُ سَنَةً⁽¹⁾ "اللَّهُ فِي خَلْقَتِهِ. وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ لِهَذَا الْعَهْدِ وَلِمَا قَبْلَهُ
مِنَ الْعُهودِ"⁽²⁾.

(1) سر [ب]

(2) تزيد [ب] : والله تعالى أعلم بالصواب.

[11] في أن الرئاسة على أهل العصبية

لا تكون في غير نسبهم

وذلك أن الرئاسة إنما بالغلب. والغلب إنما يكون بالعصبية، كما قدمناه. فلا بد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة لعصبيةهم، واحدة، لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلبة عصبية الرئيس لهم أفرزوا الإدعاء والاتباع. والساقط في نسبهم بالجملة لا تكون له عصبية بالنسب، إلى هو ملصق نزيف. وغاية التعصب له بالولاء والخلف، وذلك لا يوجب له علم عليهم البتة. وإن فرضنا أنه قد التحم بهم واختلط ونوسي عهده لأور من الالتصاق وليس جلدتهم ودُعي بنسبهم، فكيف له الرئاسة قبل هذا الالتحام أو لأحد من سلفه، والرئاسة على القوم إنما تكون متناقضة في منبت واحد، يُعَيَّن له الغلب بالعصبية؟ فالأولية التي كانت لهذا الملصق قد عُرف فيها التصاقه من غير شك، ومنعه ذلك الالتصاق من الرئاسة حينئذ. فكيف تُثَوِّلَتْ عنه وهو على حال الالتصاق، والرئاسة لا بد وأن تكون موروثة عن مستحقها، لما قلناه من التغلب بالعصبية؟

وقد يتشوف كثير من الرؤساء على القائل والعصائب إلى أنساب يلدحون بها، إما لخصوصية فضيلة في أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم أو ذكر كيف اتفق، فينزعون إلى ذلك النسب ويتورطون بالدعوى في

شعوبه ولا يعمدون ما يقعون فيه أنفسهم من القسح في رئاستهم واضعن في شرفهم

وهذا كثير ندرس في هذا العهد ، من ذلك ما ندعيه راية حمية أنهم من العرب ومنه دعاء أولاد زب ، المعروفين باجترارين من بني عامر أنهم من بني سئمه ، من الشريد منهم لحق حدهم بني عامر بخار يصنع حرجل ، واحفظ لهم والحمد بسهم حتى رأس عبيهم ، ويسمونه ، ابحاري

ومن ذلك دعاء بني عبد القوي بن لعاس ، من توجس ، أنهم من ولد لعاس بن عبد المصط ، شهوة في هذا نسب شريف وعلف باسمه لعاس بن عصية أبي عبد القوي ولم نعلم دجوت أحد من لعاسيين إلى العرب ، لأن كان منذ أول دولتهم على دعوة عبويين أعدائهم من الأدرسة والعبديين ، فكيف يسقط عباسي إلى أحد من شعبة علويين ؟

وكذلك ما يدعيه أبناء زب ، من أن بني عبد لو د ، أنهم من ولد لقاسم بن إدريس ، دهن إلى ما شتهر في بسهم أنهم من ولد القاسم فيقولون بسهم لزباني ، انت قاسم ، أي ، هو لقاسم ثم يدعون أن القاسم هذا هو لقاسم بن إدريس ، أو لقاسم بن محمد بن إدريس ولو كان ذلك صحيحاً فعناية القاسم هذا أنه فر من مكس سطره مستحيراً بهم فكيف تتم له الرئاسة عبيهم في رديتهم ؟ وفي هو عبط من قبل رسم قاسم ، فيه كثير لوجود في لأدراسة فتوهمو أن قسهم من ذلك نسب ، وهم غير محتاجين لذلك فإن منالهم لملك والعزة إلى كان بعصيتهم ، وم يكن بدعاء عدوية ولا عبسية ولا شيء من لأسب

وإما يحمل عبي هذا المُتَقَرَّبُونَ إلى الملوك ممنارعهم ومداهمهم ويشتهر
حتى يتعد عن لرد. فلقد دعى عن يعمراس من ريان، مُؤَثِّل سلطاهم، أنه
لم قبل له ذلك بكرة وقل نعتة الزبانية ما معناه أما الدنيا والمثلث، فبده
سُيُوهما لا بهذا السب. وأد نفعه في الآخرة، فمردود إلى اله' وعرض عن
المتقرب إليه بذلك

ومن هذا الباب ما يدعيه أبو سعد، شيوع بني يزيد من رعية، أنهم من
ولد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وبو سلامة شيوع بني يذليلت، من
توحي، أنهم من سليم، والدواودة، شيوع زبيح، أنهم من عفت لرامكة.
وأمثل ذلك ورثاستهم في قومهم ماعة من ادعاء هذه الأساب، كما
ذكرناه، وتعين أن يكونوا من صريح ذلك السب وأقوى عصبياته فاعتبره،
واحتنب المعلطه فيه

ولا يحمل من هذا الباب إلخاق مهدي الموحدين بسب العنوية، فإن
المهدي لم يكن من مست الرئاسة في هُرُغَة، قومه، وإما رأس عليهم بعد
اشتهاره بالعلم والدين ودحور قبائل المصامدة في دعوته وكان مع ذلك من
أهل المات المتوسطة فيهم
والله عالم لعب والشهادة

[12] في أن الرياسة لا تزال في نصابها

المخصوص من أهل العصبية

عم أن كل حي أو بطن من القبائل، وإن كانوا عصاة واحدة لنسبهم العام، وفيهم يُضَدَّ عصبية أخرى لأسباب خاصة، هي أشد لتحامًا من النسب العام لهم، مثل عشير واحد، وأهل بيت واحد، أو إحوه بني أب واحد، لا مثل بني لعم الأقربين أو لأبعدين. وهؤلاء من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل لنسب العام إلا أنها في النسب حاصر أشد، لقرب المحمة والرياسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكل ولما كانت الرياسة بما تكون بالغيب، وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصبية ليقع الغيب بها، وتتم الرياسة لأهلها، فإذا وجب ذلك، نعين أن الرئاسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص أهل العلب عليهم، إذ لو خرجت عنهم وصارت في لعصاة الأخرى، لدارت عن عصبية في العلب لما تمت لهم الرياسة فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منه إلى فرع، ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه لما قبلناه من سر العلب. لأن الاجتماع والعصبية بمشبة المزاج لمتكون، والمزاج في المتكون لا يصلح إذا تكافأت العناصر، فلا بد من علية أحده، وإلا لم يتم التكوين. فهذا هو سر اشتراط العلب في العصبية ومما نعين استمرار الرئاسة في النصاب المخصوص بها، كما قررناه

[13] في أن البيت والشرف بالأصالة والحقيقة

لأهل العصبية، ويكون لغيرهم بالمجار ولشبه

وحدث أن الشرف والحسب إنما هو بالخلال ومعنى بيت أن يعدّ لرحل
في أمائه أشرافاً مذكورين تكون له بولادتهم إياه ولا تنساب إليه نجلة في أهل
خلدته، وقر في قوسهم من نجلة سلفه وشرفهم بحالهم
واساس في نشوئهم وتسلهم معادن قال صلى الله عليه وسلم . الدس
معادن، خيرهم في اخيهية خيرهم في لإسلام، إذا فقهو . فمعنى الحسب
راجع إلى الأسب

وقد بينا أن ثمرة لأسب وفائدتها إنما هي لعصبية لشجرة والتماصر
فحيث تكون العصبية مرهونة ومحشية والمست فيها ركي محمي، تكون فائده
السب أوضح، وثمرتها أقوى. وتعيد الأشراف من لاء رائد في فائدتها،
فيكون حسب والشرف أصبلاً في أهل العصبية لوجود ثمرة السب
وتتفاوت البيوت في هذا لشرف تتفاوت العصبية، لأنه سرها

ولا يكون لمتفردين من أهل الأمصار بيت إلا المنحز ويد بوهموه
فزحرف من لدعوي وإذا اعتبرت الحسب في الأمصار، وجدت معه أن
الرجل منهم يعدّ سلفاً في خلال الحز ومخالطة أهله مع لركون إلى العافية
ما استطاع وهذا معابر لسر العصبية التي هي ثمرة لسب وتعدد الأباء

نكته نطق عليه حسب المنحدر علاقة ما فيه من تعدد الآراء المتعاقبين على
طريقه و حده من خير ومساكنه، وليس حسب الحقيقة وعلى الإطلاق
وقد يكون لمن شرف أول العصبية والخلال، ثم يستحوط منه ندها
حصة، كما تقدم، فيحتطون بالعمارة، ويبنى في مؤسسهم وسو من دت
حسب بعده، به انفسهم من شرف لسووت ولسوا منها في شئ، ندها
لعصبية حمته وكثير من أهل لأمصدر لستين في بيوت العرب وبعده
لأول عهدهم مؤسوسو دت

وكثير من رشح نوسه اس في دت لسي إسرائيل فيه كد لهم بيت من
عصم بنوت لعنه حسب الأول لما بعدد في سنهم من الأنبياء وارسل من
دس إبراهيم عليه السلام إلى موسى صاحب منهم وشريعتهم ثم بالعصبية
ثبنا و ما أتاهم له به من الملك لدي وعدهم به ثم اسلحوهم عن ذلك أجمع،
وضربت عليهم أدله، وكنت عنهم اخلاء في الأرض، وامرو بالاستعداد
والكفر لأف من السنين ومن هذا سوس اس مصاحنا لهم فتحدثهم
بقولهم هذا هروبي، هذا من سل يوشع، هذا من عقب كالب، هذا من
سبط يهود، مع دهاب لعصبية ورسوخ ادب فيهم من أحققت متظاوله
وكثير من هن لأمصدر عبرهم منقطع في أسديهم عن العصبية يذهب إلى
هد الهديان

وقد عطف أبو الوليد اس رشد في هد لما ذكر حسب في كتاب الخطبة
من نهجيص كتاب المنعم لأول، فقد وحسب هو ن يكون من قوم قدس
نزلهم بلديته ونه يعرض ما ذكره وايت شعري، ما الذي سمعه قدم
نزلهم بمدينة إن لم تكن بهم عصبية يرهت به حانه وتحمل عبرهم على
لقبول منه فكأنه أطلق حسب، مع أن خطبة إلهي استمالة من تؤثر

١٢ [ب] وله نعم

١٣ [ب] وله نعم

ستماتته، وهم أهل الحق والعقد. وأما من لا قدرة له الله، فلا يلتفت إليه، ولا يقدر على ستمانة أحد، ولا يستمال هو وأهل، لأمصا من الحصر بهذه المثابة، لأن ابن رشد ربي في حيل وبلد لم يمارسوا العصبية ولا يسو أخوانها، ففقي في أمر سبت وحسب على الأمر لمشهور من تعديد الأراء على الإطلاق، ولم يراجع فيه حقيقة لعصبية وسرها في الحقيقة. والله بكل شيء عليم

[14] في أن البيت والشرف للموالي وأهل الاصطناع إنما هو بمواليهم لا بأنسابهم

وذلك أنا قدم الآن أن الشرف بالأصالة والحقيقة إلى هو لأهل العصبية. فإذا اصطنع أهل لعصبية قومًا من غير نسبهم أو سترقوا العدى والموالي والتحمو بهم، كما قد نه، صرب معهم أولئك لموي ومصطنعون بسبهم في تلك العصبية، ولبسوا حلدتها كنها عصبيتهم، وحصل لهم من لانتظام في العصبية مساهمة في نسبها، كما قل صلى الله عليه وسلم مولى القوم منهم، وسواء كان مولى رق أو مولى اصطناع وحف' وليس سب ولادته نفعا له في تلك العصبية، إدهي مباينة لذلك النسب وعصية ذلك النسب مفقودة، لذهاب سرها عند التحامه بهد السب الآخر وفقدانه أهل عصبيتها. فيصير من هؤلاء، ويدرج فيهم. فإذا تعددت له آباء في هذه العصبية، كان له بينهم شرف وبيت على سبته في ولائهم واصطناعهم لا يتجوره إلى شرفهم، بل يكون أدون منهم على كل حال وهذا شأن الموالى في الدول والخدمة كلهم فيهم إلى يشرفون بالرسوخ في ولاء الدولة وخدمتها وتعدد الآباء في ولائها ألا ترى إلى موالى ترك في دولة بني لعماس وإلى بني برمك من قبهم وبني نونخت، كيف ذكركو اليب والشرف، وبنوا المحمد والأصالة بالرسوخ في ولاء الدولة^٩ فكان جعفر بن

يحيى بن خالد من أعظم الدس بيث وشرقا بالانتساب إلى ولاء لرشد وقومه،
لا بالانتساب في الفرس وكذا موالي كل دولة وخدمتها بما يكون لهم بيت
وحسب الرسخ في ولائها، والأصالة في اصطاعها وصمحل بسه
الأقدم، إذ كان من غير نسبها، ويبقى معنى لا عثرة به في أصلته ومجده
وأي المعسر بسنة ولائها، واصطاعه، إذ فيه سر لعصية التي بها لبيت
والشرف فكان شرفه مشتق من شرف مواليه، وبيته من نائلهم فلم ينفعه
نسب الولادة، وأي بني مجده بسب الولاء في الدولة وخمة لأصمغ فيها
ولتربة وقد يكون بسه الأول في لمة عصبية ودولة، فإذا ذهبت وصار
ولاؤه واصطاعه في أخرى لم ينفعه لأول بدهاب عصبته، و ينفع ناشي
لوجودها.

وهذا حال بني برمك، إذ المنقوب أنهم كانوا أهل بيت في الفرس من سندن
بيوت النار عندهم ولما صاروا إلى ولاء بني العباس لم يكن لأول اعتبار
وأي كان شرفهم من حيث ولائهم في الدولة و اصطاعهم
وم سوى هذا فوهة توشوس به سموس اخامحه، ولا حقيقة له
و لوجود شهد بما فيه وكرمكم عند الله ثقكم

[15] في أن نهاية الحسب في العقب الواحد أربعة آباء

اعلم أن عالم العصري عما فيه كثر فاسد، لا من دوائه، ولا من أحواله
فمكومات من المنعد والست وجميع الحيونات، الإنسان وعمره، كثره
فاسدة بالعبث، وكذلك ما يعرض له من لأحوال، وخصوصاً للإنسانية.
والعموم تنشأ ثم تدرس، وكذلك الصنائع ومثلها، والحسب من لعوارض
التي تعرض للأدمى فهو كثر فاسد، لا محالة، وليس يوجد لأحد من أهل
الحقيقة شرف متصل في الله من نبي آدم إليه، إلا ما كان من ذلك للنبي صلى
الله عليه وسلم كرامة به وحيطة على لشرفه

وإن كل شرف خارجية، كما قيل وهي خروج عن الرئاسة والشرف
في الصفة والانداد وعدم الحسب ومعناه أن كل شرف وحسب فعنده
سبق عنه، شأن كل محدث.

ثم إن نهايته في أربعة أبناء من عقبه وذلك أن في المجد عالم عما عده في
سأله ومحفوظ على إحلال لشيء هي أسنان كونه وفائه، والله من بعده مباشر
لأبيه، قد سمع منه ذلك وأخذه عنه، إلا أنه مقتصر في ذلك تقصير السمع
بالشيء عن المعين ثم بداء ثالث، كان حصه الافتداء والتقيد خاصة،
فمقتصر عن لشيء تقصير مقيد عن المحتهد.

ثم إذا جاء الرابع ، قصّر عن طريقتهم جملة ، وأصاع ، حلال الحافظة لنباء
محدثهم واحتقرها ، وتوهم أن ذلك لسبب لم يكن بمعدة ولا تكف وبما هو
أمر وحب لهم مند أور الشاة بمحرد انتسابهم وبس عصبة ولا حلال
فيون نفسه عن أهل العصية ، ويرى لفصل عنهم وثوق م ربي فيه عن
سنتهم وجهلاً بما أوجب ذلك ، لاستتباع من الحلال التي منها التواضع لهم
ولأخذ مما معهم قلوبهم ، فيحقتهم لذلك ، فيقصّون عليه ويحتقروه ،
وبدبلون منه سواء من أهل ذلك المنس ومن فروعه في عبر ذلك لعقب
للإدعاء لعصيتهم كما قلده ، بعد الوثوق م برصونه من حاله فتتمو فروع
هد وتدوى فروع الأول ، ويهدم ٥٥ بيته

وهكذا في بيوت القبائل والأمرء والملوك وأهل عصية أجمع ، ثم في
بيوت أهل الأضر ، إذا انحطت بيوت شأت بيوت أخرى إن يشأ يدهكم
ويأت بحق حديد ، وما ذلك على الله عزير

واشتراط الأربعة في لأحسب ، إم هو في لغالب ، وإلا فقد يدثر البيت
من دون لأربعة ، ويتلاشى ويهدم . وقد يتصل أمره إلى الخامس والسادس ،
إلا أنه في انحطط ودهاب ، واعتار الأربعة من قبل لأحيال لأربعة نان ،
ومأشركه ، ومقدس ، وهدم وهو أقل ما يمكن

وقد اعتبرت الأربعة في بهاية الحسب في باب المدح وثناء قل صلى
الله عليه وسلم . إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن
يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، إشارة إلى أنه منع العاية من المحدث وهي
لتورة ما معناه : أن الله ربك طائق عيور ، مطالب بدبوت لانا لسنين على
لثوالت وعلى الرواع وهو يدل على أن الأربعة الأعقاب عدية في
الأنساب والحسب .

والله أعلم .

[16] في أن الأمم الوحشية أفدر على التغلب من سواها

اعلم أنه لما كنت البداوة سبباً في البسالة، كما قدسه في المقدمة الثالثة، لا حرم كن هذا الجيل لوحشي أشد بسالة من الجيل لأو. فهم أقدر على التعب وانتزاع ما في أيدي سواهم من لأم، بل الجيل الواحد بنفسه يحتلف أحواله في ذلك باختلاف الأعصر. فكلما نزلو لأرياف وتبنكوا النعيم وألقوا عوائد خصب في المعش و نعيم، نقص من بسالتهم بمقدار ما نقص من توحشهم وبدونهم.

واعتر ذلك في الحيوانات لعجم بدو جن الظباء والقر الوحشية و حمر إذا رال توحشها بمخالطة الأدميين وأُحص عيشها، كيف يختلف حالها في الانتهاء و لشدة، حتى في مشيتها وحسن أديمها. وكدنت الأدمي المتوحش، إذا سُ ولف وسببه أن تكون السجيا و لصبائع بما هو عن المألوفات والعوائد. وإذا كان العلب للأم إلى يكون بالإقدام و البسالة، فمن كن من هذه الأحيال، عرق في البداوة و أكثر توحش كن أقرب إلى التعب على سواه إذا تقربا في العدد و تكافا في القوة والعصبة.

و نظر في ذلك شأن مُضر مع من قتلهم من حمير و كهلان السابقين إلى الملك و النعيم، ومع ربعة المواطنين أرياف العرق و نعيمه، لما بقي مُضر في

بداوتهم وتقدمهم لأحروا إلى حصص العيش وعضارة لمعيم، كيف أرهنت
 البداوة حدهم في التعب، فغلبوهم على ما في أيديهم وشرعوه منهم
 وهكذا حال بني عامر بن ضغصعة، وبني سميم بن منصور من بعدهم، لما
 تأخروا في رديتهم عن سائر فائل مصر ولم يتسبوا بشيء من ديبهم، كيف
 أمسكت حال لبدة عليهم قوة عصيتهم ولم يحققها مذهب انترف، حتى
 صرروا أغرب على الأمر منهم وكذا كل حي من العرب يدي عينا وعيشا
 حصبا دور الحي الآخر، وبالحج المستدي يكون أعرب له وأقدر عليه إذا تكاف
 في القوة ولعدد، سنة له في حقيقه

[17] في أن الغاية التي تحرى إليها لعصبية هي المثلث

وذلك لأن فـمـا أن لعصبية بها تكون حمية و مدافعة و مصلية و كل أمر
يُجتمع عليه و قدما أن الأدميين بالصيغة الإنسانية يحتجون في كل اجتماع
بـى و ارج و حاكم يرفع عصبهم عن بعض لاند أن يكون متعباً عليهم بذلك
لعصبية و لاند تتم فيه على ذلك و هذا لعصب هو المثلث و هو أمر رائد
على الرئاسة، لأن الرئاسة إنما هي سودد، و صاحبها منوع، و ليس له عليهم
فهر في حكمه و أن مثلث فهو لعصب و الحكم بالعهر

و صاحب لعصبية، يدبغ إلى رنة صلب م فوفها فـد بلغ رنة السؤدد
و لاسخ، و و حد السيل إلى المتعب و الفهر لا يتركه، لأنه مطلوب للنفس،
ولا يتم اقتدارها عليه إلا بالعصبية التي يكون بها متوَعاً فـالعصب المنكى عية
العصبية، كما رأيت

ثم إن نفس لو حد، و بـ كـت فيه بيونات مفارقة و عصبت متعددة، فلا
بد من عصبية تكون أقوى من جميعها تعيدها و تستنعمها و تتلحم جميع
عصبت فيها و نصير كأنها عصب و حدة كبرى، و إلا وقع الافتراق المفضى
بـى لاختلاف و تشتت و لولا دفع لـه الناس عصبهم بعصر، لفسدت
لأرض

ثم إذا حصل لتعلب بتك العصبية على قومها، طلت بضعبها التعلب على أهل عصبية أخرى بعدة عنها. فإن كانوا أو مسعتها كانوا أفتلاً وأنصرًا، ولكل واحدة منها لتعلب على حورتها وقومها، شأن القناش والأمم للمترفة في لعالم وإن عسنتها أو استتعتها، لالحمت بها ابصار دنتها قوة في اللعب إلى قومها، وطست عدية من تتعلب ولتحكم أعنى من العدية الأولى وأعد وهكم دائماً، حتى تكافئ بموتها قوة الدولة، فإن أدركت لدولة في هرمها ولم يكن لها مدع من أولياء لدولة أهل لعصيات، سولت عليها واتزعت لأمر من يدهم وصار الملك تجمع لها وإن سهت إلى قوتها ولم يقدرون بتك هرم لدولة، إى قارن حاحها إلى الاستظهار بأهل لعصيات، تنظمتها الدولة في أوليائها تستظهر بها على ما يعين من مقصدهم وذلك ملك حر دور ملك مستند وهو كما وقع سترك في دولة سى العباس، وأصهاحة ورواة مع كنافة، هلسي حمدان مع ملوك الشيعة من لعنوية والعباسية فقد ظهر أن الملك هو غدية لعصبية، وأنها إذا بلغت إلى عايتها حصل للقناش الملك، إم بالاستدأ أو بالمظاهرة، على حسب ما يسعه الوقت لمقارن بذلك، وإن عاقها عن سوع لغاية عواقب، كما سبه، وقفت في مكها إلى أن يقضي الله بأمره

[18] في أن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم

وسبب ذلك أن القبيل إذا غلبت بعصبيتها بعض العلب ستوت على السعمة بمقداره، وشاركت أهل السعيم واخصب في نعمتهم وحصلهم، وضربت معهم في ذلك سهم وحصة عقدار عنها واستظهر السولة بها. فإن كانت ندولة من القوة حيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه، أدعن ذلك القبيل لولايتها والقنوع بما يسوغون من نعمتها ويشركون فيه من جديتها، ولم نسئ مالهم إلى شيء من مزارع الملك ولا أسسه، إلى همهم النعيم وللكسب، وخصب العيش، والسكون في طر الدولة إلى ندعة والراحة، والأخذ بمدد مذهب الملك في الماني والملاس خاصة، ولاستكثر من ذلك والتأنيق فيه بمقدار ما حصل من لريش والترف وما يدعو إليه من نوايع ذلك

فتذهب حشوية البداوة، وتضعف العصية والسالة، ويتنعمون فيما أتاهم الله من السسط. ويشأ نوههم وأعفانهم في مثل ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم، ويستنكفون عن سائر الأمور لصورية في العصية، حتى يصبر ذلك خلقة وسجية فتنقص عصبيتهم وسالتهم في الأجيل بعدهم تتعاقبها، إلى أن تنقرض العصية، فيتأذنون بالانقرض

وعلى قدر ترفهم وبعثهم يكون إشرافهم على الفناء، فضلاً عن أنس فإن
عوارض الترف والعرق في النعيم كاسر من سورة العنصية نتي بها نتعب
وإذا، بقرص العنصية قصر القليل عن المدافعة والحمية، فضلاً عن لطلنة،
والتهمتهم الأهم سواهم

فقد تين أن الترف من عواقب الملك.

والله يؤتي من يشاء

[19] في أن من عوائق ذلك حصول المذلة للقبيل
والانقياد لسواهم

وسب ذلك أن المذلة ولا يفيد كسران لسورة لعصية وشذتها فإن
تعبدهم ومساكنهم دليل على فقدانها فم رثموا للمذلة حتى عجزوا عن
مداومته، ومن عجز عن مداومة فأوى أن يكون عجزاً عن المقاومة والمطالبة
وعثر ذلك في سبب إسرائيل لما دعه موسى عنه اسلام إلى ملك الشام
واجبرهم أن انه قد كتب لهم منكبه. كيف عجزوا عن ذلك وقالوا: 'إن فيها
قوم حذرين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، أي يخرجهم ليه منها
صرب من قدرته عبر عصبيت، ويكون من معجراتك يا موسى. وما عزم
عليهم خو ورتكو لعصيان وقوا ذهب أنت وريت فقتلاً' وما ذلك
لأنما نسو من أنفسهم من لعجز عن المداومة والمطالبة، كما تقتضيه الآية وما
تؤثر في تفسيرها وذلك ما كان حصل فيهم من خنق لأنقياد، وما رثموا من
أن لا يلقط أحقاد حتى دعت عصية منهم حمه مع أنهم لم يؤمنوا بما
أخبرهم به موسى من أن شاء لهم وأن اعمالقة الدس كانوا بأريحا فريستهم
بحكم من أنه قد ه لهم، فأقصرو عن ذلك وعجزوا، نعولاً على ما علموا
من أنفسهم من العجز عن المطالبة ما حصل لهم من المذلة وطغوا فيما
أخبرهم به سيهم من ذلك وما أمرهم به، فعافهم ليه بانيه وهو أنهم نهو

في قمر من الأرض ما بين شام ومصر أربعين سنة لم يهتدوا فيها لعمر د ولا نزوا مصرًا، ولا حاطوا شراً، كما قصه لقرآن. ويظهر من مساق الآية ومفهومها أن حكمة ذلك التي مقصودة، وهي فناء لحيل الدين حرجو من قصه الدل والفهر وألوه وتحقوا به وأفسد من عصيتهم حتى شأفي ذلك التي حين حر عزز لا يعرف لأحكام والفهر ولا يسد بالمدلة. فنشأت لهم بدت عصية أخرى قدرو بها على المطالبة والتعلب ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنة أقل ما يأتي فيها فناء حيل ونشأة حسا حر سحاح حكيم العليم

وهي هذا أوضح دليل على شأن العصية، وأنها التي تكون بها المدفوعة والمقاومة وحمية والمضلة، وأن من فقد هذه عزز عن جميع ذلك.

ويلحق بهذا الفصل فيما يوجب المدلة للقبيل شأن المعارم وابصرائ في قبيل العرب من ما أعطوا اليد لذلك حتى رصو بالمدلة فيه لأن في مغرم وابصرائ ضيم ومدلة لا تحتملها نفوس الحرة إلا إذا استهوتته عن القتل ولتلف، وأن عصيتهم حبس ضعيفة عن المدافعة وحماية. ومن كانت عصيته لا تدفع عنه الصيم، فكيف له بالمقاومة أو المطالبة وقد حصل له لانتقاد لبد والمدلة عاتقة، كما قدمناه

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في شأن حرث، لما رأى سكة انفجرات في بعض دور الأبصار فقال ما دخلت هذه در قوم إلا دحبهم الدل. فهو دليل صريح على أن المعرم موجب للدل. هد إلى ما يصحب ذلك المعرم من حلق المكر والخديعة بسبب منكة لفهر. فإذا رأيت لقبيل المعارم في رقة من الدل فلا تطمعن لها عدك حر الدهر

ومن هنا يتبين لك علط من يرعم أن راتة كانوا شايوة يؤذون المعارم من كان على عهدهم من الملوك وهو غبط فاحش، كما رأيت. إذ لو وقع ذلك لما استتب لهم مث، ولا تمت بهم دولة.

وايظن في هذا ما قاله شهربراز، ملك الناب، نعد الرحمن بن ربيعة لما أطل
عبيه وسأل شهربراز أمانه على أن يكون له فقال "أنا اليوم معكم، يدي في
أيديكم، وصموي معكم. فمرحبا بكم، وبارك الله لنا ولكم، وجريئنا بكم
النصر لكم ولقيم مما تحبون ولا ندلويا بلجزية فتوهينوا لعدوكم فاعتبر
هذا فيم قنناه فإنه كاف."

[20] في أن من علامات منك لتنافس في

الحلال الحميدة وبالعكس

لما كان الملك ضيقاً للإسار له فيه من طبيعة لاحتتماع، كما قناه، وكان
لإسار أقرب إلى حلال خير من حلال شر يصل فطرته وفوته اسطقة
لعاقبة. لأن الشر إلى حواء من قبل أقوى حيوية تبي فيه، وأد من حيث
هو إسار فهو إلى خير وحلاله أقرب والمنك والسباسة إنما كان له من حيث
إسار، لأنها خاصة بالإسار. لا لحيون في حلال آخر فيه هي التي
تناسب السياسة والمنك، إذ خير هو المناسب لسياسة

وقد ذكرنا أن المنك له أصل يسي عليه وتتحقق به حقيقة، وهو العصية
والعشر، وفرع يتم وجوده وكميته، وهو الحلال ويد كان المنك عنة
العصية، فهو عنة مفعولها ومتماتها، وهي حلال لأن وجوده دور
متمته كوجود شخص مقطوع لأعضاء أو صوره عرياً من الناس

ويد كان وجود العصية فقط من غير التحلل الحلال الحميدة بقضائي أهل
النسب والأحساب، فما طبت أهل منك الذي هو عنة لكل محد ونهية لكن
حسب

فقد تبين أن حلال الخير شاهدة بوجود منك من وجدت له العصية. فإذا
طرب إلى أهل العصية ومن حصل لهم الغلب على كثير من أسوحي ولأهم

هو حذبهم سافسور في حير وحلاه من الكرم، والعفو عن لزللات،
والاحتمال من غير القدر، ويقرى لنصوف، وحمل الكل، وكسب المعدم،
والنصر على المكره، والوفاء بالعهد، وبدل الأمور في صوب لأعرص،
وحبء من الأكبر والمشح وتوفيرهم وإحلالهم، والالتقيد بحق مع لداعي
إليه، ورصاف نستصعدين من أنفسهم ولتبدل في أحوالهم، والتواضع
للمسكين، سماع شكوى المستعشرين، ولتدين بالشرع والعدالت وتقدم
عنها وعلى أسسها، وانحرف عن نعدر والمكر والخدعة ونقص العهد،
وأكثر ذلك، عندما ن هذه خلق لسياسة قد حصنت لديهم واستحقوا بها أن
يكونوا ساسة من تحت أيديهم أو على العموم، وأنه حير سافة إبيهم مدسب
عصبيتهم وعينهم، وليس ذلك شئ فيهم ولا أجد عت منهم، وملك نسب
حيرت وانزبت عصبيتهم فعندما يدك ن الله تأذن لهم بالملك وساقه
ينهم

وبعكس من ذلك، يد تأذن لله بانقراض الملك من أمة، حملهم على
ارتكاب المذمومات والتحن برذائل وسوء طرقه، فتعقد الفضائل لسياسة
مهم حميه ولا تزال في تقصص إلى أن يحرج لأمر من أيديهم ويتبدل به
سوءهم، ليكون عتاً عليهم في سب ما كان الله قد أتاهم من الملك وجعل في
أيديهم من احير "ورد أن يهت قرية أمر من فيها ففسقوا فيها، فحق
عنها القول، فدمرناهم تدمير"
و سنقر ذلك في الأمم السالفة، نجد كثير مما فناء ورسمه والله يخلق
م بشء ويحار

وعند من حلال الكمال لدي سافس فيه القائل وتو نعصية وتكون
شاهدة لهم بذلك إكرم عماء والأشراف وأهل الأحساب والعرباء، وبزائل
سافس مدبرهم وذنك ن إكرام نفسائل وأهل العصبيت والعشائر لمن
سافسهم في شرف ويحذدبهم حب العشير وعصية ويشركهم في اتساع
الحه أمر طبيعي يحمل عنه في لأكثر ابرعه في حاه أو لمحافة من قوم

مكرم وأتمس مثلها منه وأما أمثال هؤلاء ممن ليس له عصية تُتقى ولا حاح يُرتجى، فيندفع الشك في شأن كرمهم ويتمحص لقصد فيهم أنه للمحد وسجل الكمال في الحلال والإفبال على السياسة النكبية لأن إكرام أقتله وأمثله ضروري في السياسة الخاصة بين قبيله وظهرته، وإكرام نظائرين من أهل الفصائل والخصوصيات كمال في السياسة العامة. فعدم وجود ذلك من أهل عصبته إنماؤهم لسياسة العامة، وهي المدك، وأن الله قد تأذن بوجودها فيهم لوجود علاماتها. ولهذا فإن أول ما يذهب من القبيل، أهل الملك، إذ تأذن الله بسبب منكم وسبطنهم، إكرام هذا الصف من الخلق. فإذا رأيه قد ذهب من أمة من الأمم، وعلم أن لفصائل قد حذت في لذهب، وارتقب رواب النبك منهم وإذا أراد الله يقوم سواها فلا مرّذله

[21] في أنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع

ودئت لأبهم أقدر على التغلب والاستداد، كما قلناه، واستعداد الطو ثم
لقد رتبهم على محاربة الأم سواهم، ولأنهم يتسزّون من الأهدب منزلة
المفترس من حيوانات العجم وهؤلاء مثل العرب، ورنانة، ومن في معانهم
من الأكرد والتركماء وأهل الشام من صنهاجه.
وأيضاً هؤلاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتفون منه، ولا بلد يحسبون
إليه، فنسبة الأقطار والمواطن إليهم على السواء فلهدا لا يقتصرون على
ملكة قضيهم وما حاوره من البلاد، ولا يقفون عند حدود أقتهم، بل يطغرون
إلى الأقاليم العبيدة، ويعلمون على الأم النائية
ويظن ما يُحكى في ذلك عن عمر رضى الله عنه لما نُويج وقام يحرض
الناس على العراق فقل: 'إن الحجار ليس لكم بذار إلا عني لمحعة، ولا
يعوى عليه أهله إلا بذلك. أين عُرء المهاجرون عن موعد الله؟ سيروا في
الأرض التي وعدكم الله أن يورثكموها فقل: ليظهره على لدين كله وهو
كره المشركون

واعترى ذلك أيضًا بحال العرب السابقة من قبل مثل أُنْبَاعَة وَجَمِير ، كيف
 كانوا يخطون من اليمن إلى المغرب مرة ، وإلى الهند ولعرق أخرى ولم
 يكن ذلك لغير العرب من الأمم
 وكذا حال المُتَشَبِّهين بالعرب إذ نزعوا إلى امتك ، طغروا من لإقليم لأون
 ومحالاهم منه في حوز السودان إلى لإقليم نربع واحد مس في عمات
 الأندلس من غير واسعه .
 وهذا شأن هذه لأثم الوحشه فسلك تكون دولتهم أوسع نطاقاً وانعد من
 مراكزها بيايه
 والله مصدر الليل : لنهار

[22] في أن الملك إذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا بد من عودته
إلى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية

والسبب في ذلك أن الملك إنما حصل لهم بعد سؤرة الغلب و لإذعان لهم
من سائر الأمم سواهم. فيتعين منهم المباشرون للأمر، الحاملون لسرير الملك.
ولا يكون ذلك لجميعهم لما هم عليه من الكثرة التي يضيق عنها نطاق المرحمة،
ولغيرة التي تجتمع أنوف كثير من المتطاولين للرتبة.
فإذا تعين أولئك القائمون بالدولة انغمسوا في النعيم، وغرقوا في بحر
الترف والخصب، واستعدوا إخوانهم من ذلك الخيل، وأنفقوهم في وجوه
الدولة ومداهبها، وبقي الذين بعدوا عن الأمر وكبحوا عن المشاركة في ظل من
عز الدولة التي شاركوها بنسبهم وبمنجاة من الهرم لبعدهم عن الترف وأسببه.
فإذا استولت على الأولين الأيام، وأباد غضراءهم الهرم، وطحتهم الدولة،
وأكرس ادهر عليهم وشرب بما أزهف النعيم من حدهم واشتقت غريزة الترف
من منهم، وبغوا عايتهم من طبيعة التمدن الإنساني والتغلب السياسي،

كدود انقر ينسح ثم يفنى بمركز نسجه في الانعكاس

كانت حينئذ عصبية الآخرين موفورة، وسؤرة غلبهم من لكاسر
محسوسة، وشارتهم في الغلب معلومة. فتسّموا أمالهم إلى الملك الذي كانوا

مموعين منه بالقوة الغالبة من جنس عصبيتهم، وترتفع المنازعة لما عُرفَ من غلبهم. فيستولون على الأمر ويصير إليهم. وكذا يتفق فيهم مع من بقي أيضًا مستندًا، عنه من عشائر أمتهم. فلا يزال الملك ملحقًا في الأمة إلى أن تنكسر سورة العصية منها أو تفنى سائر عشائرها، سنة الله في الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين"

واعتبر هذا بما وقع في العرب. لما انقرض ملك عاد قام من بعدهم إخوانهم من ثمود. ومن بعدهم إخوانهم العمالقة، ومن بعدهم إخوانهم من حمير، ومن بعدهم إخوانهم التَّبَّاعَة من حِمير أيضًا، ومن بعدهم الأذواء كذلك. ثم جاءت الدولة لِمُضَر.

وكذا الفرس، انقرض أمر الكِنيَّة، فملك من بعدهم الساسانية، حتى تأذن الله بانقراضهم أجمع بالإسلام. وكذا اليونانيون، انقرض أمرهم وانتقل إلى إخوانهم من الروم.

وكذا لبربر بالمغرب، لما انقرض أمر مَخْراوة وكتامة، الملوك الأول منهم، رجع إني صُهاجة، ثم المثلثين من بعدهم، ثم المصامدة، ثم من بقي من شعوب زنَّاة.

وهكذا سنة الله في عباده وخلقه.

وأصل هذا كله إنما يكون بالعصية. وهي متفاوتة في الأجيال. والملك يخلفه الترف ويذهبه، كما سنذكره بعد. فإذا انقرضت دولة، فإنما يتداول الأمر منهم من نه عصية مشاركة لعصبيتهم التي عُرفَ لها التسليم والانقياد، وأونس منها العلبُ لجميع العصبيات. وذلك إنما يوجد في النسب القريب منهم. لأن تفاوت العصية بحسب ما قُرب من ذلك النسب التي هي فيه أو بُعد حتى إذا وقع في العالم تبديل كبير، من تحويل مئة، أو ذهاب عمران، أو ما شاء الله من قدرته، فحينئذ يخرج عن ذلك الجيل إلى الجيل الذي تأذن الله بقيامه بذلك التبديل، كما وقع لِمُضَر حين غلبوا على الأمم والدول حين أخذوا الأمر من أيدي أهل العالم، بعد أن كانوا مكبوحين عنه أحقابًا.

[23] في أن المغلوب مولع أبداً بالافتداء

بالغالب في شعاره، وزيه، وتحلته، وسائر أحواله وعوائده

والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقدت إليه، إما لنظرة بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه، أو لما تغالط به من أن انقيدها ليس لغلب طبيعي، إنما هو لكمال الغالب. فإذا غالطت بذلك و تصل لها حصل اعتقاداً. فانتحلت جميع مذاهب الغالب، وتشبهت به. وذلك هو الاقتداء.

أو لـ تراه، والله أعلم، من أن غلب الغالب لها ليس بعصبية ولا قوة بأس، وإنما هو بما انتحلت من العوائد والمذاهب، تغالطاً أيضاً بذلك عن الغلب. وهذا راجع إلى الأول. فلذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه، ومركبه، وسلاحه في اتخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله.

وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهم كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً. وما ذاك إلا لاعتقادهم الكمال فيهم. وانظر إلى كل قطر من الأقطار كيف يغلب على أهله ري الحمية وجند السلطان في الأكثر، لأنهم الغالبون لهم.

حتى أنه إذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها، فيسرى إليهم من هذا الشبه والافتداء حظ كبير، كما هو في الأندلس لهذا العهد مع أمر حلالقة. فإنك تجدهم يتشبهون بهم في ملبسهم وشاراتهم والكثير من

عوائدهم وحوالهم، حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصنوع والسيوط
حتى لقد بسّشعر من ذلك الناظر بعين الحكمة أنه علامة الاستيلاء، و لأمر
لله

ونأمل في هذا سر قولهم: "الناس على دين الملك"، فإنه من به، إذ نُسب
عاب لمن تحت يده، والرعية مقتدون به لاعتقاد الكمال فيه، اقتداء الأبناء
بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم.
والله الحكيم العليم.

[24] في أن الأمة إذا غلبت وصارت في ملكة
غيرها أسرع إليها الفناء

والسب فيه، والله أعلم، ما يحصل في نفوس من لتكاسل إذا مُبِت
أمرُهم عنهما وصارت بالأسعبدالة لسوها وعائه عنهم، وفقر الأمل
ويصعب والتماس ولا عزم، مما هو مع حدة الأمل وما يشأ عنه من النشاط
في القوى حيوية، فذهب الأمل بالتكاسل، وذهب ما يدعو إليه من
الأحوال، وكنت لعصية داهية بالعباد لخص عنهم، تافض عمرهم،
وتلاشت مكسهم ومسايعهم، وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم عما خصدهم،
العبث من شوكتهم فاضحو، مُغلين لكل مُتعب، طعمه بكل منهم،
وسوء كانوا حصنوا على عايتهم من المثلث أو لم يحصلوا

وفيه، والله أعلم، سر آخر وهو أن الإنسان رئيس بطبعه، بمقتضى
الاستحلاف الذي خلق له والرئيس إذا عُيِبَ على رئاسته وكُيِّحَ عن مدى
عزّه، تكس حتى عن شع بطه ورية. وهذا موحود في أخلاق لأناسي،
ولقد يقال منه في حويات المفترسة، ونها لا تسود إذا كانت هي ملكة
لادمير فلا يزال هذ القليل للملوك أمره عليه في ناقص واصمحلال إلى
أن يأجدهم الفناء والبقاء له وحده

دَا عُلَّتْ لَأَمَةِ أَسْرَعَ إِلَيْهَا لِقَاءُ

واعتر ذلك في أمة الفرس كيف كانت قد ملأت لعالم كثرة ولما فنيت
حاميتهم في أيام العرب بقي منهم كثير، وأكثر من الكثير يقال إن سعداً
أحصى من وراء المدائن فكانوا مائة ألف وسعة وثلاثين ألفاً، منهم سعة
وثلاثون ألفاً قرب بيت ولما تحصّلوا في مكة العرب وقصة نقهر لم يكن
مقاؤهم إلا قليلاً ودثرو كأد نهم يكونوا. ولا تحسن ذلك لظلم نرؤ بهم أو
عدوان شمنهم. فملكة الإسلام في العدل ما عدمت، وإيها طبيعة في الإنسان
إذا عُنِبَ على أمره وصار آلة لغيره.

ونهد في يد دع لرق، في العلب، أم السودان لقص الإنسانية فيهم
وقربهم من عرص الحيوانات اعجم، كما قلده أو من يرجو بانتظمه في ربة
الرق حصول رتبة أو إفدة مال أو عز، كما يقع لترك بالشرق والمعنوحى من
احلالقة والإفرجة بالأسلس. فإن العادة حارية باستحلاص لدولة لهم، فلا
يأمنون من الرق لما يؤمنونه من خناه والرتبة باصططاء لدولة
والله أعلم

[25] في أن العرب لا يتغلبون إلا على البسائط

ودلت أنهم بطبيعة لتوحش نبي فيهم أهل انتهاب وعيث، يحتفظون ما
قدروا عليه من غير معاملة ولا ركوب خطر، ويمرون إلى متحهم بالفقر. ولا
يدهبون إلى المرحمة والمحاربة إلا إذا دافعوا بذل عن أنفسهم فكل معقل
أو مستصعب عليهم فهم تاركوه إلى ما سهل عنه، ولا يعرضون له. والقائل
المتبعة عليهم بأو غار الخان بمنجاة عن عيئهم وفسادهم، لأنهم لا يتسممون
إليهم الهضاب، ولا يركبون الصعاب، ولا يحاولون الخطر
وأما البسائط، فهي نهب لهم وطعمة لأكمهم. يرددون عيها العارة و نهب
والزحف لسهولتها عليهم إلى أن يصح أهدمها مَعْتَبِر بهم ثم يتعاوزونهم
باختلاف الأيدي و حراف لسياسة إلى أن يقرص عمر بهم
والله قادر على ما يشاء

١ والله قادر على حقه [ب]

[26] في أن العرب إذا تغلبوا على الأوطان أسرع إليها الخراب

والسب في ذلك أنهم أمة وحشية تاستحكام عوائد لنوحش ونسبه
فيهم فصار لهم خُفًا وحنّة، وكان عندهم ممدودٌ ما فيه من اخروج عن رفق
حكم وعدم لاقيد لسياسة وهذه الطبيعة سافية لعمران ومناقصة له
فعية لأحوال لعادية كنها عندهم لرحلة وانتقت. وذلك مدقص بسكن
لندي به العمران ومدف له فاحجر، مثلاً، إلى حاجتهم إليه لنصفه أن يبي
لنقدور، فيقبونه من المدي ويحربونها عنيه ويعدونه لذلك. واختبب أيضاً
إلى حاجتهم إليه ليعمدوا به حياهم ويتحدوا الأولاد منه سيوتهم. فيحربون
الأسقف عنيه بذلك فصار صعه وحودهم مدفية بساء المدي هو أصل
العمران هذا في حالهم على عموم

ويُصَفُ فطبيعتهم بتهاب ما في أيدي الناس، وأن رفهم في صلال
رماحهم وبس عندهم في أحد موال الناس حد يتهوب، له، بل كما امتدت
عبيهم إلى مال أو متاع أو مدعوب تهوبه فبدنم اقتدرهم على ذلك
بانعب أو سب، طبت اسيسة في حفظ موال الناس وحرب لعمران
وأيضاً فلأنهم يكتفون على أهل الاعمال من لصائع وخرف اعمالهم،
لا يرون بها قيمة ولا فسق من الآخر ولئس بالأعمى، كما سكره، هي

فصل المكاسب وحقيقتها فإذا فسدت الأعمال وصارت مجاناً ضعفت لأمال في المكاسب، وانقبضت الأيدي عن العمل، وابدعوا الساكن، وفسد العمران. وأيضاً فإنهم ليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاصد ودفاع بعضهم عن بعض، إنما همهم ما يأخذونه من أموال الرعية نهباً أو مغرماً. فإذا توصوا إلى ذلك وحصلوا عليه، أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم، والنظر في مصالحهم، وقهر بعضهم عن أغراض المفاصد. وربما فرضوا لعقوبات في الأموال، حرصاً على تحصيل الفائدة والحماية والاستكثار منها، كما هو شأنهم وذلك ليس بجشع في دفع المفاصد وزجر المتعرض لها، بل يكون ذلك زائداً فيها لاستسهال الغرم في جانب حصول الغرض، فتشقى أرباعاً في ملكتهم كأنها فوضى دون حكم. والفوضى مهلكة للبشر مُفسدة لعمران، يذكّره من أن وجود الملك خاصة طبيعية للإنسان لا يستقيم وجوده وحنانهم إلا بها. وتقدم ذلك أول الفصل.

وأيضاً فهم متنافسون في الرئاسة. وقل أن يُسلّم أحد منهم الأمر لغيره، ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته، إلا في الأقل، وعلى كره من جيل حياء فيتعهد الحكماء منهم والأمراء، وتختلف الأيدي على الرعية في جباية فيفسد العمران وينتفض. قال الأعرابي لعبد الملك لما سأله عن الحجاج ورّد لثناء عليه بحسن السياسة والعمران فقال: "تركته يظلم وحده".

وانظر إلى ما ملكوه وتغلّبوا عليه من الأوطان من لدن الخليفة كيف تقوّض عمرانه وأفقر ساكنه وبذلت الأرض فيه غير الأرض. فاليمن، قرارهم، خراب إلا قليلاً من الأمصار. وعراق العرب كذلك، قد خرب عمرانه الذي كان لفرس أجمع. والشام لهذا العهد كذلك. وإفريقية والمغرب، لما أجاز إليهما بنو هلال وبنو سليم منذ عهد المائة الخامسة وتمرسوا بها ثلاثمائة وخمسين من لسنين قد حُقّ بها وعادت بسائطه خراباً كلها، بعد أن كان ما بين السودان والبحر لرومي كله عمراناً، يشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتمثيل البناء وشواهد القرى والمدائن.

والله وارث الأرض ومن عليها. وهو خير الوارثين.

[27] في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينة من نبوة،
أو ولاية، أو أثر عظيم من الدين على الجملة

والسبب في ذلك أنهم خلُقوا التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقياد
عصهم لعصر للعلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرئاسة، فقل ما تجتمع
أهواؤهم وبدا كان الدين بالنبوات أو الولاية، كان الوازع لهم من أنفسهم،
ودهب حق الكبر والمنافسة منهم. فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما
شتمهم من الدين المذهب للعلظة والأنفة، الوازع عن النحاسد والتنافس
في ذلك فيهم السبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله تعالى، ويذهب
عنهم مذمومات الأخلاق ويأخذهم بحمودها ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق،
ثم اجتمعهم وحصل لهم التغلب والملك.

وهم مع ذلك أسرع الناس قبولاً للحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج
الملكات وبرئهم من ذميم الأخلاق، إلا ما كان من خلُق التوحش القريب المعانة
المنتهية لقبول الخير ببقائه على الفطرة الأولى وبعده عما ينطبع في النفس من
قبائح العوائد وسوء الملكات. فإن "كل مولود يولد على الفطرة"، كما ورد في
الحديث.

[28] في أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك

والسبب في ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم، وأبعد مجالاً في لقمه، وأعنى عن حاجات التلؤلؤ وحبوبها لاعتيادهم الشطط وخشونة لعيش واستغنوا عن غيرهم، فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك ولدتوحش ورئيسهم محتاج إليهم غالباً للعصية التي بها المدافعة، فكان مضطراً إلى إحسان ملكتهم وترك مراغمتهم، لئلا يختل عليه شأن عصيته فيكون فيها هلاكه وهلاكهم. وسياسة الملك والسلطان تقتضي أن يكون السدس وارغاً بالفقر، وإلا لم تستقم سياسته.

وأيضاً فمن طبيعتهم. كما قدمناه، أخذ ما في أيدي الناس خاصة، والتجافي عما سوى ذلك من الأحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض. فإذا ملكوا أمة من الأمم، جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما في أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام بينهم. وربما جعلوا العقوبات على المفسد في الأموال حرصاً على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد. فلا يكون ذلك وازعاً. وربما يكون باعاً بحسب الأغراض الباعثة، فتتمو المفسد بذلك، ويقع تخريب العمران. فتبقى تلك الأمة كأنها فوضى مستطيلة أيدي بعضها على بعض. فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعاً شأن الفوضى، كما قدمناه.

فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك. وإنما يصيرون إليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصيغة دينية تحو ذلك منهم وتجعل الوازع لهم من أنفسهم وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض، كما ذكرناه. واعتبر ذلك بدولتهم في المئة لما شيد لهم الدين أمر لسياسة بالشرعية وحكامها المراعية لنصالح العمران طاهراً وباطناً، وتتابع فيها الخلفاء، عظم منكمهم وقوي سلطانهم. كان رؤسهم لما رأى المسلمين يجتمعون لنصلاة يقول: أكل عمر كبدي. يعلم الكلاب الآداب".

ثم إنهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين، فنسوا السياسة، ورحعوا إلى قفرهم، وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل لدونة ببعدهم عن الانقياد وإعطاء النصفة، فتوحشوا كما كانوا، ولم يبق لهم من رسمه إلا أنه ندماء وهم من جيلهم. ولما ذهب أمر الخلافة وامحى رسمها، انقطع الأمر حملة من أيديهم، وغلب عليه العجم دونهم، وأقاموا مادية في قسدهم لا يعرفون الملك ولا سياسته، بل قد يجهل الكثير منهم أنهم كان لهم من في القدم وما كان لأحد من الأمم في الخليفة ما كان لأجبالهم من سب ودول عاد، وثمود، والعمائقة، وحمير والنبابعة شاهدة بذلك، ثم دولة مُصّر في الإسلام، بني أمية وبني العباس. لكن بعد عهدهم بالسياسة لم يسو لدن، فرجعوا إلى أصلهم من البداوة. وقد يحصل لهم في بعض لأحياء عبي عبي الدول المستضعفة فلا يكون ماله وغايته إلا تخريب ما يستولون عليه من لعمران، كما قدمناه.

الفصل الثالث

في الدول العامة والملوك^١ والخلافة والمراتب السلطانية
وما يعرض في ذلك كله من الأحوال
وفيه قواعده وامتصاصات

(١) سور وامتلك [ب]

[1] في أن الملك والدول العامة إنما تحصل بالقبيل والعصبة

ودلت أنه قد قرر في الفصل الأول أن المعالجة والمعاملة إنما تكون بالعصبة، وفيها من شجرة ولتدأمر وستمائة كل واحد منهم دور صاحبه ثم إن الملك منصب شريف ملود يشتمل على جميع خيرت لديويته والشهوات ليدنيه وملاذ التمسيد فيمع فيه لتنافس عائلًا، وقل أن يسلمه أحد لصاحبه إلا إذا عب عليه فتقع المارعة، وتقصي إلى حرب والقتل ومنعنة وشيء منها لا يقع إلا بالعصبة، كما ذكره في

وهذا الأمر بعيد عن أفهام جمهور بحمة ومتدسولة، لأنهم بسو عهد تمهيد الدولة مند أولها، وطال أمد مرهم في الحصرة ويعاقبهم فيها حيلًا بعد جيل فلا يعرفون ما فعل الله أول الدولة، إنما يدركون أصحاب الدولة قد ستحكمت صعتهم ووقع التسليم لهم والاستغناء عن عصبيته ولا يعرفون كيف كان الأمر وما لمي أولهم من متاع دونه، وخصوصًا هن الأندلس في سين هذه لعصبة وأثرها لصول لأمد وستغنائهم في لعالب عن قوة لعصبة، ما تلاشي وطهم وحلا من لعصبة والله قادر على ما يشاء

[2] في أنه إذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصبية

و سبب في ذلك أن الدول لعامة في أنها يصعب على المموس الألقيد
لها لا قوة قوية من لعب لعراة وأن لناس لم يألمو أمرها ولا اعتدوه
فإذا استقرت الرئاسة في أهل لصبب المخصوص المند في الدولة وتوارثوه
و حد بعد آخر في أعقاب كثيرين ودون متعاقبة، سبب المموس شأن لأولة
واستحكمت لأهل ذلك لصبب صعبة الرئاسة ورسح في العقائد دين الألقيد
لهم والنسب، وقات الناس معهم على أمرهم فتبهم على العمائد الإيمية،
فهم محتاجو حينئذ في أمرهم إلى كبير عصبية، من كان طاعتها كتاب من أنه
لا بد ولا بعلم خلافه ويكون استطهارهم حيد على سبطهم ودولتهم
مخصوصة مما يدو لي مصطنعين الذين شؤو في ظل العصبية وعزها،
وإذا بالعصبة حارحة عن سبها

ومثل هذا وقع بين عباس في عصبية العرب كانت فسدت لعهد دولة
معتصم واسه الموثق واستطهارهم بعد ذلك إلى كان ساموي العجم والنز
ولديهم والسلطان فيه وغيرهم ثم لعب العجم على السواح وتقص طل
لدولة، فم يكن يعدو إلى حيي بعدد حتى رحت إلىهم الذين وملكوها،
وصدرت الحلائل في حكمهم ثم انقرض أمرهم رحت السحقية من

عندهم، فصدرو في حكمهم ثم انقرض أمرهم، ورحل حراً لتشار، فقتلوا
الحليفة، ومحووا رسم الدولة

وكذا صُنِّحَاحَة بالمعرب، فسدت عصيتهم منذ امة الخامسة أو ما فيها،
و استمرت لهم الدولة منقصة الطل بالمهدية وبخاية والقعدة وسائر شعور
فريقية ورما انرى نذك، لشعور من درعهم لمذك، وعصم فيها و لسبطن
وانك مع ذلك مسدم لهم، حتى تأذن لله بقرص الدولة وحاء لموحدون
بقوة قوية من اعصية في المصممة، فمحووا اثارهم.

وكذا دولة بني أمية بالأندلس، لما فسدت عصيتها من العرب ستولى
مدوك بطوائف على أمرها واقتسموا حطتها، ونافسو بينهم وتورعو ممالك
الدولة، وانتزى كل واحد منهم على ما كان في ولايته. وسمح بضمه. وبعهم
شأن نعيم مع الدولة لعاسية، فتلقبوا بالملك ونسوا شرتهم، وأمنوا
عن ينقص ذلك عنهم ويعيره لأن الآن لس ليس بدار عصمت ولا قتل،
كما سذكره و استمر بهم دث كما قال اس شرف

عن يزهدى في أرض أندلس سماء مُعْتَصِم فيها ومُعْتَصِد
لُفَت مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاحا صورة لأسد

فاستطهروا على أمرهم بالمولى والمصطعين و صُرَّاء على .الأندلس من
قائل السرور ورنته وعبرهم، اقتداء بالدولة في آخر أمرهم في الاستطهروهم
حين صغفت اعصية العرب و ستد ان أى عمر على الدولة، فكان لهم
دور عظيمة استد كل واحد فيها بحت من لأندلس و حط كبير من الملك
على ستة لدولة لتي فسموها وسم نزالوا في سلطنهم ذلك حتى أחר
إنهم لبحر مراتبون، هس اعصية القوية من شئونة، فاسسدلوا بهم
وأزالوهم عن مركزهم، ومحووا اثارهم، ولم يقدروا على مدافعهم لفقد
لعصية لديهم فهذه اعصية تكون تهديد الدولة وحمايتها من أولها.

وقد ظن الطرطوشي أن حامية الدول بإطلاق هم خند، أهل العطاء
 للمروص مع الأهبة ذكر ذلك في كتبه الذي سمى سراج الملوك. وكلامه لا
 يتناول تأسيس الدول العامة في أولها، وإما هو مخصوص بالدول لأخيرة
 بعد التمهيد واستقرار الملك في الصواب واستحكام الصبغة لأهله فلرحل
 بما أدرك الدول عند هرمها وحق جدتها ورحوعها إلى الاستظهار بالموائى
 والمصنائع، ثم إلى المستخدمين من ورائهم بالأجر على المدفعة. فإنه بما أدرك
 دول لطوائف، وذلك عند حثالة دولة بني أمية وانقراض عصبيتها من
 نعر واستداد كل أمير بقطره وكن في إبالة المستعين بن هود وانه امطر،
 أهل سرقسطة، ولم يكن بقي لهم من أمر العصبة شيء لاستيلاء لترى على
 النعر مد ثلاثمائة من السنين وهلاكهم. ولم ير إلا سلطاناً مستبداً بالمدت عن
 عشائره، قد استحكت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبة.
 فهو لذلك لا ينارع فيه ويستعين على أمره بالأجزة. فأطبق الطرطوشي
 القول في ذلك، ولم يتعطل لكيفية الأمر منذ أول الدولة، وأنه لا يتم إلا
 بالعصبة. فتفظن له، وافهم سر الله فيه.
 والله يوتي منك من يشاء.

[3] في أنه قد تحدث لبعض أهل النصاب للملكي

دولة تستغني عن العصبية

وذلك أنه إذا كان عصبية عن كبير على لأحمي، وفي نفوس
لقائمين بأمره من أهل القاصية يدعوا لهم والقد، وقد نزع إليهم هذا
وانشد عن مقر منكم ومست عزه، اشتهروا عليه وقدموا بأمره وصاهروه على
شأنه وعموا بمهيد دولته، يرحون استقراره في نصابه، وتناولوه لأمر من يد
عبيده، وحزاء لهم على مصهرته مصطفائهم لرتب مدح وحفظه من ورره
وقيادة أو ولاية نعر، ولا يصعبون في مشاركته في شيء من سببه، تسيماً
لعصبته والقياداً لم يحكمه ولقومه من صعة لعب في اعانهم فهو
راموها معه أو دونه لنزول الأرض رأت لها

وهذا كما وقع للأدريسة المعرب لافصى، والعبيد بين بافريقية ومصر
انشد الطائيبون من لمشرق إلى القاصية، وتعدوا عن مقر خلافة، وسموا
إلى طينها من أيدي الالعاس بعد أن استحكمت نصابه لسي عند مداف،
لبي أمية أولاً، ثم لبي هاشم من بعدهم فخرحو بالقاصية من معرب
ودعوا لأنفسهم، وقدم بأمرهم المرة مرة بعد حري فؤورة ومعينه
للأدريسة، وكثافة وصنفاحة وهؤره نعيديين فشلدوا دولتهم ومهدوا
عصبيتهم أمرهم، واقتطعوا من ممالك نعيديين لمعرب كنه ثم بافريقية وهم

فصل ثالث، 3

يزل ظر لدوله يقصص و صل العبيدين بمتد عني ا منكو مصر و لشم
و حجاز، و قسمهم في ممتك لاسلامية شق الأئمة و هؤلاء البرارة
نقشون لدولة مع ذك كنه مسنون لعبيدين أمرهم، مدعون لمكهم
و ايم كوا يفسون في ربه عدهم، نسمن ا حصل من صعة لك لسي
هشم و ب ستمكم من لعب بقرش و مصر على سر الأمم فم يزل الملك
في عفتهم ابي بفر ص دولة عوب بأسره.
ولنه يحكم لا معقب حكمه.

[4] في أن الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك
أصلها الدين، إما من نبوة أو دعوة حق

وذلك لأن الملك بما يحصل بالتعلب و اعبت بما يكون بالعصية
و تماق لأهواء على المصلحة وجمع نفلوب وتأيمها إما يكون دعوة من له
في إقامة دسه فار تعالى لو أفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين
قبوهم . و سره أن لفلوب إذا تدعب إلى أهواء الدطل و ميل إلى الدنيا
حصل التنافس وفتت خلاف و إذا انصرف إلى حق ورفضت الدنيا
و سطر وأقيمت على لله . تحدث وجهتها، فذهب السوفس وقل الخلاف
وحسن التعاون و لتعاصد و تسع بطق لكمة لذلك، فعطمت الدور، كما
بين لك بعد.

[5] في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة الصعبية
التي كانت لها من عددها

والسبب في ذلك، كما قدمناه، أن الصعفة الدينية تذهب بالتنافس
والتحاسد الذي في أهل العصية، وتفرّد، الوحشة إلى الحق فيحصل لهم
الاستنصار في أمرهم، لم يقف لهم شيء، لأن الوحشة وحدة، وللطوب
متساو عند جميعهم، وهم مُستَميتون عليه وأهل الدولة التي هم طالوها،
وإن كانوا أضعافهم، فإن أعراصهم متباينة بالسطل، وتحادلهم لنقية الموت
حاصل. فلا يفاوموهم وإن كانوا أكثر منهم، بل يعسّون عليهم ويعاجدهم
الغناء بما فيهم من لترف والذبح، كما قدمناه

وهذا، كما وقع للعرب في صدر الإسلام في الفتوحات. فكنت حيوث
المسلمين بالهادية والبرّموك نصعاً وثلاثين ألفاً في كل معسكر، وحموح
فارس مائة وعشرين ألفاً بالقدسية، وجموح هرق، على ما قاله واقدني،
أربعمائة ألف فم يقف لهم أحد من الخانين، وهزموهم وعلوهم على ما
أبيديهم.

واعتبر ذلك أيضاً في دولة مُتَوّبة ودولة لموحدين. فقد كان ينعرب من
القبائل كثير مما يقاومهم في العدد والعصية أو يشف عليهم، لأن اجتماع
الديني صاعف قوة عصبيتهم بالاستنصار والاستماتة، كما قلناه فم يقف
لهم شيء.

واعسى ذلك إذ حانت صعة الدين وفسدت كيف ينتقص لأمر ويصير
 لعبت على بسطة لعصية وحده دور رده الدين، فبعبت الدولة من كان
 تحت يدها من العصائب مكافئة لها أو نُزلة القوة عندها ندين عندهم
 مصعقة دين لقوتها وكنوا أكثر عصية منها وشدة مداوة
 واعتبر هذا في اموحدين مع ربه، لما كان رتبة تُدى من مصممة وشدة
 نوحشا، وكان بالمصامدة الدعوه لِدَيْسِهِ سَاعِ الْمُهْدَى، فسو صعتها
 وتصاعت قوة عصيتهم بها، فسو على رتبة أولاً وستتبعوهم، وبكاد
 من حيث العصية والداوة شدة منهم فاما حانو عن بيت صعة الدية،
 تنقص عنهم رتبة من كل جانب وعسوهم على الأمر واسرعوه منهم
 والله غالب على أمره.

[6] في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم

وهذا ما فهمناه من كلامه من يحمل عليه كفة فلا بد له من عصبية
وقد قال علي رضي الله عنه ما بعث الله نبيا إلا في دعوة من قومه وإذا
كان هذا في الأنبياء، وهم أولى الناس بحرق المعوث، فما طبت غيرهم أن لا
تتحرق به أمة في عصبية

وقد وقع هذا لاس قسي، شيخ المصروفة وصاحب كتاب جيع سلعين في
المصروف، نزل الأندلس داعيا إلى الحق، وسمى أصحابه بالمراطين، قيل دعوة
المهدي فاستنبت له الأمر فعلا فتعلل بمؤنة ما دهمهم من أمر موحدين، ولم
يكن هناك عصائب ولا فتن يدفعونه عن شأنه فلم يلبث حين استوى
الموحدين على المعرب أن ادعى أنهم ودخل في دعوتهم وبيعهم من معقنه
بحصن ركنش، ومكثهم من ثعبه وكان أول داعية لهم بالأندلس وكان
ثورته تسمى ثورة المراطين

ومن هذا الباب أحد الثوار القدامى بتعبير سكر، من العدة ولفظه
في كثير من منتحيين لعدة وسوك طريق لدين يدهون إلى القيام على
أهل آخوز من الأمراء، داعين إلى تغيير الملك وإلهي عنه والأمر بالمعروف،
رجاء في الثواب عنه من أنه فيكثر تدعيمه منتسبون بهم من الغوغاء

والدهماء، ويعرّضون أنفسهم في ذلك للمهالك. وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأرورين غير مأحورين، لأن الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم وإنما أمر به حيث تكون القدرة عليه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبأسه، فإن لم يستطع فبقلبه. وأحوال الملوك والدول راسحة قوية لا يزعجها ويهدم بناءها إلا لمطالبة القوة التي من ورائها عصبية القضاة والعشائر، كما قدمناه. وهكذا كان حال الأنبياء في دعوتهم إلى الله بالعصائب والعشائر، وهم المؤيدون من الله، لو شاء لأيدهم ليكون كنه، لكنه إنما أحرى الأمور على مستقر العادة

فإذ ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان فيه محققاً قصره الانفراد عن العصبية، فصاح في هوة لهلاك وأما إن كان من المنسبين بذلك في صلب الرئاسة، فأجدر أن تعوقه العوق وتنقص به المهالك، لأنه أمر الله لا يتم إلا برصده وإعاسته والإحلاص له والمصيبة للمسلمين. ولا يشك في ذلك مسلم، ولا يرتب فيه دو بصيرة.

وأول من بدأ هذه النزعة في الأمة ببغداد، حين وقعت فتنة صهر وقتل الأمين، وأطاع الأميون بخراسان عن مقدم العراق، ثم عهد لعلي بن موسى الرضى، من آل الحسين فكشف، بو لعاس وجه النكير عليه وتداعو للقيام وجمع طاعة المأمون ولا استدال منه وبويع إبراهيم بن المهدي، فوقع الهرج بغداد، وانطلقت أيدي الشطر والحربة على أهل العدية ولصوص. وقطعو السبل، وامتألت أيديهم من بهت الناس، ومانعو علانية في الأسواق. واستعدى أهلها الحكم فلم يعدوهم فتو من أهل الدين والصلاح على مع المساق وكف عدبتهم، وقام بادية العرق رحل يعرف بخالد الديريوس، ودع إلى الأمر المعروف والنهي عن المنكر، فأجابه خلق وقاتل أهل الدعارة وغنمهم وأطلق يده فيهم بالضرب والتشكيل ثم قام من بعده رحل آخر من

سواد أهل بغداد، يعرف سهل بن سلامة لأبصارى، ويكنى أبا حاتم، وعق مصحفاً في عنقه، ودعا إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنعم بكتب ابنه وسنة سنة واتبعه كفة الناس من بين شريف ووصيع من بني هاشم فم دويهم. ويزل قصر طاهر، وتحذ الديوان، وطاف بغداد، ومع كل من 'خاف لماره ومنع الحصرة لأولئك الشطار' وقل له خالد الديوس: 'أنا لا أعيب على سلطان. فقل له سهل' لكي أقدر كل من حالف الكتب والسنة كئناً من كان'. وذلك سنة إحدى ومائتين ووجه له إبراهيم بن المهدي، لعسكر، فغلبه وأسره، ورجل أمره سريعاً، وذهب ومحمداء معه.

ثم قننى بهذا العمل بعد كثير من المؤسسين، يأخذون أنفسهم بقدمة الحق، ولا يعرفون ما يحتاجون في إقامته من لعصية، ولا يشعرون بمعبه أمرهم وما أحوالهم والذي يحتاج إليه في أمر هؤلاء، إما المداوة، وإما كانوا من أهل خبوء، وإما التكيل بالقتل أو الصرب، وإما أحدثوا هرجاءً، وما دعة السحريء منهم وعدهم في حمة الصفاعن

وقد يتسبب بعضهم إلى القاصمي المسطر، إما أنه هو أو داخ له ونيس مع ذلك على عنه من أمر العاطمي ولا ما هو وأكثر المستحدين مثل هذا مخدوم مؤسسين أو محتانين أو منسسين، يطلبون مثل هذا الدعوى رؤسهم امتلأت بها حوانهم وعجزوا عن التوصل إليها شيء من أساليبها. فيحسبون أن هذا من الأسباب البالغة بهم إلى ما يؤمنونه من ذلك ولا يحتسبون ما ينالهم فيه من الهبكة، فيسرع إليهم القتل ويحدثونه من الفتنة، وتسوء عاقبة مكرهم وقد كان لأول هذه المنة حرج بالسوس رجل من المتصوفة يدعى التؤيزري، عمد إلى مسجد مائة ساحل البحر هالك، وزعم أنه القاصمي المتطر، تيسياً على العامة ما ملأ قلوبهم من حدثان بانتطره هالك، وأن من ذلك المسجد يكون أصل دعوته فتهاقت عليه طوائف من عامة البربر تهافت القراش، ثم خشى رؤسؤهم اتساع نطاق العقته، فلدس إليه كبير مصامدة، عمر السكسبيوي، من قتله في فراشه

وكذنت حرج في غمرة لأول هذه سنة أنص رحل عرف بالعدس،
 وادعى مثل هذه الدعوى، وسع عيفه الأربل من ستهء تبت شائل
 وعمرهم، ورحف إلى ديس من مصرهم مدحها عوة، ثم قبل لأربعين
 يوماً من صهور دعوه، ومضى في الهالكين الأوبس
 وأشار دت كثير وعلظ فيه من لعملة عن عتدر بعصية في مته،
 وإما كان اللبس، فأحرى أن لا سم له أمر، وأن يؤء بئمه ودئت حراء
 الضامن

[7] في أن كل دولة لها حصّة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها

والسب في ذلك أن عصاة الدولة وقومها نقائمين بها، الممهدين لها، لا من يوربهم حصصاً على الممالك والشعور التي نصير إليهم ويستولون عليها لحمايتها من العدو ومصاء أحكام الدولة فيها، من حدية وردع وغير ذلك

فيما تورعت العصاة عنهم على الشعور والممالك، فلا بد من نفوذ عددهم، وقد سعت الممالك حيث تد إلى حد يكون شعراً للدولة وتحماً لوصفها وبطناً لمركز مملكتها في تكلفت الدولة بعد ذلك ريادة على ما بيدها، بقي دور حماية وكان موضعاً لانتهاز الفرصة من العدو ومُحجور ويعود ديار ذلك على الدولة، مما يكون فيه من الحسرة وحرق سياج الهيبة وما كسب العصاة مؤهولة ولم يبق عددهم في توزيع حصص على الشعور والنوحي، بقي في الدولة قوة على ناول ما وراء رعاية، حتى يفسح نطاقها إلى عايتها

ولعبة لطبيعية في ذلك أن قوة العصرية هي من سائر القوى الطبيعية، وكل قوة يصدر عنها فعل من الأفعال فشأنها ذلك في فعلها. ودولة في مركزها أشد مما تكون في العرف، ولتطوق وإد انتهت إلى لتطوق لندي هو لعبة، عجزت وقصرت عما وراءه، شأن الأشعة والأوار، قد نعتت من المركز والدوائر المنسححة على سطح الماء من القرب عليه

لكن دوة حصّة من الممالك لا ترد عليها

ثم يد أدركه لهرم والضعف، فيما تأخذ في التقصص من حبه الأضر،
ولا يزال امركز محفوظاً إلى أن يتأذن الله بانقرص الأمر حصّة، وحينئذ
يكون انقرص المركز وإذا غلب على لدولة من مركزها، فلا ينفعها بقاء
الأطراف والنطاق، بل تضمنحل لوقتها، فإن المركز كالقلب الذي يبعث منه
لروح، فإذا غلب القلب ومُيِّث، انهزم جميع الأطراف

ونظر هذا في الدولة الفارسية، كان مركزها المدائن، فمما عبت المسلمون
عنى المدائن بقرص مرفارس جمع، ولم ينفع بزجر دمه بقي بيده من
أطراف مملكه

وكذلك الدولة الرومية بالشام، إذ كان مركزها أنقسطنطينية وعليهم
المسلمون عنى الشام، تحيزوا إلى مركزهم بأنقسطنطينية، ولم يصرفهم استزع
لشام من أيديهم. هم يزل ملكهم متصلاً بها إلى أن تأذن الله بانقراصه
وانصر أيضاً شأن العرب أول لإسلام، إذ كانت عصابتهم موفورة، كيف
عنى ما حورهم من الشام والعرق ومصر لأسرع وقت، ثم تحاوروا
ذلك إلى ما وراءه من سنده وحشة وإفريقية والمغرب، ثم إلى الأندلس.
فما تفرقوا حصصاً على الممالك والشعور، ونزلوها حامية وبعد عددهم في
تلك التوزعات، أقصرو عن الفتوحات بعد، وانتهى أمر الإسلام ولم
يتجاوز تلك الحدود، ومما تراحت لدولة حتى تأذن الله بانقرصها

وكذا كان حال الدول من بعد ذلك، كل دولة عنى سعة القائمين بها في
القلة والكثرة، وعند مفاد عددهم بالتوزيع ينقطع لهم المتبح والاستيلاء، سعة
الله في خلقه.

[8] في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها
على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة

والسبب في ذلك أن الملك بما يكون بالعصية. وأهل لعصية هم الخاميه
الذين يزلون بممالك الدولة وقطارها ويقتسمون عليها. فما كان من الدور
العامة قبيلها وأهل عصابتها أكثر. كانت أقوى وأكثر محلك وأوصداً. وكان
ملكها أوسع لذلك

واعتبر ذلك بالدولة الإسلامية، ما ألف الله كلمة العرب على الإسلام.
وكرر عدد المسلمين في غزوة تبوك، أحر عزوت السي صلى الله عليه وسلم.
مائة ألف وعشرين ألف من مصر وقحطان، ما بين فارس وراجل، إلى من
سسم منهم بعد ذلك إلى الوفاء. مما توجهوا لطلب ما في أيدي الأمم من
لملك، ثم يكن دونه حمى ولا ورر. فاستيح حمى فارس والروم، أهل
لدونتين لعظيمتين في العلم لعهدهم، ولا فرجة ولبرر بالمغرب. والقوص
بالأندلس وخطوا من حدر إلى السوس لأقصى. ومن اليمن إلى لترك
أقصى الشمال، واستولوا على الأقاليم لسعة

ثم انظر بعد ذلك دولة صهاحة ولوحدين مع لعبيدين فبهم، ما كان
قبيل كتابة القائمين بدونه العبيدين أكثر من صهاحة والمصامدة كانت دولتهم
أعظم، فمكوا إفريقية ولعرب والشام ومصر وحدر. ثم انظر بعد ذلك

دولة رتبة، لما كان عددهم أقل من مصممة مدون أمرهم ثم اعتمد بعد ذلك حال الدونيين لهذا العهد لزبانة بني مريش وبني عبدود، لما كان عدد بني مريش لأوز منكمهم أكثر من بني عبدلواذ كانت دوسهم أقوى منهم ووسع نطاقاً وكان لهم عليها العتب مرة بعد أخرى يقال إن عدد بني مريش لأوز منكمهم كانوا ثلاثة آلاف، وإن عدد بني عبدود كانوا ثمانمائة، لأن مدونه برفه وكثرة تتبع كثرت من أعدادهم. وعلى هذه السنة في عدد متعصبين لأول الملك يكون نساع له دولة وفوتها

وإنما صور أمده أيضاً، فعلى نك السنة لأن عمر حادث من قوة مزاجه، ومزاج لدولة بما هم بالعصبة. وقد كتب لعصبة قوية، كان مزاج ناعاً لها، وكان أمد عمر طويلاً والعصبة بما هي بكثرة لعدد ووفور، كما قدس

ونسب الصحيح في ذلك أن لنقص إلى بداية لدولة من لاصرف فيها كانت ممالكها كثيرة، كانت طر فيها عبيده عن مركزه وكثيرة وكل نقص يقع، فلا بد من من فتكثر أرباب لنقص لكثرة ممالك وخصيص كل واحد منها بنقص ورمز فيكون أمده طويلاً

ونظر ذلك في دولة نعر الإسلام، كيف كان أمده طويلاً مدون، لا سوا نعراس، أهل المركز، ولا سوا ثمة. متنبه بالأمس وإنه بعض أمر جميعهم إلا بعد الأربعة من بهجرة ودولة العبيدين، كان أمده قريباً من مائتين وثمانين سنة ودولة صنهاجة دوسهم، من نك تقليد معد نعر، أمر فريقيبة أنكس من ريري سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة إلى حسن استلاء موحدين على بقعة وصحية سنة سبع وخمسين وخمسمائة ودولة موحدين لهذا العهد تهاجر مائتين وسبعين سنة

وهكذا نسب الدون في عمده على سنة القامتين بها، سنة له التي قد حلت في عمده.

[9] في أن الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب

قل أن تستحكم فيها دولة

و سبب في ذلك اختلاف لآراء ولأهواء، وأن وراء كل رأي منها وهوى
عصية تدفع دوماً فكثير الانتقاص على الدولة والخروج عليها في كل وقت،
وإن كانت ذات عصية، لأن كل عصية ممن تحت يده تظن في نفسها معة
وقوة

و نظر ما وقع من ذلك بإفريقية والمعرب منذ أول الإسلام ونهد العهد
فإن ساكن هذه الأوطان من البربر أهل قتال وعصيات، فممن يُعْن فيهم العبد
الأور الذي كان لأن أبي سرح عليهم وعلى المرحمة شيئاً، وعاودوا بعد ذلك
الثورة وردة مرة بعد أخرى، وعظم لإثحاد من المسلمين فيهم، ولما استقر
سكن عندهم، عاودوا إلى الثورة والخروج والأخذ بدين الحوارج مرات
عديدة قل ابن أبي زيد ارتدت البرابرة بالمعرب إثني عشر مرة، ولم
تستقر كلمة الإسلام فيهم إلا لعهد ولاية موسى بن نصير فما بعده وهذا
معنى ما يُقَال عن عمر رضي الله عنه أن إفريقية مفرقة قلوب أهلها، إشارة إلى
ما فيها من كثرة عصائب والقبائل، يحمل لهم على عدم الإدعان ولا بقياد
ولم يكن المعرب قلدلت لعهد تنك الصفة، ولا الشدم، إنما كنت من فارس

و نروم ، والكافة دهماء ، أهل مدن وأمصار فلما عدتهم لمسلمون على الأمر وانتزعوه من أيديهم ، لم يبق ممانع ولا مشق والبربر قاتلتهم بالمغرب أكثر من أن تحصى ، وكثرت بادية وأهل عصائب وعشائر وكلما هلكت قبيلة عادت الأخرى مكانها وإلى دينها من خلاف والردة . فقال أمر العرب في تهديد الدولة بوض إفريقية والمغرب

وكدت كان الأمر بالشام لعهد بني إسرائيل كد فيه من قبائل فلسطين وكعان بني عمنشو وبني مذن ، وبني لوط وأنروم ويونان والعمالقة وكركش والتط من حاب الحزيرة والموصر ما لا يحصى كثرة وتوعدوا في العصبية فصعب على بني إسرائيل تهديد دولتهم ورسوخ أمرهم ، واضطرب عبيهم الملك مرة بعد أخرى وسرى ذلك الخلاف إليهم ، فختلفوا على سلاطينهم وخرجوا عليه ولم يكن لهم مدد موحد سائر أيامهم ، إلى أن غلبهم لغرس ، ثم يونان ، ثم الروم حرمهم عند حلاء والده غلب على أمره . ويعكس هذا أيضاً الأوطار الخبوة من العصبية ، يسهل تهديد الدولة فيها ، ويكون سلطانها ودعائقة النهج ولانقراض ، ولا تحتاج لدولة فيها إلى كثير من العصبية ، كما هو الشأن في مصر والشام لهذا العهد ، إذ هي حرم من القنديل والعصبية ، كأن لم يكن لشام معدل لهم كما قبله . فمدت مصر في عاية لدعة وارسوخ لقنة الخوارج وأهل العصائب ، بما هو سلطان ورعية ودونتها قائمة بالموالي من الترك المسمين بالمماليك ينتزون على كرسي لأمر واحد بعد واحد ، ويستقل الأمر بهم من مست إلى مست ، وخلافة مسماة للعنسي ، سيدهم ليس له منها إلا محرد اللقب والاسم ، والملك والسلطان أجمع لهم

وكذا شأن الأندلس لهذا العهد ، فإن عصبية ابن الأحمر ، سلطانها ، لم تكن لأوط دولتهم بقوة ولا كانت لها كثرة ، إذ كانوا أهل بيت من بيوت العرب ،

أهل الدولة الأموية، بقوا من ذلك أهل وذلَّ أن أهل الأندلس، لم يقرصت الدولة العربية منهم وملكها الرمر من ثنونة والموحدين، سئمو، مكتهم وثقلت وصأتها عليهم، فأشرت لقبوب بغصاءهم وكرءهم، وأمكن الموحدون السادة في آخر لدولة كشرأ من الحصوب للطاعية في سبب الاستظهار به على شأهم من ثلث الحصرة، وتمع من كد بقي بها من أهل العصبية لقدمية معادن من بيوت العرب تحافي بهم، أنست عن خضرة والأمصار بعض الشيء ورسخوا في الحندية، مثل ابن هود وابن الأحمر وابن مرديش ومثلهم فقام من هود بالأمر، ودعا بدعوة الخلافة لعصبية بالشرق، وحمل الناس على احروح على الموحدبن فنذوا إليهم العهد وأحرحوهم. واستقل بن هود، ثم سما ابن الأحمر للأمر وحلف ابن هود في دعوته، فدعا هو لابن أبي حفص، صاحب إفريقية من الموحدبن، وقام بالأمر، ونادوله بعصبة قليلة من قرابته كانوا يسموهم برؤساء ولم يحتج إلى أكثر منها لقلة العصائب الأندلس، وأنها سطان ورعية ثم استظهروا بعد ذلك على لصعية بمن يجيز إليه البحر من أعيص رناتة، فصاروا معه عصبة على لماغرة ولربط.

ثم سما لصاحب المغرب من ملوك زبنة أمر في الاستيلاء على الأندلس، فصار أولئك لأعياص عصاة لأن ابن الأحمر على الامتنع مه إلى أن تأثر أمره ورسح وألفته النفوس وعجز الناس عن مطالته وأورثه أعقابه لهذا نعهد فلا تظن أنه بعير عصبة، فببس كذللك. وقد كان مدوؤه بعصبة، إلا أنها قليلة، وعلى قدر الحاجة، فب وطن الأندلس لقة العصائب والقبائل فيه، يعى عن كثرة العصية في لتعلب عليهم والده عني عن العالمين

[10] في أن من طبيعة الملك الانفرادي

وذلك أن 'المُحد' كما قدمناه، إما هو بالعصية، والعصية متلفة من عصبية كثيرة تكون واحدة منها أقوى من الأخرى كلها، فتعصبها ونستولي عليها حتى تصيرها جميعاً في صميمها وذلك يكون الاجتماع ولعب على الدس والدول وسره أن العصية لعامة تُقْبَل هي مثل مزاج للمكون، ومزاج أي يكون عن العناصر وقد بين في موضعه أن العنصر د جنس متكفئة فلا يقع منها مزاج أصلاً، بل لابد أن يكون واحد منها غالباً على الآخر، وبعبارة أخرى يقع الامتزاج وكذلك تلك العصبية، لابد أن تكون واحدة منها هي الغالبة على كل حتى تجمعها وتؤنسها وتصيرها عصبية واحدة، شاملة جميع العصبية، وهي موحدة في صميمها.

وتلك العصبية الكبرى أيضاً هي تكون بقوم أهل بيت ورئاسة فيهم ولا بد أن يكون واحد منهم رئيساً لهم، غالباً عليهم، فيتعين رئيساً للعصية كلها لعبت منته لجمعها، وداعين له ذلك، ومن الطبيعة حيوانية حتى نكر والألقه، فيألف حينئذ من المساهمة والمشاركة في سبائهم ولتحكم فيهم، ويحيى حتى اثباته الذي في طاع نستمر، مع ما تقتضيه السياسة من أفراد الحاكم لفساد، لكن اختلاف الحكم لو كان فيهم به إلا أنه لمست

فبحدع حسند نوف أهل لعصيات، ويكح شكائهم عن أن يسموا إلى
 مشاركتة في التحكم، ويقرع عصيتهم عن ذلك ويمرد به ما استطاع، حتى لا
 يترك لأحد منهم في الأمر، قة ولا حملاً فيمرد بدت امجد نكيتة ويدفعهم
 عن مهابته فيه. وقد سم ذلك للأول من ملوك الدولة، وقد لا يتم إلا للشي
 أو ثلث، على قدر مماعة العصيات وقوتها. إلا أن أمر لا يد منه في الدور،
 سنة أنه في عبده

[11] في أن من طبيعة الملك الترف

وذلك أن لأمة إدا عشت ومكنت ما تبدي أهل الملك فيها كثر رياشها
وعمنها، فتكثر عوائدهم، ويتحورون ضرورات العيش وحشوشه إلى نوافله
ورفته ورشته، ويدهون إلى تسع من فنيهم في عوائدهم وأحوالهم، وتصير
لبنك المواهب عوائد ضرورية في تحصيلها، وينزعون إلى رفاه الأحوال في
المنطعم والملابس والفرش والآية، ويتماخرون في دنك، ويمحرون فيه غيرهم
من الأمم في أكل الطيب ولس الأبق وركوب الفاره، ويسعى جميعهم في ذلك
سلفهم إلى خراب الدولة وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفعهم فيه،
يبي أن يبيعوا من ذلك لغاية التي لدول أن تبليها بحسب قوتها وعوائد من
قبيلها، سة الله في حقيقه.

[12] في أد من طبيعة الملك الدعة والسكون

ودلت أن الأمة لا يحصل لها ملث إلا بالمطالبة، والمطالبة عديتها لعب
و ملث وإذا حصت الغاية انقضى السعي إليها. قال :

عجبت لسعي لدهر بني وبها فدا انقضى ما سنا سكن لدهر

فإذا حصل الملك، أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكفونها في طسه،
وآثرو الراحة والسكون ولدعة، ورجعوا إلى تحصيل ثمرت ملث من لمبي
والمساكن والملابس. فيبيون القصور، ويحرون المياه، ويعرسون الرياض،
ويستمتعون بأحوال الدنيا، ويؤثرون الراحة على المعب، ويأنقون في
أحوال الملابس والمطاعم والآنية والمرش، ويألفون ذلك ويورثونه من بعدهم
من أحيائهم ولا يزال يتزايد فيهم إلى أن يتأذن الله بأمره

[13] في أنه إذ استحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد
وحصول الشرف والندعة أقبلت الدولة على الهرم

وساه من وجوه لأن لها تقتضي الانفراد بمجد، كما قلده، ومهم كالمجد مشترك بين العصاة وكان سعيهم به واحداً كانت همهم في التعب على لعبير والذب عن اخوة إسوة في صمودها وفوق شكائهم ومهم إلى لعمري جميع فهم يستطيعون الموت في ساء محدهم ويؤثرون الهبة على مساه وإد انفرادوا واحداً منهم بمجد، فرح عصيتهم وكبح من غيهم واستأثر بالأمون دونهم. فنكاسوا عن نعز، وفش ريجهم ورثمو ندلة والاستعداد.

ثم ربي حين شبي منهم على ذلك، بحسب ما سألهم من الأعضاء أخرى من السبب لهم على الحماية والمعونة، لا يخرى في عقوبهم سوء وفش أن يسأخر أحد نفسه على الموت، فيصير ذلك هماً في الدولة وحصة من لشوكة، ونفس به على ما حي يصعب؛ الهرم بمجد عصية مذهب ليس من هبهم

لوجه لشيء ضيقة لم تقتضي شرف، كما قدمه فتكثر عودهم ويزيد لمقتهم على عطيتهم، ولا يعني حرهم بمجدهم ومقتير منهم يهت، وانثرف يتسغرق عطاءه برفه ثم يردد ذلك في أحيانهم المتأخرة إلى أن

بفصل الأعضاء كنه عن لُرف وعوثة ومسهمة الحاجة. ويطلبهم ملوكهم
محصر عقبتهم في لغزو وخراب، فلا حدود ولا حجة عنها فيوقعون بهم
اعتقوبات، لا يراعون ما في أيدي الكثير منهم، يستأثرون به عليهم أو يؤثر
به نساءهم وصناع دولتهم فصنعون لهم نكاحاً عن إقامة أحوالهم، ويضعف
صاحب الدولة بصعقتهم

وبصاف لُرف مفسر بحقق ي يحصل في النفس من ألبان لشر
والسفسفة وعوائدها، كما تأتي في فصل خصاصة فيذهب منهم حلال الحبر
لتي كست علامة على ملك ودليلاً عنه، ويتصفون به بصفتها من حلال
الشر، فتكون علامة على لإدبر ولا تفرص ي جعل له من ذلك في حقيقته
وأنحد دولة مبادئ العطب وتتصعصع أحوالهم، ونزل بها أمراض مزمنة من
الهمم إلى ب فصي عديها

لوحه الثالث، أن طبيعة الملك تقتضي لدعه، كما ذكرناه، وإذا اتحدوا
البدعة والراحة متأ وحقاً صار لهم طبيعة وحيلة، شأن لغوئد كنه وريالها
ممرى احداثهم اخادثة في عصارة العيش ومهد لترف و لدعة، ويصعب خلق
لنوحش، ويسوء عوائد البدوة لتي كست بها امك، من شدة الأس وتعود
الافتراض وركوب السوء وهذاية الفقر فلا يفرق بينهم وبين لسوقة من
احصر إلا في الثقافة والشرة فتضعف حميتهم، وينهب بأسهم، ونحصد
شوكتهم ويعودون ذلك على الدولة، كتنسب به من ثياب نهرم

ثم لا يربون يتبعون عوائد الترف والخصاصة والسكوب و لدعة ورقة
احشية في جميع أحوالهم ويعمسون فيها، وهم في ذلك يعدون عن
لدعة وخشونة ويسبحون عنها شئ شئ، ويسبون حق المسالة لتي
كست بها حمديه ومُدفعه، حتى يعودوا عيالاً على حامية أخرى إن كانت
لهم

وغير ذلك في لدول لتي أحارها في الصحف لديك تجد ما قلته لك من
ذلك صحيحاً من عبر رينة والله وارث لأرض ومن عليها.

[14] في أن الدولة لها أعمار طبيعية كالأشخاص

عمر أذن العمر الطبيعي للأشخاص على ما زعم الأطباء والمجموعون مائة وعشرون سنة، وهي سنو القمر الكري عند المحمين. ويختلف العمر في كل حيل بحسب القرات، فيزيد عن هذا وينقص منه. فتكون أعمار بعض أهل القرات مائة تامة، وبعضهم خمسين أو ثمانين أو سبعين، على ما تقتضيه أذن القرات عند البشرين فيها. وأعمار أهل هذه المدة ما بين الستين إلى السبعين، كما في الحديث. ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي هو مائة وعشرين إلا في الصور لدرجة، وعلى الأوصاع الغربية من الفلك، كما وقع في شأن نوح عليه الصلاة والسلام وقيل من قومه عدد وثمود.

وأعمار الدول أيضاً، وإن كان يختلف بحسب القرات، إلا أن الدولة في أعقاب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال والحيل هو عمر شخص واحد من عمر الوسط، فيكون أربعين، الذي هو انتهاء لنمو والنشوء إلى عيته. قال تعالى حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة. ولهذا قلنا إن عمر لشخص الواحد هو عمر الحيل.

ويؤيده ما ذكره في حكمة التيه نذري وقع لني سرييل، وأن المقصود بالأربعين فيه ماء الحيل الأحياء وشاة حيل آخر ثم يعهدوا الدل ولا عرفوه قدر على اعتبار الأربعين في عمر الحيل التي هي عمر الشخص الواحد.

وإذا قلنا أن عمر الدولة في العال لا يعدو ثلاثة أجيال، لأن الجيل الأول لم يزالوا على خلق البدوة وحشوتها وتوحشها، من شظف العيش ونبسالة ولا فتراس والاشتراك في المجد، فلا تزار بذلك سورة العصية محفوظة فيهم. فحدثهم مرهف، وحاسبهم مرهوب، ولباس لهم مغلّبون

والجيل الثاني تحوّل حالهم بالملك والرفه من البدوة إلى احصارة، ومن الشظف إلى الترف والخصب، ومن الاشتراك في المجد إلى إنفراد الواحد به وكس للباقيين عن السعي فيه، ومن عز الاستقلة إلى دل الاستكنة فتكسر سورة العصية بعض الشيء ويؤنس منهم المنهدة والخصوع، ويبقى لهم الكثير من ذلك، بما أدركوا خيل الأول، وندشروا أحوالهم وشهدوا من عزّازهم وسعيهم إلى المجد وتراميهم إلى المدفعة والحماية. فلا يسعهم ترك ذلك بالكلية، وإن ذهب منه ما ذهب. ويكونون على رجاء من مراعاة الأحوال التي كانت للجيل الأول، أو على ظن من وجودها فيهم.

وأما جيل الثالث، فينسون عهد البدوة واخشونة، ويفقدون حلاوة لعز والعصية بما هم فيه من ملكة الفهر، وبلغ الترف فيهم عايتة بما تنكوه من اللعم وغصارة العيش. فيصيرون عبالاً على الدولة ومن جملة النساء والولدان لمحتجين للمدافعة عنهم. وتسقط لعصية باحمة، ويسون الحماية والمدافعة والمطالبة، وينسبون على لئس في الشرية والنزي وركوب الخيل وحس الثقافة، يمّوهون بها وهم في الأكثر أحسن من لئسوا على ظهورهم. فإذا جاء المطالب لهم لم يقاومو مدافعتهم، فبفتح صاحب الدولة حينئذ إلى الاستظهار بسواهم من أهل لحدّة، ويستكثر من لموالي، ويصطنع من يعي عن الدولة بعض الغناء، حتى يأد الله ناقر اصهب، فنذهب الدولة بما حملت

فهده، كما تراه، ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتحققها وقد تبيث فيه ببرهاد طبعي طاهر، مبني على ما مهّنه قبل من المقدمات، فتأمنه فلن يعدو وجه لخر إن كنت من أهل الإصاف

وهذه الأحيال الثلاثة أعمارها مائة وعشرون سنة، على ما مر. ولا تعدو الدولة في الغالب هذا العمر تقريبا قبله أو بعده، إلا بـ عرض لها عرض آخر من فقدان المظالم. فيكون لهم حاصلاً مُستَوَلٍ والمظالم به يحصرها، ولو قد جاء المطالب واحد مدافعاً فإذا جاء أحدهم لا يتأخرون ساعة ولا يستقدمون.

وهذا عمر لدولة بمثابة عمر الشخص من لتزيد إلى سن لو فوف ثم إلى سن الرجوع ولهذا يجري على السنة لباس في المشهور أن عمر لدولة مائة سنة وهذا معناه فاعتبره، واتخذ منه قنواً يصحح لك عدد الأبناء في عمود النسب الذي تريده من قبل معرفة لسنين المصيبة، إذا كنت قد استترت في عدتهم وكانت المسون المصيبة مد أولهم محصنة لديك فعندئذ تكون مائة من النسيب ثلاثة من الأبناء، فإن عدت على هذا لقياس مع عمود عددهم فهو صحيح. وإن نقصت عنه حيل فقد عبط عددهم بزيادة واحد في عمود النسب، وإن زادت مثله فقد سقط واحد. وكذلك تأخذ عدد النسيب من عددهم إذا كان محصلاً لديك. فتأمل له نحوه في الغالب صحيحاً والله مقدر ليس والنهر

[15] في انتقال الدولة من البداوة إلى الحضارة

عنه أن هذه الأطوار صعبة البدوة. فإن لعب الذي يكون به أنت إما هو العصاة وما يتبعها من شدة الدس وتعود الافتراض، ولا يكون ذلك عدلاً. لا مع البداوة فصور الدولة من أولها بدوة.

ثم إذا حصل ذلك تبعه سرفه واتسع الأحوال والحضارة إلى هي نفس في شرف وحكم لصانع المستعملة في وحوه ومداهيه، من المطامح والملابس والمشي والفرش ولأنيب وسائر عوائد امرل وأحواله فكل واحد منها صنائع في استحداثه ونتاج فيه تحتص به ويتنو بعضها بعضاً وتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتلعب بأحوال الترف. وما تنوب به من العوائد.

فصور طور حضارة ليست يتبع طور البدوة ضرورة، لضرورة تعبئة لرفه ليست وأهل الدول أبدأ يعدون في طور الحضارة وأحوالها بدولة الساعية قبهم فأحوالهم يشهدون، ومهم في ألعاب يأخذون.

ومثل هذا وقع معرب ما كان الفتح ومكوا درس والروم، واستخدموا سائهم ونساءهم، ولم يكونوا لذلك لعهد في شيء من الحضارة فقد حكى أنهم قدم لهم لرقق، فكم يحسبونه رفعة، وعثرو على الكافور في حراش

كسرى فاستعموه في عجينهم ملحاً، ومثال ذلك. فلما استعدوا أهل الدول قسهم وستمعوه في مهنهم وحاجات مآزلهم، واختاروا منهم المهرة في أمثـر ذلك والقومة عنيه، أودوهم علاج ذلك و لقيم على عمه والتقى فيه، مع ما حصـر لهم من تساع العيش والتقى في أحواله فملغوا لغاية في ذلك، ونطـوروا سطور الحصارة و تترف في الأحوال واستجداة المطعم والمشارب والعناء والملابس والمباني والأسلحة ولـمرش والآية وسائر المعون والحـرثي، وكذا أحوالهم في أيام لمـهاة والولائم وليالي الأعراس، فتو من ذلك وراء الغاية.

وانظر ما نقيه المسعودي والطبري وغيرهما في عراس المأمون بـوران وما بذل أبوه خاشية لمأمون حين وافاه في حظتها إلى داره فلم نُشـح، وركب إليها في السفين، وما أنفق في ملاكها، وما سحبهـا المأمون وأنفق في عرسها، تفق من ذلك على العجب. فمنه أن احسن ابن سهل ثـر يوم لإملاك في الصنيع لذي حضره حاشية لمأمون، فنثر على طبقة الأولى منهم سادق المسك مثوثة على الرقاع بالصناع والعقد، مسوعة لمـر حصلت في يده، يقع لكن واحد منهم ما أداه إليه الاتفاق والسحت وفرق على الطبقة اشائية بدر الداسير، في كل بدرة عشرة الاف وعلى الطبقة لأخيرة بدر الدراهم مثنها، بعد أن أنفق في مقامة المأمون بداره أضعف ذلك ومنه أن المأمون أعطاها في مهرها ليلتـذ ألف حصاة من الياقوت، وأوقد شموع لعنـر، في كل واحدة مائة من، وهو رطل وسط لها فرشاً كان الحـصير منها منسوحاً بالذهب، مكللاً بلدر والياقوت. وقال لمأمون حين رآه: قاتل الله أبائوس، كأنه أنصر هذا، حيث يقول في صفة الخمر.

كأن صغرى وكسرى من فواقها حصاء در على أرض من لذهب

وأعد بدار الطيخ من لحطب لليلة الوليمة نقل أربعين بغلاً مدة عام كامل، ثلاث مرات في كل يوم، وفي الحطب للميتئذ. وأوقدوا أحريد بصور عبيه الزيت، وأوعز إلى النواتية بإحصار السمن لإجاجة الخواص من الناس بدجة من بغداد إلى قصر الهاشمية لحصور الوليمة بدار السلطان، فكانت الحرقافات المعدة لذلك ثلاثين ألفاً أحزوا للناس فيها أخريت بهارهم. وكثير من هذا وأمثاله وكذلك عرس المأمون بن دي النوب طُبطِطَلة، نقله اس تسام في كتاب الذخيرة، وس حسان، بعد أن كانوا كلهم في الطور الأول من لدواة عاجزين عن ذلك جملة لفقدان أسانه والقثمين على صنائعه في غصاصهم وسداحتهم. يذكر أن الحجاج أولم في إحتان عص ولده، فاستحضر بعض ادهاقين يسأله عن ولائم الفرس وقال له : أحريي بأعظم صبيغ شهدته

فقل 'نعم، أيها الأمير، شهدت بعض مرة كسرى قد صبيغ لأهل فارس صنيغاً أحضر فيه صحاف الذهب على أحوة الفضة، أربعاً على كل واحد، ويحميه أربع وصائف، ويجلس عليه أربع من الناس. فإذا ضعموا أتعوا أربعتهم المائة بصحافها ووصائفهم.' فقال الحجاج 'يا غلام، حمر خزور، وضعم للناس وعلم أنه لا يستقل مثل هذه لأبهة

وكذلك كانت من هذا الباب أعطية سي أمية وجوائزهم فلما كان أكثرها الإبل، أخذ مذاهب العرب وبدوتهم. ثم كانت الجوائز في دولة بني العباس والعبيديين ومن بعدهم ما عنمت من أحمال المال، ونخوت لثيب، وعدد الحيل عمر كبه.

وهكذا كان شأن كتامة مع لأعالة بإفريقية وسي طُعبج بمصر، وشأن لمتوة مع ميوك الصوائف بالأندلس، والموحديين كذلك، وشأن رناتة مع الموحديين، وهم حراً، تنقل الحاصرة من الدول لسالقة إلى الدول خلقة.

فانتقلت حضارة الفرس للعرب، بني أمية وبني العباس. وانتقلت حضارة بني أمية بالأندلس إلى ملوك المغرب، من الموحديين وريانة لهذا العهد وانتقلت حضارة بني العباس إلى الترك بمصر والشر بالعراقيين.

تفقر الدولة من لدولة إلى حصاره

وعنى قدر عظم للدولة يكون شأنها في الحصار، إذ أمور الحصار من
نوع الرف والترف من أنواع لثروة والنعمة، والثروة والنعمة من أنواع
لملك ومقدر ما يستولى عليه أهل الدولة فعنى نسبة الملك يكون ذلك كـ،
فعتبره وتفهّمه وتأمّنه تحده صحيحاً في العمران
والله وارت الأرض ومن عليها

[16] في أن الترف يزيد الدولة قوة إلى قوتها⁽¹⁾

و نسب في ذلك أن القليل يد حصل لهم الميث والترف كثر التمدد والولة والعمومية. فكثرت العصاة، و سكثروا أيضاً من الموالى ولصنيع، و ربيت أحيائهم في حو ذلك لعبه والرفه، فاردوا بهم عدد إلى عددهم وفوة إلى قوتهم بسبب كثرة اعصائب حسنة كثرة لعدد فإد ذهب حين الأول والثاني وأحدث الدولة في الهرم، لم يتسقى وثك الصنيع والموالى أنفسهم في تأسيس الدولة وتمهد منكمها، لأنهم ليس لهم من الأمر شيء، إنما كانوا عبلاً على أهلها ومعونة لها فإد ذهب الأصل، لم يستقر صرع بارسوخ. فذهب ويتلاشى، ولا تبقى الدولة على حالها من القوة

و عثر هدا وقع في الدولة العربية في الإسلام. كان عدد العرب، كما قناه، العهد النوبة والخلافة مائة وخمسين ألفاً أو ما يمايرها من مصر وقنطار ولما ساع لترف ماله في الدولة وتوقر بموهم تنوهر بعمه، واستكثرت الخلفاء من الموالى ولصنيع، بلغ ذلك العدد إلى أضعافه، يقل إن المعتصم نازر

١ ستر عور هـ هـ مفصل في (ب)

عُمُورِيَّةٌ مُدْفِتَتْهَا فِي تِسْعِمِائَةِ أَلْفٍ ، وَلَا يَبْعَدُ مِثْلُ هَذَا لَعْدَدُ أَنْ يَكُونَ
صَحِيحاً إِذْ اعْتَبَرَتْ حَامِيَّتُهُمْ فِي الشُّعُورِ الدَّابَّةِ وَلِقَاصِيَةِ شَرْقٍ وَعَرَبِيًّا ، إِلَى
خَدِّ حَمِيْنِ سَرِيْرِ الْمَلِكِ وَالْمُوَالِي وَالْمُصْصَنَعِيْنَ
وَقَالَ لِمُسْعُوْدِي . أَحْصِيْ نَوَ الْعَدَسِ بِنِ عَدَدِ مِصْبِ حَصَّةٍ أُنَامُ لِلْمَأْمُوْنِ
ثَلَاثِمِائَةٍ عَلَيْهِمْ ، وَكَانُوا ثَلَاثِيْنَ أَلْفًا بِيْنَ ذِكْرَانِ وَإِيَّاتِ . فَانْظُرْ مَالِعَ هَذَا الْعَدَدِ
لَأَقْلَ مِنْ مِائَتِي سِتَّةٍ ، وَاعْلَمْ أَنَّ سِسَّةَ لِرَفِهِ وَلِنَعِيْمٍ لِدِي حَصْلٍ لِلدَّوْلَةِ ، وَرَبِيْ
فِيهِ أَجْيَالُهُمْ وَإِلَّا فَعَدَدُ لِعَرَبٍ لِأَوَّلِ الْفَتْحِ لَمْ يَبْلُغْ هَذَا وَلَا قَرِيْباً مِنْهُ
وَلَهُ الْخِلَاقُ الْعَلِيْمُ

[17] في أطوار الدولة واختلاف أحوالها باختلاف الأطوار¹

اعلم أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة، ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقاً من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر، لأن الخلق تابع بالطبع لمزاج الحال لذي هو فيه وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة أطوار الأول، طور الظفر بالمغية وعلب المدفع والممانع والاستلاء على الملك وانتزاعه من أيدي الدولة السافرة قبلها، فيكون صاحب الدولة في هذا الطور أسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال وصدقة عن الخوزة والحماية، لا ينمرد دويهم شيء، لأن ذلك هو مقتضى لعصية التي وقع بها العلب، وهي لم تزل بعد بحالها.

الطور الثاني، طور الاستداد على قومه والانفراد دويهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور معيباً باصطناع الرجال واتحاد الموالى والصنائع، والاستكثار من دث لجذع أنوف أهل عصبيته وعشيرته. المقدسين له في نسبه، انصارين في الملك تمثل سهمه.

1 في أطوار الدولة واختلاف أحوالها ونسب أهلها باختلاف الأطوار [ب]
في [] يصير كلمة "حو" وكلمة باختلاف

فهو يدفعهم عن الأمر ويصدّهم عن موّده، ويردّهم على أعقابهم،
يحتضو إليه حتى يقرّ الأمر في نصبه، ويعرد أهل سته على يميني من محدّه
فيعسي من مدافعتهم ومعالجتهم مثل ما عده الأولون في طبّ الأمر وأشدّ،
لأنّ الأولين دفعوا لأحباب فكاد زهرؤهم على مدافعتهم أهل العصية
تجمعهم، وهذا يدفع الأقارب ولا يظاّره على مدافعتهم إلا الأقل من
لأبعد فيركب صعباً من الأمر

الطور الثالث، طور نزع والدعة تحصيل ثمرات الميث كما تنزع صاع
النشر إليه من تحصيل المال وتوحيد الآثار وبعد الصيت فستمرّع وسعه في
الحنية ووسطه ندخل وخرج وإحصاء لمعقات ونقصدها، وتشديد لمسي
خوفه ومصاع لعظيمه ولأصدر المسعة والهيكل سرعته، وإحازة النوفود
من شراف الأمم ووجوه العيول، وث الث المعروف في أهله. هذا مع اتوسعة
على صنائعه وحاشيته في أحوالهم بادل والحذو وعراض حدوده وإدرا
دراهم وإصافهم في غصينهم نكل هلال، حتى يظهر أثر دك عبيهم في
ملابسهم وزيهم وشكتهم أيام لربة، فيدهي بهم الدون المنسلة ويرهب
لدون المحذرة وهذا صور حراطور الاستبداد من أصحاب الدولة، لأنهم
في هذه الأطور كلها مستفنون بآرائهم، لدون نعرهم، موضعون لطرق لمن
عدهم

لطور الرابع، طور الفواح والمسانة ويكون صاحب دولة في هذا قانعاً
بما يبي أولوه، سماً لأنظاره من الملوك وقتله، ممتداً بمصاصين من سعه، يتبع
آثارهم حدود العن بالعين، ويقتني طرقهم بأحسن مدهج الاقصداء، ويرى أن
في خروج عن تقلدهم فساد أمره وأنهم أضربوا بما سوا من محدّه

لصور الخامس، طور الإسراف والتسدير ويكون صاحب الدولة في هذا
طور مبعداً لما جمع أولوه في سبيل لشهوات والملاذ ولكرم على مصنفها
وفي محاسنها، واصطنع أجداد السوء وحصرء ابدمن وتقلدهم عظيمات
الأمر التي لا يستقيمون بحمدتها ولا يعرفون ما يتوبون وما يدرون منها،

مستفسداً لئلا يُدَّعى من قومه هـ صناع سبعة حتى يضطربوا عليه
وينحادلو عن بصرته. مصيغاً من حده مما يثق أعظيتهم في شهواته وحب
عهم وجه مباشرته وثقده فيكون مخرباً ما كان سبعة يؤسسون. وهادماً ما
كانوا يبنون وفي هذا صور تحصل في الدولة طيبة الهرم ويستولي عليها
لمرض المرمم الذي لا يكاد تخصص منه ولا يكون لها معه برء إلى أن تقرص،
كما نبيه في الأحوار نبي بصردها
وننه حير انور ثمر

[18] في أن اثار الدول كلها على نسبة قوتها في أصلها

والسبب في ذلك أن الأثر إلى تحدث عن القوة التي بها كادت أولاً، وعلى قدرها يكون الأثر. فمن ذلك مايلي لدولة وهيكلها لعظيمة، وإنما تكون على نسبة قوة الدولة في أصلها. لأنها لا تتم إلا بكثرة الفعلة و حتماع الأيدي على العمل والتعاون فيه. فإذا كانت الدولة عظيمة، فسبحة اجواب، كثيرة الممالك والرعايا، كان لفعلة كثيرين حدًا، وحشروا من آفاق الدولة وأقطارها، فتم العمل على اعظم هياكله

ألا ترى إلى مصانع قوم عاد وثمود وقصه القرآن عنها. وانظر بالمشاهدة إخوان كيشري وما اقتدر فيه لفرس، حتى أنه اعترم لرشيد على هدمه وتخريبه، فتكادعه وشرع فيه، ثم أدركه العجز. وقصة استشارته بحبي بن خالد في شأنه معروفة. فبظر كيف تقتدر دولة على بناء لا تستطيع أخرى على هدمه، مع كون ما بين الهدم والبناء في السهولة، تعرف من ذلك كون ما بين لدولتين. وانظر إلى بلاط لوليد بن ممشق وجامع بني أمية بقرطبة، والقنطرة لتي على واديهما، وكذلك بناء الحيايا لخلب الماء إلى قرطاجنة في لقاة الركبة

عليها، واثار شِرْشَال وكثير من هذه الآثار الماثلة لُعيون تعلم منه اختلاف الدود في القوة والضعف.

واعلم أن تلك لأفعال للأقدميين إما كانت بالهتدام وباحتماح لعملة وكثرة لأيدي عليها، فذلك شيدت تلك الهياكل والمصنع ولا تنوهم ما تنوهم العمة أن ذلك لعظم أحسام الأقدميين عن أحسامنا في أطرها وأقطارها. فليس بين البشر في ذلك كبير بون كما يحدث بين الهياكل والآثار ولقد ولع القصص بذلك وتعالو فيه، وسطرو عن عاد وثمود والعمالق أحباراً عريقة في الكذب، من أعربها ما يحكون عن عوج بن عذق، رحر من الجاهلية، الأولى زعموا أنه كان لطوله يتناول لسمك من لبحر ويشويه في لشمس ويزيدون إلى جهنهم بأحوال البشر لجهل بأحوال الكوكب، لما اعتقدوا أن للشمس حرارة، وأنها شديدة فيما قرب منها، ولا يعلمون أن حر هو الصوء، وأن الصوء فيما قرب من الأرض أكثر لانعكاس الأشعة من سطح الأرض مقابلة الأصوء، فتتصاعف الحرارة هن لأحر ذلك. ورد تحورت مظارح لأشعة انعكسه فلا حر هالك، بل يكون فيه البرد حيث محاري السحب وإث الشمس في نفسها لا حارة ولا برودة، بما هو جسم بسيط مصيء لا مزاج له.

وكذلك عوج بن عناق هو فيما ذكروه من العمالة الذين كانوا فريسة بني سرئيل عند فتحهم لشم، وأطول بني إسرائيل وحتمهم لذلك العهد قريب من هياكلنا، تشهد لذلك أبو ب بيت المقدس، فإنها وإن حرت وحددت لم تترك المحافظة على أشكالها ومقادير ثوبها. وكيف يكون لتفوت بين عوج وبين أهل عصره بهذا المقدار؟

وإي مثار علطهم في هذا أنهم استعظموا ثار الأمم ولم يفهموا حل الدول في لاجتماع والتعاون وما يحصل بذلك والهندام من الآثار العظيمة فصرفوه إلى قوة الأحسام وشدها عظم هياكلها، وليس الأمر كذلك

وقد رعم المسعودي ونقته عن العلامه مرعماً لا مسند له إلا لتحكم، وهو أن الطبيعة التي هي حبة للأجسام لا يرأ الله لخلق كنت في تدم الكثرة وبهية القوة ولكمال، فكانت لأعمار أطون، ولأحسام أقوى، لكمار تلك الطبيعة فإن صرء لموت إنما هو بالحلل لقوى لطيفية فإد، كنت قوية، كنت لأعمار أزيد فكان العالم في أوله ثمانه تام الأعمار، كمال لأحسام ثم لم يزل ينقص بفضان، مدة إلى أن بع هذه حار التي هو عنها ثم لا يزال ينقص إلى وقت الانحلال وقرص العالم

وهذا رأي لا وجه له إلا التحكم، كما نره، وليس له عنة صعبة ولا سب برهاني. ونحن نشاهد مساكن الأولس ونواهم وصرهم فيما أحدثوه من السنين والهياكل والديار والمساكن، كدار ثمود لمحتوة في المصد من الصحر بيوتاً صغيراً وأبواباً صيفة، وكذلك نأرض عدد ومصر ولشم وسائر بقاع الأرض شرقاً وغرباً وحق ما قررناه

ومن آثار لدور أيضاً حلها في نعراصة واللائم، كما ذكرناه في وئمة نوران وصنيع الحجاج وس ذي لمون وقد مر ذلك كله

ومن آثاره أيضاً عظام الدور، وأنها تكون على سستها، ويظهر ذلك فيها ونو شرفت على الهرم. فإن لهمم التي لأهل الدولة تكون على سنة قوه ملكهم وعندهم ساس ولهمم لا ترب مصاحبة لهم إلى بقرص الدولة

واعتبر ذلك حوثر اس دي يزب لوفد قريش، كيف أعطاهم من أرض الذهب والفضة والأعد والوصائف عشر، عشر، ومن كرش العسر و حدة، وأضعف ذلك بعشرة أمثله بعد المصطب. وإنما مكنه يومئذ قرارة اليمن حصة، تحت اسدد فارس وإلى حممه على ذلك همة نفسه، بما كان لقومه التدعة من الملك في الأرض وانعب على الأمم في العرقين ولهمم المعرب وكان الصنهاحيون بإفريقية أيضاً إذا أحرروا الوف من أمره رمانه نوهدين عبيهم، فأى يعطونهم المأ أحماً وكساء تحوناً بموءة واحمالا حنن عديدة. وفي تريح س ارفيق من ذلك أخبار كثيرة

وكذلك كان عطاء امر مكة وحوائرهم ونفقاتهم وكسوا إذا أكسوا معدماً
فيمت هو لميت وولاية واسعة آخر الدهر، لا العطاء ندي يستفده يوم أو
عص يوم وأحذرهم في ذلك كثيرة مسطوره وهي كلها على سنة الدول
حارية

هذا جوهر نصيبي الكاتب، قد جيش العبيدين لما ارتحل إلى فتح مصر
استعد من ثيرون بألف حمل من المال، ولا تنتهي ليوم دولة إلى مثل هذا
وعتبر ذلك في سب الدول بعصها إلى عص، ولا سكرن ما ليس بمعهود
عندك ولا في عصرك شيء من أمثله، فتصيق حوصلتك عن متقط
نمكات فكثير من خواص يد سمعوا أمثال هذه لأخبار عن لدول لسابقة
بادر بالانكسر، وليس ذلك من الصوب في أحول لوجود والعمران
متقوتة ومن أدرك منها رتة سمى أو وسطى، فلا يحصر بمدارك كلها فيها
وحسب يد عتبر ما يقفل له عن دولة بني العباس وسي أمية والعبيدين،
وفيسا، الصحيح من ذلك والذي لا شك فيه أندي شاهده من هذه الدول
نتي هي قل بسنة إبيها، وحده بينها نون وهو لما يبيها من التفات في أصل
قوتها وعمران مملكتها، فالأثار كلها حارية على سنة الأصل في بقوة، كما
قدمه، ولا يسعنا إكر ذلك عنها إذ كثير من هذه الأحوال في غاية الشهرة
وأنصوح، بل فيها ما يحق للمستفص والمتوتر، وفيها المعايير وشاهد من
تد الساء وغيره

فحد من الأحوال منقولة مراتب دول في قوتها أو ضعفها وصحمتها
أو ضعفها، واعتبر ذلك في بعصه عندك من هذه الحكاية المستطرفة، وذلك
أنه ورد على المعرب لعهد السلطان أبي عبد من موك بني مرس رحل من
مشيحه طحة، يعرف بس بطوطة، كان رحل منذ عشرين سنة قبلها، إلى
المشرق وتقمب في بلاد المعروف وأيمن والهند، ودخل مديته دني، حاضرة

مك الهد، وتصل بمكهد ذلك العهد، وكان له منه مكان، واستعمله في حصة
نقصاء بدهب، المالكة في عمه، ثم انقلب إلى نعر، وانصل بانسطان، أبي
عبان

وكان يحدث عن شأن رحمة وما رأى من تعجائب عمك لأرض وأكثر
ما كان يحدث عن دوة صاحب الهد ويأتي من أحواله ما يستعربه
اسامعون. مثل أن مك الهد إذا حرج للسفر حصى أهل مدينته من الرجال
والنساء وأولادهم وفرص لهم رزق ستة أشهر تدفع لهم من عطائه وأنه عند
رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبر فيه الناس كافة إلى صحراء الهند
ويطوفون به، ويُنصب أمامه في ذلك حصن مُحَيَّق على الطهر ترمى بها
شكائر لدراهمه والديار على الناس إلى أن يدخل إياها. ومثل هذه
الحكايات. فتناحى الناس تكديبه، ولقيت أن يومئذ في بعض الأيام وزير
السلطان فارس وس وذرار نُعيد النصيب. فهاوصته في هذا، لشأن وريته إنكر
أخبار ذلك لرحل لما ستمض في الناس من تكديبه، فقال الوزير فارس: 'إني
إنيك أن تسكر مثل هذا من أحوال لدول ما أنك لم تره. فتكون كان الوزير
الناس في السجن. وذلك أن وزيراً اعتقه سبطاه، ومكث في السجن سبعين
يوم فيها أنه في ذلك المحبس فما أدرك وعقل، سأل عن الحمام التي كان
يعتدي بها. فإذا قال له أنه: هذ لحم الغنم، يقول: 'وما الغنم؟ فصصها له
أنه شباتها، ويعوتها فيقول: 'أنا أنت، تراها مثل لقار؟ فيكر عيه، ويقول:
أب لغنم من الفأر؟ وكذا في لحم البقر والإبل، إذ لم يعين في محسسه من
الحيوانات إلا الفأر، فيحسها كلها أناء حنس لقار. وهذا كثيراً ما يعتري
الناس في الأخبار، كما يعتريهم الوسواس في زيادة عند قصد الإغراب،
كما قدمناه أول لكتب. فليرجع الإنسان إلى أصوله، وليكن مهيماً على
نفسه ومميزاً بين طبيعة الممكن ومنتع بصريح عقله ومستقيم فطرته فما دخل
في نطاق الإمكان منه، وما حرج عنه رفصه. وليس مراد الإمكان العقلي
المصنوع، فإن صدقه أوسع شيء، فلا يعرض حداً بين الواقعات. وإني مرادنا

الإمكان بحسب المدة التي للشيء فيإد بطرأ أصل الشيء وحنسه صفه
ومقد ر عظمه وقوته أجرينا الحكم من ستة ديك على أخوانه وحكمه
بالامتناع على ما حرح من نطقه
وقل رب ردي عملاً.

[19] في استظهار صاحب لدولة على قومه وأهل عصبته

بالموالي والمصطنعين

علم أن صاحب الدولة بما يتم أمره، كما قبله، بقومه فهم عصبته
وظهروا على شأنه، وبهم يقايع الحوارج على دولته، وبهم يقلد أعمال
مملكته ووزارة دولته وحياة أمواله لأهلهم، أعوانه على لعب وشركاؤه في
الأمر ومساهموه في سائر مهنته

هذا ما دام أطوار لأول لدولة، كما قبله، فبداء أطوار شبي، وهو
ظور الاستعداد عنهم ولا مخرج من أحد ودفعهم عن ساحتهم، صاروا في حقيقة
الأمر من بعض أعدائه، واحتاج في مدافعته عن الأمر وصدهم عن انشراكه
إلى أوثياء آخرين من غير حديدهم، يستظهر بهم عندهم ويتولاهم دونهم
فيكونون قرب له من سائرهم وأخص به قرباً وصداً وأولى إيثاراً وحناناً
أنهم يسميتون دونه في مدافعة قومه عن الأمر الذي كان لهم وإبنة النبي
ألفوه في مشاركتهم

فيستحصلهم صاحب الدولة حينئذ ويحصلهم تزييد لتكرمه وإيثار
ويقسم بهم مثل ما لتكثير من قومه، ويقبضهم حينئذ لأعمال والولايات من
الوزارة والقيادة والحماية وما يحصل به نفسه ويكون حاصلة له دونه قومه من
ألقاب المملكة لأهلهم حينئذ وأقربوه لأقربوه ويصحبوه منحسور ودلت

حينئذ مؤدب مهتصم لدولة وعلامه على المرص لمزمن فيها لفساد لعصبية
التي كره بها العيب عيبها ومريض فرب هين لدولة حينئذ من لأمهين
وعدوة لسطر مضطعور عنه، ويتبرصوب به لدوائر ويعودون ذلك
على لدولة، ولا يظنع في ربها من هذ الداء لأنه ما مضى يتأكد في
لأعقاب بني أن يذهب رسمها

و غير ذلك في دولة بني أمية، كيف كانوا يستظهرون في حروبهم وولاية
عصمتهم برحون لعرب مثل عمرو بن سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن زيد
بن أبي سفيان، وأخجاج بن يوسف، ومهتب بن أبي صفرة، وحله بن عبد
لله لفسري، وبي هبيرة، وموسى بن نصير، وبلال بن أبي نردة بن أبي
موسى لأشعري، ونصير بن سدر، وأمثالهم من رحالات العرب. فمما صارت
لدولة للانفراد المجد وكبح لعرب عن التطول للولايات، صارت المورارة
بعجم وأصابع من لمر مكة وبنى سهل بن نوحث وبنى طاهر ثم بني لونه
وموالي لترك مثل عا ووصف ورماش واس طووب وسانهم، وغير هؤلاء
من موالى لعجم فصير لدولة لعير من مهدها والعرب لعير من حنسه، سنة
به في عده

١ كان ساء لعيب [ب]

٢ نومش [ب] و صحیح دمشق، كما في المخطوطات المأخوذة

[20] في أحوال الموالى والمصطنعين في الدول

عدم أن المصطنعين يتدنونون في لانتحام صاحب الدولة نفادتهم في
القدم والحدوث والسبب في ذلك أن مقصود في العصبية من المدافعة
والمعلنة بما يتم بالنسب، لأحر لتناصر في دوي لأرحام والقربى والتخاذل
في الأجانب والعداء، كما قدمناه. ولولاية ومحاطة بالرفق أو بالخلف تنزل
منزلة ذلك لأن أمر النسب وإن كان طبيعياً فإنما هو وهمي. والمعنى الذي
كان به الانتحام إنما هو العشرة والمرافقة وطول الممارسة والصحة بالمرى
ولرصد وسائر أحوال الموت وأحياءه وإذا حصل للانتحام بذلك حياء
لعة ولتناصر وهذا مشاهد بين الناس.

وعتبر مثله في الاصصاع، فإنه يحدث بين المصطنع ومن صطنعه نسبة
خاصة من الوصية تنزل هذه المنزلة وتؤكد لنعمة. وإن لم يكن سبباً
فتمت النسب موحودة.

وإذا كانت هذه الولاية بين الفصيل وبين أولادهم قبل حصول الملك لهم،
كانت عروقتها وشج وعقدانها أصبح وسببها أصبح سوحين. الأول أنهم قبل
الملك إسوة في حالهم، فلا يتميز النسب عن لولاية إلا بعد لأقل منهم
فيتربون منهم نسبة دوي قرباهم وأهل رحاهم وإذا اصطنعوههم بعد

الملك، كانت مرتبة الملك مميزة لسيده عن الموالى، ولأهل لقراءة عن أهل
الولاية والاصطناع لما تقتضيه أحوال الرئاسة والملك من تمييز ترتب ونفوذتها
فتتبع حلالهم ويتزنون منزلة الأجانب، ويكون الالتحام بينهم أضعف،
والناصر لذلك أبعاد وذلك أنقص من اصطناع قبل الملك.

الوجه الثاني أن الاصطناع قبل الملك يعد عهده عن أهل لدولة ويحمى
شأن تلك الدخمة ويظهر بها في لأكثر النسب، فيقوى حال العصية. وأما بعد
الملك فيقرب العهد ويستوي في معرفته لأكثر، فتتبع الدخمة وتتميز عن
النسب فتضعف العصية بالنسبة إلى الولاية التي كانت قبل الدولة

واعتبر ذلك في الدول والرئاسات تحده لكل من كان صطناعه قبل
حصول الرئاسة والملك لمصطنعه تحده أشد التحاماً به وأقرب قرابة إليه،
ويتنزل منه منزلة أسائه وإخوانه ودوي رحمه ومن كان اصطناعه بعد حصول
الملك والرئاسة لمصطنعه لا يكون له من القراءة والدخمة ما للأوليين وهذا
مشاهد بالعين

حتى أن الدولة في آخر أمرها ترجع إلى استعمال الأجنبي واصطناعهم،
ولا يبسي لهم مجد كما ساء المصطنعون قبل بدولة، لقرب العهد حينئذ
بأوليتهم وإشراف الدولة على الانقراض، فيكونون مسخطين في مهاوي
الاضعة، وإنما يحمل صاحب الدولة على اصطناعهم والعدول إليهم عن
أوليتها الأقدمين وصنائعها لأولين ما يعتريهم في أنفسهم من العرة غنى
صاحب الدولة وقلة الخصب له وطره عما يطره فيه وأهل نسبه لتأكد
الدخمة منذ الحصول المتطاولة بالمضى والاتصال بسائه وسلف قومه والانتقام
مع كبره أهل بيته فيحصل لهم بذلك دلة غنية واعتزاز، فيدبرهم بسببه
صاحب لدولة ويعد عنهم بسى استعمال سواهم، ويكون عهد استحلالهم
وصنطاعهم قريباً فلا يسعون رتب المجد، ويقوى على حالهم من الإحارحية
وهكذا شأن الدول في آخرها. وأكثر ما يطلق اسم الصنائع والأول،
على الأوليين. وأما هؤلاء المحدثون فخدم وأغور
والله ولي المؤمنين.

[21] فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه

إد ستقر أنت في نصص معين ومصب و حد من القليل لندمين بالدونه
والمردوا به ودفعوا سائر أنفس عنه وتداوله سوهم واحد بعد واحد حسبت
لترشيع، فوما حدث أنتعب على انصب من ورر ثمم وحاشيتهم وسه
في الأكثر ولاية صبي صعبير أو مصعب من أهل ننت، يترشح لولاية عهد
ننه، وترشح دونه وحوله ويؤنس منه معجر عن المقام أنت، فقوم به
كفه من وزراء ننه وحاشيته وموابه وفيه، ويوري بحفظ أمره عليه حتى
يؤنس منه لاستبداد ويجمع ذلك ذريعة لمنت، فيحجب نصبي عن لانس
ويُعَوِّدَه اللدات التي بدعوه إليها ترف أحوله، ويسببه في مر عيها متى
أمكه، ويسببه نظري في الأمور السلطانية حتى يستند عليه وهو بم عوده
يعتقد أن حص السلطان من لنت إنما هو حوس لسيرير وعطاء، يصعبه
وحصبت لتمويل ولقعود مع النساء حلف الحجاب، وأن الخلل واقع والامر
والهي ومباشرة الأحوار نوكية وتفتدها من لنت في خيش ودل وتعود
إنما هو لويرير ويسببه هي ذلك، إلى أن يستحكم به صعبه اثرثه
ولاستند ويتحول أنت إليه ويورته عشيره وثناءه من بعده، كما دفع
لنني ثوبه وترك ركافور لإحشدي وعبرهم بمشرق، ونمصور من نني
عمر بالاندلس

وفد تنطق دلت نححو المععب لشانه، فمحاول على الخروج من رقة
 حجر والاستند، ويرجع انك بي بصد، ويضرب على يد المتعب عليه
 ما عتل أو دفع عن ثرتة فقط. لا أن دلت في سدر لأقل، لأن الدولة بد
 أحت في تعب لورد، ولأوليه ستمر له دلت، وفل أن تخرج عنه لأن
 ذلك إي يوحد في لأكثر عن حول الترف وشة ثناء لمث معمسين في
 نعيم، قد سوي عهد لرجوية وألقو أخلاق ادب والأطرورو عليها
 ولا يترعوب بي رئاسة، ولا يعرفون استناد من تعب إي همهم في القسوع
 بالآهة وتفن في نذات وأنوع ترف وهد تعب يكون للمواي
 والمصطنع عند ستند عشر للمث على قومهم وهر دهم به دونهم وهو
 عريض لدولة، ضروري، كما قدمه وهدا مرص لا سر لدولة مبهم لا
 في لأقل نادر
 وأنه يؤتي مكه من يشاء

[22] في أن المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك

ودلت أن الملك والسلطان حصل لأوليائه منذ أول الدولة بعصية قومه
وعصيته لتي استتعتهم حتى سحكمت له ولقومه صبغة الملك والعب
وهي لم ترر باقية، وبها يحفظ رسم لدولة ويقاؤها
وهذا المتعب وإن كان صاحب عصية من قبيل الملك أو الموالي
والصنائع، فعصيته مندرجة في عصية أهل الملك وتابعة لها، وليس لها صبغة
في الملك. وهو لا يحوز استبداده انتزع الملك ظاهراً، وإنما يحاول انتزاع
ثمراته من الأمر ونهبي وخل والعقد والإبرام والتقص، يوهم بذلك أهل
لدولة أنه متصرف عن سلطه، منفذ في ذلك من وراء احجاب لأحكامه.
فهو يتحافى عن سمات الملك وشاراته وألقابه جهده، وإن حصل له
لاستبداد، لأنه منستر في استبداده ذلك بالحجب الذي صر به السلطان
وؤلوه على أنفسهم من تقيل من أول الدولة ومعاظ عنه بالية ولو
تعرض لشيء من ذلك لنفسه عنه أهل العصية وقبيل الملك، وحولوا

الاستيثار به دونه. لأنه لم تستحكم له صنعة في ذلك تحمهم على التسليم له والانقياد، فيهدت لأول وهمة.

وقد وقع مثل هذا لعبد لرحمن بن المصور بن أبي عمر حين سما إلى مشاركة هشام وأهل بيته في لقب الخلافة ولم يقنع بما قنع أبوه وأخوه من الاستند داخل والعقد والمرسم التابعة فطلب من هشام حقيقته أن يعهد له بخلافة، فنقم ذلك عليه أبو مروان وسائر قريش، وبأيعوا لاس عم حليفه هشام بن محمد بن عبد الجبار بن الناصر، وحرحو عندهم وك في ذلك خراب دولة العامريين وهلاك المؤيد، حليفهم واستند منه سوءه من عياص الدولة إلى آخرها، واحتلت مرسم منكم وأله خير نوارثين

[23] في حقيقة المنك وأصنافه¹

منك منصوب طبيعي للإنسان، لأن قد سن أن البشر لا يمكن حبسهم
ووجودهم إلا باحتماهم وتعاونهم على تحصيل قوتهم وضرورتهم وإذا
اجتمعوا دعت المحالطة إلى المعمنة واقتضاء الحاجات، ومد كل أحد منهم
يده إلى حاجته يأخذها من صاحبه، ثم في الحيوانية من نظم ولعبوس
عصهم على بعض ويمسحه الآخر عنها بمقتضى نعصب والألفة، ومقتضى
نقوة الشترية في ذلك فيمع التنازع لمقتضى إلى مقتله، وهي تؤدي إلى
انهرج وسمك لدماء ودهاب نفوس لمقتضى ذلك إلى تقضح النوع، وهو
من حصه لدري سحاه بالندفة

فستحل بقاؤهم فوصى دور حاكم يرخ عصهم عن بعض، وحادو
من أح ذلك إلى الواع، وهو الحاكم عنهم وهو مقتضى نطبعة لبشرية
المنك الفاهر المنحكم ولا بد في ذلك من نعصية، فقدمته من أن مصائب
كبي والمدافعت لا تتم إلا بعصية وهذا المنك، كما به، منصوب شريف

¹ سقط غورد هـ 'نقص في [ب]

توجه حوله فطنت ويحتاج إلى المدافعت ولا يتم شيء من ذلك إلا بالعصيات، كما مر

وعصيات متعددة وكل عصبية، فلها حكم وتعيب على من يدها من قومها وعشيرها ونيس من لكل عصبية، وفي الميث على الحقيقة من يسعد لرعية ويحيي لأموال ويعث العوث ويحمي الثعور، ولا يكون فوق يده بدفهرة وهذا معنى الميث وحقيقته في المشهور

فمن قصرت به عصبته عن عصبه، مثل حمانه لثعور أو حمانه الأموال أو بعث العوث، فهو من ناقص، لم تتم حقيقته، كما وقع لكثير من ملوك السرر في دولة لأعالة القبروان، والملوك العجم صدر الدولة لعاسية ومن قصرت به عصبته أيضاً من الاستعلاء على جميع العصبيات والنصوب على سائر الأيدي وكان فوقه حكم غيره، فهو من ناقص، لم تتم حقيقته. وهؤلاء مثل أمراء سوحى ورؤساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة. وكثيراً ما يوحد هذا في الدول المتسعة المظوق، أعني يوحد ملوك على قومهم في لسيوحى القاصية ديون صناعة لدولة التي جمعتهم، مثل صنهاجة مع العسدين، وربانة مع الأمويين تارة والعبيدين أخرى، ومثل ملوك العجم في دولة بني العباس، ومثل أمراء السرر وملوكهم مع لإفرحة قبل الإسلام، ومثل ملوك لظوائف من الفرس مع الإسكندر وقومه اليونانيين، وكثير من هؤلاء. فاعتبره تحده والله لظاهر فوق عدده

[24] في أن إرهاف الحد مضر بالملك ومفسد له في الأكثر¹

اعلم أن مصدحة رعية في لسلطان ليست في ذاته وجسمه، من حسن شكله أو ملاحه وجهه أو عظم حثامه أو اتسع علمه أو جودة خطه أو ثقب دمه، إنما مصدحتهم فيه من حيث إضافته إليهم. فإن الملك والسلطان من لأمر الإضافية، وهي سنة بين متيسرين فحقيقة السلطان من له رعية، والرعية من لها سلطان. والصفة التي له من حيث إضافته إليهم هي التي تسمى للملكة، وهي كونه يملكهم فإذا كانت هذه الملكة وتوابعها تمكن من الجودة، حصل المقصود من السلطان على أتم النحوه. وإنما إن كانت حميلة، صالحة كان ذلك مصدحة لهم، وإن كانت سيئة متعسفة كان ذلك ضرراً بهم وهلاكاً لهم.

ويعود حسن الملكة إلى لرفق. فإن الملك إذا كان قهراً ناضجاً بالعقوبات منقياً عن عورات لذنس وتعديد ذنوبهم شملهم لخواف و لذن، ولادوا منه بالكذب والمكر والخديعة، فثحققوا بها وفسدت بصائرهم وأحلقهم ورى خذلوه في موطن الحروب والمدافعات، وفسدت إحمية بفساد البيات وربما أجمعوا قتله لذلك، فتمسد الدولة ويخرب السياج وإن دام أمره عيهم

¹ سقط عبارة هذا عصل في [ب]

وقهره فسدت العصبية بما قلناه أولاً، ففسد لسياح من أصنه بالدعز عن الحماية. وردا كد رقيقاً بهم متجاوزاً عن سيئاتهم، استناموا إليه ولادوا به وُشربوا محته واستمانوا دونه في محاربة أعدائه، فاستقام لأمر من كل جانب

وأما تواع حسن المدكة، فهي النعمة عيهم والمدافعة عنهم فالدافعة به تتم حقيقة اسك وأما النعمة عليهم والإحسان لهم، فمن حمة الرفق بهم وانظر لهم في معاشهم، وهي أصل كبير في التحبب إلى الرعية واعلم أنه قل ما تكون ملكة الرفق فيمن يكون يقطاً شديداً ذكاء من الناس. فأكثر ما يوحده الرفق في الغفل أو المعمل وأقل ما في ليقط أنه يكلف الرعية فوق طاقته لفقد بطره فيما وراء مدركهم واصلاعه على عواقب الأمور في مبادئها باللمعية، فيهلكون لذلك. فال صى الله عليه وسلم سيروا على سير اضعفكم

ومن هذا انساب اشترط الشارع في احكام قصة الذكاء ومأخذه من قصة زياد بن أبي سفيان لما عرله عمر عن العراق وقال 'لِمَ عزلتني يا أمير المؤمنين؟ ألعجز أم حبيبة؟ فقال له عمر: لم أعزلك لواحدة مهم. ولكن كرهت أن أحمل فصل عقدك على الناس. فأجد من هذا أن الحاكم لا يكون معرط الذكاء والكيس، مثل زياد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، لما يتبع ذلك من التعسف وسوء المنكة وحمل الوحود على ما ليس في طبيعته. كما يأتي في آخر هذا الكتاب ولله حير المالكين.

وتقرر من هذا أن الكيس والذكاء عيب في صاحب السياسة، لأنه إفراط في الفكر، كما أن البلادة إفراط في الحمود. والطرهان مذموم من كل صفة إسيبة، والمحمود هو التوسط كما في الكرم مع التبتير والحرص، وكما في الشجاعة مع الهووح والجبن، وغير ذلك من لصفات الإنسانية. ولهد يوصف لشديد الكيس بصفات الشيطان، فيقال شيطان ومتشطر، وأمثال ذلك. والله يحق ما يشاء

[25] في معنى الخلافة والإمامة

لما كانت حقيقة ذلك أنه لا اجتماع، الضروري للشيء، ومقتضاه انزعاب والقهر من يد من أثر لعصب وحيوانية، كانت أحكام صاحبه في لعالم حائرة عن الحق محجفة عن نحت يد من حلول في أحول دنياهم حمده يدهم في عائل عني ما ليس في طوقهم من أعصه وشهوته وحتف ذلك احتلاف المقاصد من الحلف والسيف منهم، فتعسر طعته لدلت ونجى المعصية المفضية إلى النهج والقتل فوجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة ويقادون إلى أحكامها، كما كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم. وإذا كانت الدولة من مثل هذه لسياسة لم يستتب أمرها ولا يتم استقلالها، سنة الله في الدين حلو من صر، وإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصائرها، كانت سياسة عمسة. وقد كانت مفروضة من الله سبحانه وتعالى بشرع يقررها ويشرعها، كانت سياسة دينية رافعة في حبه نديب والآخرة

وذلك أن الحق ليس المقصود بهم دياهم فقط، فإنها كلها عث وباطل، إذ عاينته الموت والعناء وله تعالى يقول 'فحسبتم أنكم حفناكم عثاً' والمقصود بهم إنما هو دياهم المقصى بهم إلى السعادة في آخرتهم، صرح له لئلا يلهو في السموات وما في الأرض فحادث لشرائع تحملهم على ذلك في جميع أحوالهم، من عبادة ومعامة حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني، فأحرته على منتهج الدين فما كان منه مقتضى القهر والتعبد وإهمال لقوته لعصية في مرعاها فمحور وعدوان ومدموم عنده، كما هو في مقتضى الحكمة لسياسية، وما كان منه مقتضى لسياسة وحكمها، فمدموم أيضاً لأنه يضر عبره لئلا ومن لم يجعل الله نه بوراً فما له من بور' لأن الشرع أعلم بمصالح الكفة فيما هو معيب عنهم من أمور آخرتهم وأعمال الشريعة عنده عيبهم في معادهم. من ملك أو غيره، قال صنى أنه عليه وسلم، إنما هي أعمالكم تُردُّ عليكم.

وأحكام لسياسة إنما تصنع على مصالح الدنيا فقط، بعينون ظاهراً من احبة الدنيا ومقصود الشرع دللص صلاح حزنهم. فوجب مقتضى الشرع حمل الكفة على الأحكام الشرعية في أحوال دياهم وأخرتهم وكذلك هذا الحكم لأهل الشريعة، وهم الأسياء ومن قام مقامهم، وهم خلفاء قد سبق لك من ذلك معنى الخلافة، وأن الملك الطبيعي هو حمل الكافة على مقتضى لعرص واشهورة، ولسياسي هو حمل الكافة على مقتضى انطر العقلي في حب لمصالح الدنيوية ودفع المصدا. والخلافة هي حمل الكافة على مقتضى انطر الشرعي في مصداهم لأحرورية والدنيوية الراحعة إياهم، إذ أحوال لدي ترحع كنها عند الشرع، إنما اعتبارها بمصالح الأخرة فافهم ذلك، واعتمده فيما بورده عيبك من بعد

[26] فِي وَحُوبِ الْخِلَافَةِ وَشُرُوطُهَا

إنه قد عُرف من لشرعة وحوب نصب لإمام لإقامة أحكام لله في حقيقه
ووحوب طاعته على الحق وبقاؤهم له، والمستند في ذلك لإجماع، لا
العقل، كما يذهب إليه بعض الملحدة. فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه
وسلم فزعوا بعد وفاته إلى نصب الإمام وبتائه العهد على الطاعة وتسليم
المضر لهم إليه، لم يحتج منهم في ذلك إثبات فديعوا أن بكر جميعاً، ثم
ديعوا عمر باختيار أبي بكر لهم وعهده بذلك، ثم عثمان بن عفان اختار عمر الستة،
أهل نشورى، وجعلوا الاختيار منهم لعبد الرحمن بن عوف وقوضوا إليه
فاحتر لهم عثمان بعد الاجتهاد، ثم علياً من بعده باتفاقهم وإجماعهم، ثم
حسن، ثم معاوية بتسليم لحسن له وهكذا في كل عصر وهذا إجماع على
وحوب هذا المنصب. ولم يُعلم في ذلك خلاف، إلا ما يُنقل عن خورج
أنهم يذهبون إلى بقول بعدم وحوبه وأن لواجب إنما هو إصغاء أحكام
الشرعية، ولا يتعين ذلك لوحد، فإذا توطأت الأمة على العدل وإمضاء
الحق، لم نحتاج إلى إمام، ولا يجب نصبه

واندى ذهب بهم إلى هذا إنما هو لمرور من الملك ومذهبه. وقد رأوا
الشرعة ممثلة بدم الملك وأحواله من التعلب ولقهر ومي الاستمتاع بالذنب.

واشتهر عندهم المصنوع حكماً لا شتبهه وحوذاً، فقصوا سفيه وعدم مشروعيته. وهم محوحوون بالإجماع متى ذهبوا إلى ذلك ولا يغنيهم الفرار عن الخلافة شيئاً، فإن العصية التي بها قدم الدين لا بد منها، وهي مقتضية للمدك وأحواله بضعها، كما ذكرناه.

وليست الخلافة مع ذلك من الملك في شيء. فقد ميزنا كل واحد منهما بحقيقته. وغاية ما ينتهي إليه نظرهم بعد هذا التحقيق أن يكون سد الذريعة. وسد الذريعة لا يعارض الإجماع.

ثم إن أهل الحق من السلف واختلف مجمعون على أن تعيين الإمام راجع إلى اختيار الخلق. والشيعية يقولون إنه معيّن من عند الله بالخصوص إما الحية، ومعناه التي أظهرها النبي عليه السلام للأمة، كقوله من كنت مولاه، فعلي مولاه، وقوله أنت مبي بمنزلة هارون من موسى، وأمثال ذلك. ويقدرحون في إمامة الخلفاء الأربعة. وإما بالخصوص الخفية، وهي نص من الله ورسوله على تعيين الإمام واسمه ونسبه وكذا في كل عصر وهؤلاء يسمون الإمامية، لقولهم بالنص على الإمام. ومنهم الإثني عشرية، ومنهم لإسماعيلية، وهم الرافضة، يزعمون أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى إلى علي بالخلافة، وجعله الصحابة ويسمون علياً الوصي، ويسوقون الخلافة منه إلى جعفر الصادق، ثم إلى ابنه موسى الكاظم، ثم يسوقونها في ولده إلى المهدي المنتظر، وهو الثاني عشر من ندر عبي. ويسمى هؤلاء الإثناعشرية. ومنهم من ساقها من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل، ثم يسوقونها في ولده إلى عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكنوم بن إسماعيل الإمام. ويسمون باطية ومن هذا المذهب نشأت دولة لعبيديين. وهو أصل دعوة أبي عبد الله المحتسب لها.

وغير الإمامية من الشيعة، مثل الكيسانية والرؤندية منهم، يقولون إن الخلافة ليست نص من الله ولا باختيار من الخلق، إنما هي نيابة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فتكون وراثته عنه وأولى الناس بها العباس، لأنه عمه

وعصه، لقونه و أولو لأرحام بعضهم أولى بعض في كتب له . وم
تعقد إمامة علي إلا تسليم العدى له. ثم انتقلوا عن ذلك أحرّ وذهبوا إلى
أن الإمامة كانت لمحمد بن الحنفية بوصية علي، ثم لآله أبي هاشم من بعده،
ثم لعلي بن عبد الله بن عدى من بعده، ثم لآله محمد بن علي، ثم لآله
إبراهيم لإمام بن محمد، ثم لأبيه عبد الله بن الحارثية، وهو أبو العدى
لسفاح، كل ذلك بالتوصية ومن هذا لباب شأت دولة لعاسيين
وكن من سائر فرق الشيعة حو رج عى الدولة لم يتم أمرهم ولا دلوا من
لدولة يعينهم. وحدث فيها ما شاء الله من الأمم
وأما شروط هذا المنصب، فهي أربعة : لعدم، والدين، والكفية، وللسب
القرشي

فأما شرط العقب، فظاهر أنه أى يكون ممد لأحكام الله يد كن علماً بها.
وما لم يعنهم لا يصح تقديمها ولا يكفى من النعم إلا أن يكون محتهداً،
لأن التقيد بقص، والإمامة تستدعي تكمل في الأوصاف والأحوال.
وأما الدين أيضاً فما لم يكن متبع لأحكام الله في حقه نفسه فكيف
يكون حاملاً لغيره عى ناعه ؟ تأمرون الناس بالبر وسوء أنفسكم ؟
وأما الكفاية، فهو أن يكون حريثاً عى إقامة الحدود وفتحهم خروب
بصير بها، عداً بالعصية وأحوال الدهاء، قوياً على معادة سياسة
وأما النسب القرشي، فالإجماع الصحاح يوم تسقيفة على ذلك.
واحتجت قريش على الأنصار بأن السبي صى لله عليه وسلم أوصد بأن
نحس إلى محسنكم وتجاوز عن مسيئكم ونو كانت الإمارة فيكم، لم تكن
لوصيه بكم فاحت الأنصار، وعدو، لذت عما كانوا همو، به من بعة
سعد، سيدهم، ولم يكن عدوهم إلا عن قضي

وثبت في الصحيح، إخلافة لقريش، وفي رواية أخرى لا يزال هذا
الأمر في هذا الحي من قريش ' ومثل ذلك كثير إلا أنه صعب أمر قريش،
ونلاشت عصيتهم بما بهم من الترف وسعيم وقد تقنهم لدولة في سائر

أَقْطَرِ الْأَرْضَ، عَجَزُوا نَدَكَ عَنْ حَمَلِ خِلَافَةٍ، وَنَعَسَتْ عَلَيْهِمُ الْأَعْنَانُ
وَصَارَ الْحُلُوفُ وَلَعَقْدُ لُحْمٍ وَشَتَّهَ ذَلِكَ عَنِ كَثِيرٍ مِنْ مُحَقِّقِينَ، حَتَّى دَهَوَ إِلَى
بَنِي شَتْرَاطِ اقْرَشِيَّةَ، وَعَمِلُوا عَلَى ظَوَاهِرٍ فِي ذَلِكَ مِثْلَ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ سَمِعُوا وَصَعُوا إِنْ وَبَى عَلَيْكُمْ عِدَّ حَشِي دَوْرِيَّةَ وَهَذَا لَا يَقْبَلُ
بَنِي شَتْرَاطِ النَّسَبِ فِيهِ حَرْجٌ مَخْرُجٌ لِمُثَبِّلِ مِمْلَعَةٍ فِي إِيْحَابِ السَّمْعِ
وَالطَّعْمِ وَمِثْلَ قَوْلِ عُمَرَ . لَوْ كَانَ سَلَمٌ مُوسَى حَدِيقَةٍ حَيًّا لَوْ بَيْتُهُ . أَوْ لَمْ
دَحْنَتِي فِيهِ لَطَنَةُ وَهُوَ يُصَافًى لَا يَقْبَلُ ذَلِكَ، لَمْ عَلِمْتُ أَنْ مَذْهَبَ لَصَحْبِي
لَيْسَ بِحَقَّةٍ . وَبُصَافًى، فَمُوسَى لُغْوٌ مِنْهُمْ . وَعَصِيَّةُ الْمُؤَلِّي حَصِيَّةٌ . وَهِيَ
لِفَائِدَتِهِ فِي شَتْرَاطِ النَّسَبِ وَسَلَمٌ، حَصَصْتُ لَهُ مِنْ قَرِيشِ عَصِيَّةِ الْوَلَاءِ وَلَمْ
سَتَعِظْهُ عُمَرَ أَمْرَ اخِلَافَةٍ وَرَأَى شُرُوطَهَا كَأَنَّهَا مَقْقُودَةٌ، عَدَلَ إِلَى سَالَمٍ فِي
طَبْعِهِ لَتَوْفَرِ شُرُوطِ اخِلَافَةٍ عِنْدَهُ، حَتَّى النَّسَبِ لِمَقْبَلِ الْعَصِيَّةِ، كَمَا ذَكَرَ . وَلَمْ
يَقْضَ إِلَّا صِرَاحَةً سَلَمٌ، فَرَدَّ عَيْرَ مَحْتَجٍّ إِلَيْهِ، بِدَائِمَةِ فِي عَصِيَّةِ النَّسَبِ
حَاصِلَةً دُونَهُ، حَرِصًا مِنْ عُمَرَ عَلَى نَظَرِ لِمُسْلِمِينَ وَتَقْيِيدِ أَمْرِهِمْ لِمَنْ لَا تَحَقُّقَهُ
فِيهِ لَائِمَةٌ وَلَا عَيْبٌ فِيهِ عِنْدَهُ

وَمِنْ اقْتَانِيَيْنِ بَنِي اشْتِرَاطِ النَّسَبِ الْقَاضِي أَوْ نَكْرًا، لَمَّا أَدْرَكَ عَلَيْهِ الدَّوْلَةُ
نُقَرَشِيَّةً مِنْ اتِّلَاشِيٍّ وَلَا صَمَحَلَالٍ وَحُجَزَ وَاسْتِدَادَ الْعَجَمَ عَلَيْهَا
وَحُرُوفٌ لَمْ يَزَلْ لَوْ اعْنَى لِقُوبَ شَتْرَاطِ الْقَرَشِيَّةَ وَلَوْ دَهَسَتْ لِكَفَايَةِ
وَالْقُدْرَةِ، وَصَارَ إِلَى الْعَجْرِ، فَيَقُولُونَ بِنِوَالِيَةِ قَرَشِيٍّ وَلَوْ كَانَ عَاجِزًا عَنْ
تُقَامُ أُمُورُ الْمُسْلِمِينَ وَبِدَهْنُونٍ عَنْ مَعْنَى لِكَفَايَةِ، وَأَنَّهُ إِذَا دَهَسَتْ الْعَصِيَّةَ
حَصِيَّةً، فَهِيَ مَقْقُودَةٌ وَلَوْ وَقَعَ الْإِحْلَالُ شَرْطَ لِكَفَايَةِ، لَتَطْرُقَ الْإِحْلَالُ أَيْضًا
نَحْنُ نَعْلَمُ وَنَدِينُ، وَدَهَسَتْ شَرِيعَةُ اخِلَافَةِ رُسُلًا، وَفَسَدَ اعْتِدَارُ امْتِنَاعِ
خِلَافِيٍّ

فَسِيرَ اسْتِرْفِيٍّ فِي شَتْرَاطِ النَّسَبِ لِيُصْهَرَهُ تَحْقِيقُ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ، فَعَمِلَ
إِنْ لَأَحْكَمَ الشَّرْعِيَّةَ كُنْهًا لَا يَدُلُّهَا مِنْ مَقَاصِدِ وَحُكْمِ شَمْسٍ عَلَيْهَا وَتَشَرُّعُ
لَأَحْنَهَا، وَسَوْءُ كَانَتْ الْأَحْكَامُ قِتْصَانَةً كَمَا فِي تَنْكَاسِ خَمْسَةِ أَوْ وَصْفِيَّةٍ

كما في الشروط والأسس ونحن إذ بحثنا عن الحكمة في شرط النسب القرشي ومقصد الشروع منه، لم يقتصر فيه على استبرك بوصلة السي صبي له عبيه وسلم، كما هو المشهور، وإن كانت تلك الوصلة موحودة إلا أن لتبرك ليس من المقاصد الشرعية، كما علمت فلا بد أن من مصححة في شرائط النسب، هي المقصودة في مشروعيتها ودرجتها وقسمت لمعناها إلا اعتبار العصبية التي تكون بها الحمية والمطالبة ويرتفع اختلاف والفرقة موحودها لصاحب المنصب، فتسكن إليه لمنه وأهدها، وينظم حين لألفة فيها.

وذلك أن قريشاً كانوا أنف مصر وأصبلهم وأهل العيب منهم. وكان لهم على سائر مصر اعرة دنكثرة والعصبية و لشرف. فكان سائر العرب يعرفون لهم دنك ويستكيون لعينهم فلو قد جعل الأمر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بمحافلهم وعدم إقيادهم. ولا يقدّر عرهم من قتل مصر أن يرددهم عن خلاف ولا يحملهم على الكره فتتفرق الجماعة وتحتلف الكلمة. وشارع محذر من ذلك، حريص على تعاقبهم ورفع نشاز ونشأت بينهم لتحصن للحمية والعصبية وتحسن الحمية. بخلاف ما إذا كان الأمر في قريش، لأنهم قدرون على سنوق الناس بعصب العلب إلى ما يريد منهم، فلا يحشى من أحد خلاف عليهم ولا فرقة، لأنهم كميلون حينئذ يدفعها و صطهاد ناس عنها. فاشترط بينهم القرشي في الخلافة للعصبية القوية، ليكون أبلغ في انتظام المسلمين و تعاقب الجماعة وإذا انتظمت كمتهم، انتظمت بانتظامها كلمة مصر جميع، فادع لهم سائر العرب و نقدت الأمم سواهم إلى أحكام الملة، ووطئت حدودهم قاصية البلاد، كما وقع في أيام الفتوحات و ستمر بعدها في دولتين إلى أن يصحح أمر الخلافة وتلاشت عصبية لعرب. ويعنم ما كان قريش من لكثرة والتعلب على بطون مصر من مارس أحوار العرب وسيرهم وتعطل لذلك من أحوالهم وقد نص عليه ابن إسحق في كتاب السير عند ذكر سة الوفود فقال .

وإعما كانت العرب ترعى بالإسلام أمر هـ الحى من قريش وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم. وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهديبهم وأهل البيت والحرم وصريح وند إسماعيل وقادة العرب لا ينكرون ذلك وكنت قريش هي التي نصبت حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلافه فتم افتتحت مكة ودانت له قريش ودوحها الإسلام وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عدونه، فدخلوا في دين الله كما قال تعالى أفرأى كيف يصرون إليه من كل وجه¹ ابن إسحاق وهو ظاهر [2]² كانوا أشد العرب عصبية.

وإذا ثبت أن اشتراط القرشية إنما هو لرفع لتنازع ما كان لهم من العصبية والعب، وعلمنا أن الشارع لا يخص الأحكام بحيل ولا عصر ولا أمة، علمنا أن ذلك إنما هو من الكفاية، فرددناه إليها وظردت العلة المشتملة على المقصود من لقرشية، وهي وجود العصبية. فاشتراطنا في القائم بأمور المسلمين أن يكون من قوم أو في عصبية قوية غالبية على من معها بعصره ليستمتعوا من سواهم وتحتجع الكلمة على حسن احصية ولا يعم ذلك في لأفطر والأفاق، كما كان في القرشية، إذ لدعوة الإسلامية التي كانت لهم عامة وعصبية العرب كانت وافية بها، فعموا سائر الأمم وإعما يحص كل قطر بمن تكون له فيه العصبية الغالبة.

فيشترط لهذا العهد في القائم بأمور المسلمين بإفريقيه أن يكون من ن أي حفص لأنهم الغالبون على من فيه، وبمغرب أن يكون من رناته لأنهم الغالبون على من فيه، وبإقليم مصر والشام أن يكون من لترك لأنهم الغالبون على من فيه.

1 سقطت هذه العبارة في [ب]

2 نباه في مجموعته

و بد بضرت سر انه في الاخلافة له يعد هذا لأنه سبحانه بما جعل خبئة
 ساعاً عنه في القيام بأمر عباده ليحملهم على مصالحهم ويرجعهم عن
 مضارهم، وهو مخاطب بذلك. ولا يخاطب بالأمر من لا قدرة له عليه ألا
 نرى إلى النساء في كثير من الأحكام الشرعية كيف خُصَّ نعتُ نرجان و
 يذُخُلْنَ في خطاب بالوضع وإنما دُخِنَ بالقياس وذلك لما لم يكن بهن من
 الأمر شيء وكان الرجال قو من عندهن. اللهم في نعدت لتي كل أحد
 فيها قائم على نفسه. فخطأهن بالنوصع لا بالقياس. ثم إن الوجود شاهد
 بدنت، فإنه لا يقوم بأمر أمة أو حيل إلا من عب عبيهم. وقل أن يكون الأمر
 الشرعي محالاً للأمر بوجودي والله أعلم

٢٠٦ [ب] ما فهم دلت، و عتمده فيما بورده عليك من بعد

[27] في انقلاب الخلافة إلى الملك

علم أن حدث عبة طسعة لعصية نيس وقوعه عنها باختيار إنما هو
بضرورة نوحود ونبهه، كما قدس من قبل، وأن الشرع والديانات وكل أمر
نحمن عيه جمهور فلا بد فيه من لعصية، إذ المظلة لا تتم إلا بها، كما
قدمه

فالعصية ضرورية لئلا، ونوحودها شبه أمر نله منها، قل علي رضي به
عنه ' ما عت الله سناً إلا هي معة من قومه . ثم وحدث لشارع دم لعصية
وبدب إلى صرحها وتركها، فقال إن لله أذهب عنكم غيبه جاهلية
وحرها لأبء ' يتم سو آدم، وادم من نرب . وقال تعالى : يا أكرمكم عند
له تفاكم '

ووحده نصاً قد دم الملك وأنه ونعى على أنه أحوالهم من الاستمتاع
بالخلق والإسرف في غير القصد ولتلك عن صراط الله ، وإنما حص على
الألفة في الدين، وحبر من احلاف ولفرقة

واعلم أن لدي وأحوالها كدها عند لشارع مظنة للاحرة ومن فقد انضية
فقد الوصول ويسر مر ده فيما يهوى عنه ' ويده من أفعول البشر ' ويدب
إلى تركه همل له سلكية ' أو قتلاعه من أصبه وتعطيل القوى التي شأ عليها

بالكلية، إما قصده نصريها في أعراض الحق جهد الاستطاعة، حتى نصير
لمقصد كلها حقاً وتتحدا الوجهة، كما قال صلى الله عليه وسلم 'من كانت
هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى ديب
بصيصها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه' فلم يدم الغضب وهو
يعصده بزعه من الإنسان، فإنه لو زالت منه قوة العصب لفقد منه الانتصار
لحق وبطل الجهد وإعلاء كلمة الله، وإنما يدم الغضب للشيطان
وأنواع من الدميمه فإذا كان لعصب في الله ولله كان ممدوحاً، وهو من
شماثه صلى الله عليه وسلم.

وكذا دم الشهوات ليس المراد بطلانها بالكلية، فإن من ضمت شهوته كان
قصداً في حقه، وإما مراد نصريها فيما يُبيح له واشتماله على المصالح ليكون
إنسان عادلاً متصرفاً طوعاً والأوامر الإلهية وكذا العصية حيث دمه لشرع
وقال: 'أليس تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم' فبما مراده حيث تكون العصية
على السطو وأحواله، كما كانت في حاشية، وأن يكون لأحد هجرته أو حق
على أحد، لأن ذلك محد من فعل لعقلاء، وغير نافع في الأحرار التي هي
دار القرار، فأما إذا كانت العصية في الحق وإقامة أمر الله، فأمر مطلوب، ولو
بطل لعنت الشرائع، إذ لا يسه قوامها إلا بالعصية كما قلده من قبل.

وكذا لميث ما دمه الشارح لم يذم منه، لعن باحق وقهر الكافة على الدين
ومراعاة المصالح، وإنما دمه لما فيه من التغلب بالسطو وتصريف الأدمين ضوع
الأعراض والشهوات، كما قلده، فهو كان منك مخلصاً في عليه للباس أنه
لله، ويحملهم على عبادة لله وجهاد عدوه، لم يكن ذلك مدموماً وقد قال
سبيد صلووات الله وسلامه عليه ربي هب لي ملكاً لا يسعي لأحد من
عندي، لما عزم من نفسه أنه معرّف عن السطو في النوة ولميث.

ولما لقي معاوية عمر بن الخطاب رضي الله عنهما عند قدومه إلى الشام في
أنه الملك ورثه من العديد والعدة، استنكر ذلك وقال: 'أكسروية يا معاوية؟'
قال: يا أمير المؤمنين، أن في ثغر تحاه العدو، وث إلى ساهاتهم بزينة، حبر

والجهاد حاجة'. فسكت ولم يحطئه، لما احتج عليه بمقصد من مقصد الحق والدين. فهو كان القصد رفض الملك من أصله، لم يقتعه هذا خواب في تلك لكسروية وبتحالفها، بل كان يحرض على حروجه منها بالحلمة. وما أراد عمر بالكسروية ما كان عليه أهل فارس في منكمهم من ارتكاب الباطل والعي وسلوك سبله والغفلة عن الله، وأجابه معوية بأن القصد بذلك ليس كسروية فارس وباطلهم وإنما قصده بها وجه الله تعالى، فسكت

وهكذا شأن الصحة في رفض الملك وأحواله ونسيان عوائده حذراً من التباسها بالباطل. فمما استحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم استحف أن يكر رصي الله عنه على الصلاة، إذ هي أهم أمور الدين، وارتصده الناس للحلافة، وهي حمل الكافة على أحكام الشريعة. ولم يجر للملك ذكر، لما أنه مظنة الباطل وبحلة يومئذ لأهل الكفر وأعداء لدين. فقام بذلك أبو بكر ما شاء الله متبعاً سنن صاحبه وقتل أهل الردة حتى حتمت العرب على للإسلام. ثم عهد إلى عمر، فاقتمى أثره وقتل لأهم فعلهم وأذن لعرب في تنزاع ما بأيديهم من الدين والملك، فغلبوهم عليه وانتزعه منهم.

ثم صارت إلى عثمان، ثم إلى علي، والكل متبرؤون من لمث منكبون عن طريقه. وأكد ذلك لديهم ما كانوا عليه من عصاضة الإسلام وداوة العرب فقد كانوا أبعد الأمم عن أحوال الدنيا وترفعها، لا من حيث دينهم الذي يدعوهم إلى الزهد في التعميم، ولا من حيث بداوتهم ومواطنهم وما كانوا عليه من خشونة العيش وشططه. فلم تكن أمة أسعد عيشاً من مضر، لما كانوا بخجارتهم في أرض غير ذي زرع ولا ضرع وكبوا بموعين من الأرياف وحسبها لبعدها واحتصاصها بهم وليها من ربيعة واليمن، فلم يكونوا يتطاولون إلى خصصها. ولقد كانوا كثيراً ما يأكلون العقارب والخنفس، ويفحرون بأكل العلهز، وهو ور الإبر، يمهونه بالحجارة في الدم ويطنحونه. وقريب من هذا حال قريش في مطاعهم ومسكنهم.

حتى إذا اجتمعت عصبية العرب على لئس بما كرمهم ثمة من سوة
محمد صلى الله عليه وسلم، رحفو، لئى ثم فارس والروم وطسوا ما كتب
الله لهم من لأرض يؤعد الصدق، فاستزوا منكهم وستانحوا ديبهم،
فزحرت بحار لرفه لديهم حتى كاب لئارس لو حد يقسم به في بعض
لغزوات ثلاثين ألفاً من الذهب أو نحوها فاستنونا من ذلك عنى ما لا
يأخذ حصر، وهم مع ذلك عنى حشوة عشهم، فكان عمر رصي الله عنه
يرفع ثوبه باجلد، وكان عني يقول ' يا صمراء ويا بيضاء عري غبري' وكان
لو موسى يجفنى عن أكل الدجاج لأب لئسب من قومهم به يأكوه.
وكانت لمنحيل مفقودة عندهم بالحملة، وبما يأكون الحصة سخلها
ومكاسهم مع هد أنهم ما كانت لأحد من أهل لعالم

قال المسعودي: في أيام عثمان قتلى الصحابة الصبيح والمث فكان نه
يوم قتل عند خاربه حمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم. وقيمة صبيعه
بوادي القرى وحنين وغيرهما مائتا ألف دينار وحلف إبلاً وحياً كثيرةً وبيع
ثم الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وحلف ألف فرس وألف أمة وكان
عنه طلحة من العراق ألف دينار كل يوم، وساحبة الشراة أكثر من ذلك وكان
عني مرتبط عند الرحمن بن عوف ألف فرس، وله ألف بعير وعشرة آلاف من
العم وبلغ لربع بعد وفاته أربعة وثمسين ألفاً وحلف ريد بن ثابت من
الذهب والقصة ما كان يكسر بالهؤوس، غير ما حلف من الأموال والصبيح
مائة ألف دينار وبني الزبير داره بالصرة وكذلك بني عاصم والكوفة
ولإسكندرية وكذلك بني طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالندبه ونده
بالحص والأجر ولساح وبني سعد بن بني وقاص داره بالعتق ورفع سمكها
ووسع قصورها وجعل عني أعلاها شرفات وبني المقدد داره بالمدينة وجعلها
محخصة الناطن ولطاهر. وحلف يعلى بن مية خمسين ألف دينار وعفراً
وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف انتهى كلام المسعودي

فكانت مكاسب القوم كما تراه، ولم يكن ذلك منعياً عليهم في دينهم ؛د هي أموال حلال، لأنها عاثم وفي. ولم يكن تصرفهم فيها بإسراف، إنما كانوا عسى قصد في أحوالهم، كما قلناه . فلم يكن ذلك بقادح . وإن كان الاستكثار من الدنيا مذموماً فإنما يرجع إلى ما أشرنا إليه من الإسراف والخروج به عن القصد، وإذا كان حالهم قصداً ونفقاتهم في سبل الحق ومذاهبه كان ذلك الاستكثار عوناً لهم على طريق الحق واكتساب الدار الآخرة. فدما تدرجت البدوة والغضاضة إلى نهايتها وجاءت طبيعة الملك التي هي مقتضى لعصبية. كما قلناه، وحصل التغلب والقهر. كان حكم ذلك الملك عندهم حكم ربه والاستكثار من الأموال، فلم يصرفوا ذلك التغلب في باطل، ولا خرجوا به عن مقاصد الديانة ومذاهب الحق

ولما وقعت العنة بين على ومعاوية، وهي مقتضى العصبية، كان طريفهم فيها الحق ولا جهاد، ولم يكونوا في محاربتهم لغرض ديني أو لإيثار باطل أو لاستشعار حقد. كما يتوهمه متوهم أو ينزع إليه ملحد، إنما اختلف حثهدهم في الحق، سفة كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق، فاقتلوا عليه . وإن كان المنصب علياً فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الناطل، وإن قصد حق وأخطأ. والكل كانوا في مقاصدهم على حق. ثم اقتضت طبيعة الملك لامرأاد بالبعد واستئثار الواحد به، ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه وقومه، فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها. واستشعرته بنو أمية ومن لم يكن على طريقة معاوية في اقتضاء الحق من أتباعهم، فاعصموا، عليه واستماتوا دونه. ولو قد حملهم معاوية على غير تلك الطريقة وخلفهم في الانفراد بالأمر لوقع في افتراق الكلمة التي كان جمعها وتأليفها هم عليه من أمر ليس وراءه كبير مخالفة.

فلذلك إذا حصل وفرصنا أن الواحد انفراد به وصرفه في مذاهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك تكبر عليه. وقد انفرد سيمان وآبوه داود صلوات الله عليهم بمسئسي إسرائيل، لما اقتضته طبيعة الملك فيهم من الانفراد به، وكروا ما علمت من النبوة والحق.

وكذلك عهد معاوية إلى يزيد خوفاً من افتراق الكلمة، مما كان سوء أمة لم يرضوا تسليم الأمر لمن سواهم. فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه، مع أن ظنهم كان به صالحاً. ولا يرتاب أحد في ذلك ولا يظن بمعاوية غيره. فم يكن ليعهد إليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق. حاش لله لمعاوية من ذلك.

وكذا كان مروان بن الحكم وابنه، وإن كانوا ملوكاً فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبيغي، إنما كانوا متحرين لمقاصدهم الحق جهدهم، إلا في ضرورة تحملهم على بعضها من خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد. يشهد بذلك ما كانوا عليه من الاتع والافتداء وما علم السلف من أحوالهم. فقد احتج مالك في الموطأ بعمل عبد الملك وأما مروان، فكان من الصحابة، عدائهم معروفة.

ثم تدرج الأمر في ولد عبد الملك، واستعملوا طبيعة الملك في أغر صهم الديوية وشهواتهم. ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري القصد فيه واعتماد الحق في مذهبها. فكان ذلك مما دعا الناس إلى أن نعوا عليهم أفعالهم ودألوا بالدعوة العباسية منهم. وولي رجالها الأمر، فكانوا من العدالة بكماء وصرفوا من في وحوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا. حتى جاء بنو الرشيد من بعده، فكان منهم الصانع والصالح. ثم أفضى الأمر إلى بنيهم، فأعطوا الملك والترف حقه ونغمسوا في الدنيا وباطلها، ونبدوا الدين وراءهم ظهرياً. فتأذن الله بحربهم وانتزع الأمر من أيدي العرب جملة، وأمكن سواهم منه. والله لا يظلم مثقال ذرة". ومن تأمل سير هؤلاء الخلفاء والملوك واختلافهم في تحري الحق من الباطل علم صحة ما قلناه.

وقد حكى المسعودي مثله في أحوال بني أمية عن أبي جعفر المنصور، وقد حضر عمومته وذكروا بني أمية فقال: "أما عبد الملك، فكان جباراً لا يبالي ما صنع. وأما سليمان، فكان همه بطنه وفرجه. وأما عمر، فكان أعور بين عميان. وكان رجل القوم هشام". قال: "ولم يزل بنو أمية ضابطين لما مهد لهم من لسلطان، يحوطونه ويحفظونه، ويصونون ما وهب الله لهم منه، مع ستمهم

معالي الأمور ورفضهم أدانيها، حتى أفضى الأمر إلى أبنائهم المتربين . فكنتم همتهم قصد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله، جهلاً باستدراجهم وأمناً لمكره . مع اطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرئاسة وضعفهم عن السياسة . فسلبهم الله العز وألبسهم الذل ونفى عنهم النعمة .

ثم استحضر عبد الله بن مروان ، فقصر عليه خبره مع ملك لنوبة إذ دخل أرضه فداراً أمام بني العباس . قال : " أقمت ملياً ثم أتاني ملكهم ، ففقد عسى الأرض وقد بسطت له فرش ذات قيمة . فقلت : " ما منكم عن القعود عسى ثيابنا ؟ " قل : " إني ملك ، وحق لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه الله . " ثم قال لي : " لِمَ تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم ؟ " قلت : فعل ذلك عبيدا وأتباعنا . قال : " فَلِمَ تطؤون الزرع بدوابكم والفساد محرم عليكم في كتابكم ؟ " قلت : " فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم . " قال : " فِيمَ تبسبون . لندياج والذهب والحرير ، وهو محرم عليكم في كتابكم ؟ " قلت : 'ذهب ما الملك وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك عسى المكره منا . ' فأطرق ينكت بيده في الأرض ويقول : " عبيدنا وأتباعنا وأعاحم دخلوا في ديننا . " ثم رفع رأسه إلي وقال : " ليس كما ذكرت . بل أنتم قوم استحللتم ما حرم الله ، وأتيتم ما عنه نهيتم ، وظلمتم فيما ملكتم فسلكم الله العز وألبسكم الذل بذنوبكم . ولله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم ، وأنا حائف أن يحل بكم العذاب وأنتم بيلدي فينالني معكم . وإنما الضيافة ثلاثة ، فتزود ما احتجت إليه وارتمل عن أرضي . " فتعجب المنصور وأطرق .

فقد تبين لك كيف انقلبت الخلافة إلى الملك ، وأن الأمر في أوله كان خلافة ، ووازع كل أحد فيها من نفسه ، وهو الدين . وكانوا يؤثرونه على أمور دنياهم وإن أفضت إلى هلاكهم وحدهم دون الكافة .

فهذا عثمان لما حصر في الدار ، جاءه الحسن والحسين وعبد الله بن عمر وابن جعفر وأمثالهم يريدون المدافعة عنه ، فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة وحفظاً للألفة التي بها حفظ الكلمة .

وهذا عبي، أشر عليه المعيرة لأول ولايته باستبقاء معوية ونزير وضحة حتى يجتمع الناس على بيعته وتتفق الكلمة، وله بعد ذلك ما شاء من أمره. وكان ذلك من سياسة الملك، فأبى، قراراً من الغش الذي بناه الإسلام. وغدا عليه المغيرة من الغدة فقال: 'أشرت عيث بالأمر بما أشرت، ثم عدت إلى نظري فعلمت أنه ليس من الحق والنصيحة، وإن الحق فيما رأيته أنت. فقل علي: 'لا والله، بل أعلم أنك نصحتني بالأمر، وغششتني اليوم. ولكن معني بما أشرت به ذائد الحق'. وهكذا كانت أحوالهم في إصلاح دينهم بفساد دنيهم ونحن

نرفع دنيان بتمزيق ديننا فلا ديننا يبقى ولا ما نرفع

ثم إن الأمر صدر من بعد ذلك إلى أمية، وبقيت معاني خلافة من تحرى الدين ومدايهه والخرى على مهناح آخر ولم يظهر تنغير إلا في الوارء لدي كد دينا ثم بقى عصية وسيف. وهكذا كان الأمر لعهد معوية ومروان وأمه عبد الملك والنصر الأول من حمراء بني العباس إلى الرشيد. ثم دهب معاني الخلافة ولم يبق إلا اسمها، وصار الأمر منكاً تحت وجرت طبيعة لتعلب إلى غيتها واستعمت في أغراضها من المهر واستحكم في لشهوات والملاذ.

وهذا كما كان الأمر لولد عبد الملك ولبن بعد الرشيد من بني العباس، واسم الخلافة باقياً فيهم لبقاء عصبية العرب، والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضها ببعض. ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها بذهاب عصبية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم، وبقي الأمر منكاً تحت كما كان لشأن في ملوك المعجم بالشرق، يدينون بطاعة الخليفة تبركاً، والملك بجميع ألقابه ومناحيه لهم، وليس لمخليفة منه شيء. وكذلك فعل ملوك زنقة بالمغرب،

مثل صهاحة مع العسدين، ومعروفة ونبي يرون أيضاً مع حلفاء بني أمة
 الأندلس وعبديين بالقيروان
 فقد تميزت خلافة وحدت بدول المنك، أولاً، ثم السست معانيهما
 وحيضت، ثم اعرد المنك حيث اقرب عصبته من عصبية الخلافة
 وأنه مقدر ليس والنهر.

[28] في معنى البيعة^١

اعلم أن البيعة هي العهد على الطاعة، كأن المايح يعهد أميره على أنه
يسم له لتطو في أمر نفسه وأمور المسلمين، لا ينداره في شيء من ذلك،
ويصيعه فيما يكفه به من الأمر على المنشط والمكره.
وكابوا إدا بايعوا للأمير وعقدوا عهده، جعلوا أيديهم في يده تأكيداً
لعهد فأشبه ذلك فعل النع والمشتري، فسمي بيعة، مصدر ناع وصارت
البيعة مصافحة بالأيدي. هـ مدلولها في عرف النغة ومعهود الشرع، وهو
المرد في خديث في بيعة لبي صلى الله عليه وسلم ليلة لعقنة، وعند
الشجرة، وحيث ما ورد هذا اللفظ

ومنه بيعة اخلفاء، وأما البيعة المشهورة لهذا العهد، فهي تحية الملوك
الكسروية، من تقبيل الأرض أو ليد أو الرجل والدين، طُلق عليها اسم البيعة
لتي هي العهد على الطاعة محزاً لما كان هذا الخصوع في التحية والتزام
لاد من لوازم الطاعة وتوابعها. وعب فيه حتى صار حقيقة عرفية استغني
به عن مصافحة يدي الناس التي هي حقيقة في الأصل، لما في لمصافحة

^١ سقط عن هـ مصر في [ب]

لكل أحد من استنزل ولا تندل المنافيين بلرئاسة و صوّن المنتصب الملوكي، إلا
في الأقل ممن يقصد التواضع من الملوك فيأخذ به نفسه مع حوصه ومشاهير
أهل نديس من رعيتة.

فأفهم معنى البيعة، فيه أكيد على الإنسان معرفته لمدينه من حق سبطه
وممه، ولا تكون أفعاله عبثاً ومجداً واعتبر ذلك من أفعالت مع الموث
و لله القوي العزيز

[29] في ولاية العهد^١

اعلم أن العهد بالخلافة حسن لمن توفرت فيه شروطها أو فصل غيره فيها وهو من نظر المسلمين، فإن الإمام كما يصير بمسمن في حينه ينظر لهم بعد مدهد مدهد أنه من أمرهم فيؤني عبيهم من عرفت استنقذته وكفايه وتوفرت فيه شروط الإمامة

وهو مختلف باختلاف العاهد وقد فعل ذلك أبو بكر في عهده في عمر، وفعده عمر في قصر لأمر على ستة ثم يتحوز به إلى سواهم، وجعل بينهم الاختيار للمسلمين منهم أو من سواهم. وعلى هذا ليس حري لأمر ومن صحة العهد وبنائه على الحق أن لا يؤثر به أهل بيته إلا إذا علم أن في العهد لمن سواهم معصية من افتراق الكلمة وشق عصا الجماعة فيه حيث يؤثر بذلك ولا يسعه غيره. لأن نقى أهل الأمة هو الأهم المقدم ههنا ما يمكن مسلوب من شرار خلافة وصنائها المعتره بالكنية فإما إذا كان بعضه موحوداً أو وُجد على غير كمال، فرعية لا تناف مع بقائها أولى وأرجح

١. يردعوا - ههنا مصر في [ب]

وهو الذي حمل معاوية رضي الله عنه عني لعهد لاسه يزيد، مع أنه لم
يعلم ما كان عنه من اخرج كنه، بما طل الخير وراعى المصلحة في اجتماع
ناس عبيه وانفاق أهولهم باتفاق بني أمية، أهل حن والعقد من قريش
يومئذ إذ سو أمه يومئذ لا يرصو غيره، وهم عصاة قريش وأهل عندهم
فاثرة بدت دور غيره ممن هو أقوى بها منه، وعدن إني لمفصول عن الفاص
حرباً عني لانفاق واجتماع لأهوء لدي شأه ثم عند الشرع، ولا يطل
معاوية غير هذا، فعدلته وصحبته ماعة على سوه

وكذلك حلفاء الدين كانوا يتحرّون الحق من بعده، مثل عبد الله
وسليم بن عمر والسفاح والمصور ومثاليهم ممن عرفت عدالهم وحسن
رايهم في ستمير ونظر إليهم، ولا يُعاب عليهم إيثار نيتهم ورحونهم
وحروهم عن سن الحلفاء الأربعة في ذلك، فشأهم غير شأن أولئك
الحلفاء فبهم كانوا عني حين لم تحدث طبيعة لثالث، وكان الورع ديباً،
فعد كل أحد ورع من نفسه فعهدوا إلى من يربصه الدين فقط وثروه على
غيره، وكو كل أحد ممن سمو إلى ذلك إلى ورعه وأما من بعدهم من
لدن معاوية، فكنت العصية قد أشرفت عني عيها من الملك والوارع الديني
قد ضعف، واحتجج إلى نوح السنصبي والعصبي فلو قد عهد إلى غير
من يربصه لعصاة لردت ذلك العهد وانتقص أمره سريعاً، وصارت خدمة
إلى نفره والاختلاف

سأل رجل عباً رضي الله عنه ما بن الناس احتتموا عيك ولم يحتتموا
على أي بكر وعمر، فقال لأن أن بكر وعمر كانا إلى على مثلي، وأنا
اليوم وال على مثلك، يشير إلى وزع الدين أهلا ترى إلى ما موم لما عهد
إلى علي بن موسى بن جعفر الصادق وسمه لرّضى كيف أكرت عباسية
ذلك ونقصوا بيعته ونايعو لعنه براههم من المهدي، وصهر من لهرح
و خلاف وانقطع نسل وتعد الثوار و حوارح ما كد أن يصظم لأمر
حتى بدر المأمون من خير سأل إلى بعده ورد أمرهم لمعهده، وهلك عني بن

موسى الرضى وصلى عليه ولا تسأل عن الكف، فانه أعلم بحقائق الأمور، فلا بد من اعتبار ذلك في العهد. فالعصور تختلف باختلاف ما يحدث فيها من الآراء والقنائل والعصبيات، وتختلف باختلافها المصلح ولكن منها حكم يحصه، لطفاً من الله عباده.

وأما أن يكون لقصده بالعهد حفظ التراث على الأبناء، فليس من المقاصد الدينية، إذ هو أمراني يختص به من يشاء فيسغي أن يحسن لنية فيه ما أمكن، خوفاً من احث بالمصائب الدينية والمثلث له، يؤتبه من يشاء من عبده

وعترست بها حبيبة أتلوها عديث، فتأملها. وهي أنه ربما يظن أن ترك العهد أولى، بما أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعهد وليس ذلك صحيح. لإجماع الأصحاب من بعده على مصاء عهد أي بكر لعمر أو يطر أيضاً أن لعهد أولى، وأن النبي صلى الله عليه وسلم عهد كما تزعم الشيعة، وأنه أوصى بالأمر لعلي قلوباً ولم يكن بالذي يترك للناس مهمهم في دينهم وهذا أمر لم يعرف ولا يقه أحد من لسلف ولو عهد صلى الله عليه وسلم، لعرف ونقل واستشهد. وليس المنصب وأحواله بالحقية. وكلا هذين الرأيين غير صحيح

ولدي يبين لك حق في ذلك أن تعلم أن أمر الخلافة في المثلث لم يكن مهماً كما هو لعهدنا، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن همه إلا إقامة الدين خاصة بما هو أعلم للناس شرائعهم ويدعوهم إلى دينهم الذي فيه سعدتهم ولم يكن في معالم الدين وأركانه هم من الصلاة فكان محافظاً عليها، معنياً بمنصبه، فكان يستحلف لها أن بكر إذا عاب وفعل ذلك مراراً حتى علم أنه حقيقته على المهم الأكرم من ندين، وهو الصلاة، وأما منصب الخلافة، فلم يتعب بعد، إذ المثلث مفقود مهجور، لما عرف من حوال لسي صلى الله عليه وسلم في ذمه، واطراح الهوى والعصبيية. وتنفيذ أحكام الله بين المسلمين راجع إلى حماعتهم وإمام صلواتهم، كما قال للعحوز حين قل

لها ' رجع إلي . وقالت . فإن لم أجذك ، تعني الموت ، فقال لها : إيت أنا بكر .

ولم يظهر منصب الخلافة في الملك وبعيت الحاجة إليه إلا ظهور الردة والمتوحات . فاحتيج إلى حماية البيضة وحمل للناس على واحدة ونفذ ارتاب عمر لما وقعت لردة وقال لأبي بكر : أعنق عنك بيتك حتى يحكم الله . فقال له أبو بكر : " تنظر الوحي ؟ إنه لا وحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . حتى ينظر الله عمر لثنيه ، وحينئذ شغلوا بقتل أهل الردة ، وتعين منصب خلافة في حماية البيضة وحمل الناس على الجادة ، وبعثوا 'بعوث حتى أسمت العرب ، ثم جهروا لعساكر لدرس والروم وما تعد المنصب لم يهمنه أبو بكر ، فعهد لعمر نظراً للمسلمين ، وكذلك فعل عمر في الشورى وره منع اجتهداه وبراءة عهده . واعتبط عثمان وعبي دود ذلك ، وعهد معوية لانه وطنه حتهاداً ، كما قدمناه

والشيعة يحسون أن الخلافة كانت على عهد لسي عليه السلام كما هي لعهدهم من الاهتمام بها . فلذلك يرون أنه أوصى بها إسي علي ولم يهمنها ، واثره بها لقراءته منه . وليس ما حسوه من ذلك للصحيح وبما هي لأن مهمة لما هي الكافة عليه من الإقبال على الدنيا ومناصبها وحصول اللذات حصول رتتها وأما لو علموا حقيقة الأمر فيها ولعهده التي يرتكب صاحبها لمروا كما في الأمثال منها . ولله عالب على أمره .

[30] في الخطط الدينية الخلافة

عَمَّ نَ الخطط الشرعية، الدينية من نقضاء والنعم والخصلة و صلاة واجهاد والحسة كنه تحت لإمامة لكبرى لتي هي خلافة وكأها لام جمع والأصل الكبير، وهذه فروع ناشئة عنها ومدرحة تحتها، لأن الخلافة رأس الخطط الدينية كنه وعمها بصرأ، إذ صاحبها باط على أهل الأمة ومعد فهم أحكامها على عموم فمراتب لدين كنه لصره و تحت رسته

الصلاة والخطابة

وأرفعها كنه الصلاة والخصلة، ولقد يكون بعض الوحوه أرفع من خلافة، إذ حصت الخلافة بالصر في نسبة نعمة فقط وضمن جمهور، شهد بدت استدلال لصحة على خلافة أبي بكر لأهم لم يشكو في خلافته على الصلاة و قد كان بصرهم يومئذ في خلافته على نسبة خدهور وضمنهم على أحكام الشريعة في أمور دينهم ودينهم، و حصت حينئذ وقيست على صلاة و قد بد عتبر خلافة بمعنى لأعم فنكون الصلاة مدرحة فيها و كان خفاء لأوون لا يندوبها لغيرهم من الناس و نظر من طعن من خلفاء في المسجد عند الإيدل بالصلاة وترصدتهم لدك في أوفيتها

بشهادتك عند شربهم لها وأنهم لم يكونوا يستحقون فيها وكذلك كان حذفاء
لدعوة الأموية من بعدهم ستشار بها واستعطاماً لرئسها
بحكي عن عبد الله أنه قال خاخره قد جعلت لك حجابة نبي إلا عن
ثلاثة صاحب الطعام، فيه يفسد بالتأخير، وإدراك الصلاة، فإنه داع إلى
نفسه، وليريد، فإن في تأخيرها فساد بقضية
فما حاءت ضيعة الملك وعورصه من العبطة وترفع عن مسودة الناس
في دينهم وديارهم ستشاروا في الصلاة وكانوا يستأثرون بها في بعض الأعياد
سادة ونسبها، فعل ذلك كثير من حذفاء بني العباس والعبيديين صدر
دولتهم

القضاء والفتيا

وأما القضاء، فكان الحذفاء لأهل دولهم من بواب عهدهم في الفصل
من الخصوم لشعبهم بالعلم من مهمات الدين من مرافعات وسد اشغور
وحماية البينة إلا أنهم لم يكونوا يقدونه إلا لأهل عصيتهم بالنسب أو
النول، وما ستر من ذلك والتس بالخلقة، جمع بقاضي لنبابة في الصلاة
والخطبة وانظر في أموال لوقف واليتامى، وزم جعلوا له نغزو بالصوائف
مثل يحيى ابن كثر بالعراق ومدر بن سعيد بالأندلس وكذلك رفع قصص
المصلين وبهاؤهم بحذفاء مثل بن كثر بنمأمون وابن أبي دؤاد لمعتصم
وأمثالهم. فكان نقاضي عهدهم ورر ورثته رنة وزير وأرفع لأنه من أهل
عصية وكل رنة دنية فقد كانت تجمع لنقاضي حتى كاد الدولة اقتسمت
معه لدين وملك شطر شعير، كما كان امويون عند موك العرس

وما كادت هذه الحطة من مرسوم لدين والملة، وكان لأمر خلافة، كان
لحذفاء لا يكون فيها إلا رجال اعرب أهل عصيتهم أو الموالي المختصين
بصناعتهم وولايته من أهل الحروب وممارسة الجهاد ورب كانوا يجمعون
في الولاية بين القضاء وقيدة الثعور ونعوت وعساكر الصوائف، والكل

شرعية لأنها خطط جهدية. فقد كان يحيى من أكتف قاضي للمأمون يخرج بالصائفة ويدرب، وكان مدر بن سعيد السوطي قاضي الناصر الأموي يخرج بالصائفة بالشعر الأعلى. وقد عهد زيادة الله بن الأعلب لأسد بن مبرات على عزو صقنية، وكان شيخ القتب بالقيروان، فكان افتتحها على يده فلما انقضى شأن اخلافة وطمست معانها وصار الأمر كنه منك، صارت هذه الخطط أحسية عنه لأنها ليست من ألقاه ولا مراسمه ثم خرج الأمر حملة عن العرب وصار المنك لسواهم من أم الترت والبربر، ورددت هذه الخطط بعداً عنهم بمنحاهما وعصيتهم وذلك أن العرب كانوا يرون أن الشريعة دينهم والنبي صلى الله عليه وسلم منهم وأحكامه وشرعه نحلتهم بين الأمم وطرقتهم. واعجم لا يرون ذلك، إنما يولونها جانباً من التعظيم لما دأبوا بالملة فقط. فصاروا يقلدوهم من غير عصيتهم من كان تأهل لها في دول اخلاء لسالفة وكان أولئك لمتهلون من أحدهم ترف الدول مد مئين من السير قد نسوا عهد السادة وخشوتها والتسوا بالحصارة في عوائدهم وترفعهم ودعتهم وقمة المماعة عن أنفسهم، وصارت هذه الخطط في دول الملوكية من بعد اخلاء مختصة بهذا لصف من المستضعفين في أهل الأمصار. ونزل أهلها عن مراتب عز لفقد الأهلية بأسابهم وما هم عليه من اخصرة فحقهم من الاحتقار ما ينحق حضر المغمسين في اشراف والدعة لبعاء عن عصية المنك الذين هم عيال على حامية، وصار عتدهم في الدولة من أجل قيامها بأهله وأحدها بأحكام شريعتها. ولم يكن إيتارهم في الدولة حينئذ إكر ما لدوائهم وإما هو لما ينتمج من التحمل بمكانهم في محال المنك لتعظيم لرتب الشرعة ونم يكن لهم من الحل والعقد شيء وإن حصروه بحصور رسمي لا حقيقة وراءه. ومن اعتقد هذا منهم فهو عالط في نفسه أو معالط، إذ حقيقة الحل والعقد إيا هو القدرة عليه. فمن لا قدرة له عليه فلا حل ولا عقد لديه لهم أحد الأحكام الشرعية عنهم وتلقي الماوي منهم معهم، والله الموفق.

وربما يطر بعض الناس أن الحق فيما وراء ذلك، وأد فعل الملوك فيما فعلوه من إخراج الفقهاء والقضاة عن الشورى غلطون وقد قال صلى الله عليه وسلم: 'العلماء ورثة الأنبياء'. فعدم أن ذلك ليس بغلط منهم وحكم الملك والسبطان إنما يحري على ما تقتضيه طبيعة العمران، وإلا كن بعيداً عن السياسة. وطبيعة العمران في هؤلاء لا يقضي لهم بشيء من ذلك، لأن الشورى والحل والعقد أى يكون لصاحب عصبية يفتدر بها على حل أو عقد أو فعل أو ترك. وأم من لا عصبية له ولا يمدح من أمر نفسه شيئاً ولا من حماينها، وإنما هو عيال على غيره، فأى مدخل له في الشورى، أو أي معنى يدعو إلى اعتباره فيها؟ اللهم شوراها فيما علمه من الأحكام الشرعية، فموجود في الاستفتاء خاصة وأما شوارها في السياسة، فهو بعيد عنها لفقد العصبية والقديم على معرفة أحوالها وأحكامها وإى إكرامهم من تبرعات الملوك والأمراء الشاهدة لهم بحمى الاعتقاد في الدين وتعظيم من ينسب إليه بأي جهة اتسب

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: 'العلماء ورثة الأنبياء'، فاعلم أن الفقهاء في لأعلب لهذا العهد وما احتف به إنما حملوا الشريعة أقولاً في كيفية الأعدال في العبادات وكيفية القصاء في المعاملات ينصوبها على من يحتاج إلى لعمل بها. هذه عاية أكبرهم ولا يتصفون إلا بالأقل منها وفي بعض الأحوال. وللسلف رصوان الله عليهم وأهل الدين والورع من المسلمين حملوا الشريعة تصفاً بها وتحققاً بمذاهبها مثل أهل رسالة القشيري وأمثانهم ومن حتمع له الأمران فهو لعالم على الحقيقة وهو الوارث، مثل فقهاء التابعين والسلف والائمة الأربعة ومن اقتفى طريقهم وجاء على أثرهم.

وإذا انفرد واحد من الأمة بأحد الأمرين، ولعاند أحق بالوراثة من العقبة الذي ليس بعابد، لأن لعاند ورث صفة، ولعقبه الذي ليس بعابد لم يرث شيئاً. إنما هو صاحب أقوال ينصها عليها في كيميات العمل. وهؤلاء أكثر فقهاء عصرنا، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وقيل ما هم.

العدالة

ومعاهد التبرير للشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم وكذب شهادة في لسجلات. وهي حطة شرعية موحودة في لأمصدر وهم اعدول لذين يعصي بقاصي لأحكام بين الناس في البلد لشهادتهم وليس معناه أن لعدالة الشرعية منحصرة فيهم، فإن هذا يأده الحق والموجود وإنما لقاصي ما كان لا بد له من ديون وكتب يكتبون ديون به كان القائمون بذلك منميرين عنده عن غيرهم، مختص به. وأيضاً ولأمصاير كثيرة، ومعرفة القاصي لا تسعري الناس جميعاً، وحتاح أن يعين نذك من أحاطت به معرفته ومن يكون يحسن الوثيقة وكثرة ديون القاصي ويعرف أحكام تحمل شهادات وأدتها، وفقه الحدود والديات والقسامة والفرائض وسائر الأحكام التي تحب عني كتب القصة معرفتها فذلك منحصر في صنف من أهل المدينة دور غيرهم وأما لعدالة الشرعية فقد توحده في غير هؤلاء كثيراً ونكون نبع واما احتضن هذا الصنف بالتبرير نذكر لوجود اشروط فيهم والله اعلم

الحسنة والسكة

ومن الرتب الشرعية هذان احطتان، وهم لسطر في المعيش وفي سكة المسمين خوفاً عني ذلك من اعش في صنفه ووربه وهي دحة تحت الخلافة باعتبار أنها شرعية ومعم به السوى إلا أنها بسب في شرف غيرها، فهذا كانت دلة عن غيرها من رتب الشرعية وهما رتب أخرى ذهب لسطر فيه، وهي قسم العائم والأفعل، كان يعين لها من يقوم بها من الناس حين كان أمر جهاد في دور خلطاء ومن بعدهم، فيما تعطل رسم الجهاد ذهبت بالحمة. وفي الأحرار السانعة ما يشهد لك لوجوده يومئذ والله مصروف لأمر بحكمته

[31] في اللقب بأمر المؤمنين وأنه من سمات الخلافة¹

وهو محدث منذ عهد الخلفاء وذلك أنه لما نوبع أبو بكر رضي الله عنه كان الصحابة وسائر المسلمين يسمونه حبيبة رسول الله، ولم يرل لأمر على ذلك إلى أن هلك فمما نوبع لعمر بعهدده إنه، كانوا يدعونه حبيبة حبيبة رسالة الله وكأنهم يستقيموا هداً الله لطوله وكثرة إصافته، وأنه يتزيد فيما بعد دائماً، أي أن يستهي إلى الهبة ويذهب منه تميمين بتعدد المصافات وكثرتها، فلا يعرف فكأنوا يعدلون عن هداً اللقب إلى سواه مما يناسبه ويدعى به مثله.

وكنوا يسمون قواد المعوث باسم الأمير، وهو فعيل من الإمارة وقد كان أهل الحاضرة يدعون النبي صلى الله عليه وسلم أمير مكة، وأمير الحجاز. وكان الصحابة نصاً يدعون سعد بن أبي وقاص أمير المسلمين لإمرته على جيش القدس، وهو معظم المسلمين يومئذ ونفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه باسم أمير المؤمنين، فاستحسبه الناس واستصوبوه ودعوه به يقال أول من دعاه بذلك عبد الله بن حنشل، وقيل عمرو بن لعاص

سقط هذا عنه - في [ب]

والغيرة ابن شُعْبة وقيل بريء بفتح من بعض البعوث، دخل المدينة وهو يسأل عن عمر ويقول: 'أين أمير المؤمنين؟' وسمعه أصحابه، واستحسنوه وقالوا: 'أصبت، والله سمعته، إنه أمير المؤمنين حقاً' فدُعي به، وذهب لقائه في الدس وتوارثه الخلفاء من بعده، سمة لا يشاركون فيها أحد سوى هم سائر دولة بني أمية.

ثم إن الشيعة حصوا علياً باسم الإمام عتبه في الإمامة التي هي أخت الخلافة، وتعريضاً بذهبهم في أنه أحق بإمامة الصلاة من أبي بكر، وإن الإمامة رُفع رتبة من النبوة، كما هو مذهبهم وبدعتهم. فحسوه بهذا اللقب ولمن يسوقون إليه منصب الخلافة من بعده فكان كلهم يسمى بالإمام، ما داموا يدعون لهم في الخفاء. حتى إذا استولوا على الدولة يحولون اللقب فيمن بعده إلى أمير المؤمنين، كما فعله شعبة بن الحجاج فإتباعهم ما زالوا يدعون أئمتهم بالإمام إلى إبراهيم الذي جهروا بالدعاء له وعقدوا الرايات للحرب على أمره. فلما هب دعى أخوه السفاح بأمير المؤمنين وكند الرافضة بإفريقية ما زالوا يدعون الأئمة من ولد إسماعيل بالإمام حتى انتهى الأمر لتعيد إليه المهدي، وكانوا أيضاً يدعونه الإمام، ولأنه أبي القاسم من بعده. فلما استوثق لهما الأمر دعو من بعدهم أمير المؤمنين وكذا الأدارسة بالمغرب كانوا يدعون إدريس بالإمام، وأنه إدريس لأصغر كذلك وهكذا شأنهم.

وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمير المؤمنين، وحملوه سمة لم يملك الحجاج ولشام ولعراق، المواطن التي هي دير العرب ومراكز الدولة. وازداد لذلك في عفوان الدولة وبدخها لقب حر للخلفاء يتميز به بعضهم عن بعض، لما في أمير المؤمنين من الاشتراك بينهم. فاستحدث ذلك بنو العباس حجاجاً لأسمائهم لأعلام عن امتنانها في السنة السوقية، وصوت لها عن الاستدلال. فتنبسوا بالسفاح والنصور والهدي والمهدي والرشد، إلى آخر الدولة. واقتضى أثرهم في ذلك لعبيديون بإفريقية ومصر

وتجافى بنو أمية عن ذلك أما بالمشرق قبلهم، فجرباً مع العصاة والسداحة. لأن العروبية ومنازعها لم تفرق حينئذ ولم يتحول عنهم شعار البداوة إلى شعار الحضارة. وأما بالأندلس، فتقليداً لسيدهم، مع ما علموه من أنفسهم من القصور عن ذلك بالقصور عن ملك الحجر أصل العرب. وللبعد عن دار خلافة التي هي مركز لعصبية، وأهم إمامهم بإمرة القصة أنفسهم من مهالك بني العباس حتى إذا جاء عبد الرحمن الآخر منهم، وهو ابن محمد بن الأمير عبد له لأول المائة الرابعة، واشتهر ما سأل الخلافة بالمشرق من الحجر واستبدد الموالي وعيشتهم في الخلفاء بالعزل والاستبدال والقتل والسمل، ذهب عبد الرحمن هذا إلى مثل مذهب الخلفاء بالمشرق وإفريقية، وتسمى أمير المؤمنين وتلف بالصدر لدين الله. وأحدث من بعده عادة ومذهباً لقى عنه، ولم يكن لأبيه وسلف قومه. واستمرت الحال على ذلك إلى أن انقرضت عصبية العرب أجمع، وذهب رسم الخلافة، وتغلب الموالي من العجم على بني العباس والصنائع على العبيدين بالقاهرة وصهاجة على أمر إفريقية وزنتة على المغرب وملوك الطوائف بالأندلس على أمر بني أمية واقتسموه وافترق أمر الإسلام، فاختلعت مذهب الملوك بالمغرب والشرق في اختصاص بالألقاب.

فما ملوك المشرق من العجم، فكان الخلفاء يحصونهم بالألقاب تشريفية يستشعر منها نقيادهم وطاعهم وحسن ولايتهم، مثل شرف لدولة، وعضد الدولة، وركن لدولة، ومعز الدولة، ونصير الدولة، وبطم الملك، وبهاء الملك، ودحيرة الملك، وأمثال هذه. وكان لعبيديون أيضاً يخصون بها أمراء صهاجة. فما استبدوا على الخلفاء، فتعوا بهده الألقاب وتجاووا عن ألقاب الخلافة أدباً معها وعدولاً عن سماتها المختصة بها، شأن المتغنين المستدين، كما قلناه قبل. ونزع المتأخرون من أعاصم المشرق حين قوى استبدادهم على الملك وعلا كعبهم في الدولة ولسلطان وتلاشت عصبية الخلافة واصمحت بإحتمالها إلى التحول بالألقاب الخاصة بالملك، مثل الناصر والمنصور، زيادة إلى

اللقاب كانوا يحتصرون بها قبل هذا، لانتحال، مشيرة بالخروج عن رتبة الولاء ولاصطلاح ما أضفوها إلى الدين فقط، فيقولون صلاح لدين، أسد الدين، نور لدين

وهذه شأن ملوك الترك بالقاهرة لقوه من بى أيوب مولاهم الأعيان واستمر لهم إلى هذا العهد

وأما ملوك الطوائف بالأسديس، فاقسموا لقب خلافة ونور عوهم لقوة استدادهم عليها بما كانوا من قبيلها وعصيتها فتلقوا بناصر، والمصور، والمعتمد، والمظفر، ومثله، كما قال ابن شرف .

بما يزهدي في أرض أسديس أسماء معتمد فيها ومعتمد
لقب ممسكة في غير موضعها كلقب يحكى متحدا صورة لأسد

وقد مر ذكره

وأما صنهاجة، فاقصروا على الألقاب التي كان حلفاء لعبيدين يتقونهم بها لتتويج، مثل صير الدولة، وسيف الدولة، ومعز الدولة وتصل لهم ذلك لما أدانو من دعوة العبيدين بدعوة العباسيين. ثم بعدت اشتقة بينهم وبين خلافة ونسب عهده، فسوا هذه الألقاب وقتصروا على اسم لسلطان وكذا شأن ملوك معروفة بالمغرب لم يتحلوا شيئا من هذه الألقاب إلا اسم السلطان، جريا على مذاهب مداوة والغصاصة

ولما أمضى رسم خلافة وتعطر دستها وقام المغرب من قائل اسربر يوسف بن تاشفين فمكث العدويين، وكان من أهل خير ولافتداء، نزعته همة إلى الدحول في طاعة خيفة تكميلاً لم رسم دينه. فحاطب المستظهر العباسي وأود عليه سعته عند له بن العربي وبه القصي أنا بكر، من

{2} شأن معروفة بالمغرب {ب}

مشيخة إشيسية، فانتقلوا إليه بعهد الخليفة له على المغرب واستشعار زبهم في لبوسه وريته، وخاضبه فيه بأمر المسلمين، تشریفاً له واحتصاصاً. ويقال إنه دعي له بأمر المسلمين من قبل، أدياً مع رتبة الخلافة لما كان عليه هو وقومه المرابطون من انتحال الدين واتباع السنة.

وجاء المهدي على أثرهم داعياً إلى الحق، أخذاً بمذاهب الأشعرية، دعياً على أهل المغرب عدولهم عنها إلى تقليد السلف في ترك التأويل لظواهر الشريعة وما يؤول إليه ذلك من التجسيم. وسمى أتباعه الموحدين، تعريضاً بذلك للنكير. وكره رأي أهل البيت في الإمام المعصوم أنه لا بد منه في كل زمان لحفظ هذا العالم. فسمي بالإمام أولاً لما قنائه من مذهب الشيعة في لقاء حداثهم، وأردف بالمعصوم إشارة إلى مذهبه في عصمة الإمام. ونزعه عن أمير المؤمنين أخذاً بمذاهب المتقدمين من الشيعة. ولما فيها من مشاركة لأعمار والولدان من أعقاب أهل الخلافة يومئذ بالشرق والمغرب. ثم انتحل عبد المؤمن. وفي عهده. اللقب بأمر المؤمنين، وجرى عليه من بعده خلفاء بني عبد المؤمن. آل أبي حفص بإفريقية من بعدهم، استشاراً به عن سواهم لما دعا إليه شيوخهم المهدي من ذلك. وأنه صاحب الأمر، وأوليائه من بعده كذلك دون كل أحد لانتفاء عصبية قریش وتلاشيها. فكان ذلك دأبهم.

وما انتقص الأمر بالمغرب وانتزعه زناته، ذهب أولوهم مذاهب البداوة والسداجة واتباع ثنوية في انتحال اللقب بأمر المسلمين أدياً مع رتبة الخلافة التي كانوا على طاعتها لبني عبد المؤمن أولاً. ولبني أبي حفص من بعدهم. ثم نزح المتأخرون منهم إلى اللقب بأمر المؤمنين وانتحلوه لهذا العهد استبلاغاً في منازع الملك وتعميماً لمذاهبه وسماته. والله غالب على أمره.

١٦، واحتصاصاً، فانتحلها لقباً ويقال [ب]

[32] في معنى البابية في الملة النصرانية

اعلم أن البابية في الملة النصرانية هو خليفة المسيح القائم بدينه، كما هو الخليفة في الملة الإسلامية. إلا أن الفرق بينهما دقيق وذلك أن صاحب ملتهم، وهو عيسى صلوات الله عليه، ليس من أهل عصبيتهم، لأنه من بني إسرائيل. وإنما أخذ قسطنطين، ملك الروم، ملته من الأساقفة، أتباع الخواريين، ووضعوها له وضعاً كما نذكره في اجتماع الروم على دين عيسى فلم يديبوا بملته الحامل حملهم على ذلك وأرادهم عليه، وإنما كان اختياراً ورغبة من قسطنطين. فلم تضطهدهم عصبية، ولا التبس لديهم ملك بخلافة. إنما بقي منكمم لأهل عصبيتهم، وخلافة دينهم لأهل ملتهم. ولم يشروطوا في خلافة البابية نسباً، إذ لا ضرورة تدعو إلى ذلك. وأيضاً، فليس هناك نسب يرتضونه لو اشترط إلا نسب صاحب الملة، عيسى صلوات الله عليه، وهو إسرائيلي، وهم مسخوطون عندهم بقتلهم إياه بزعمهم، وعدو بذلك لله ولرسوله عندهم. فليس بنسب مرضي في دينهم.

فتنزل البابية عندهم منزلة الخليفة العباسي عندنا لهذا العهد، لما خرج الملك عن عصبية الخليفة أجمع، بتلاشي عصبية العرب، وصار الأمر للعجم وعصائهم، وصار الخليفة عندهم للتبرك به خاصة. وكذلك البابية يعصي

بينهم أحكام الله، ولا يتقادون له في شيء من أحوال ملكهم، شأن ميوك المعجم من أهل المشرق مع الخليفة لهذا العهد. فتفهم ذلك واعتبره وإنما يشربون فيه معرفته بأحكام الملة النصرانية والاتباع لهدى عيسى والحواريين من بعده، مع أن ملة عيسى لم يكن فيها كبير أحكام في المعاملات، إنما هي قربات كلها. لأنه إنما كان رهبانياً زاهداً فكان مُتَّبِعُوهُ يحرصون على اقتفاء سنته. وليس الجهاد مشروفاً عندهم، فلذلك لم يكن البابا عندهم يحكم على ملوكهم في أمور دنياهم. وإنما طاعتهم لدينه بتمكينه من إقامة مراسم العبادة التي لملة عيسى في بيوتهم وكنائسهم، يبعث البابا إليها الأقسُسَ والقمامسة ويوليهم إقامتها في ممالك النصرانية. وإذا سخط أحد من الملوك، فبئس مظهر سخطه في تعطيل تلك الرسوم بأرضه بأن يوعز إلى الأقسُس والقمامسة يحرسن الدفوس ويخفوا التماثيل وتعطيل الصلوات التي هي فرض كفاية عندهم وهي صلوات المسيح الزائدة على فرض التوراة من الصلاة.

هذا مذلول هذا الاسم عندهم، وهو صاحب هذه الخطبة التي ذكرنا ويرشحون للاستخلاف من بعده طبقات أخرى متتالية. يقال إن لتي تبه منهم تسمى "القرندارية"، وعددهم اثنا عشر. ثم بعدهم السبعون فإذا فقد البابا، اختير لمكانه أحد القرندارية الإثنى عشر، واختير لمكان الآخر من السبعين، واختير لمكان الذي من السبعين ممن سواهم من الرهبان والأقسُس العاكفين على العبادة والاقتداء بهدى عيسى والحواريين.

وضبط هذه اللفظة بباءين موحدين من أسفل، والنطق بها مدخمة، شأن هذا الحرف عند المعجم. ومعناه الأب. فإن هذه اللفظة التي هي 'ببا' هي عبارة الولدان عن آبائهم بالطبع في أهل كل لغة. ولما كان هذا الرجر كافلاً لأمر دينهم، فنزلوه منزلة الأب، وعبروا عنه بعبارة الولدان. وشأنهم في النطق بالباء التفخيم. وربما يزيد بعضهم في هذا الاسم هاء ويشد الباء الأخيرة. وربما يسميه بعضهم "البترك" بباء وتاء متوسطة بين مخرج التاء والطاء، على عادة المعجم في النطق بها، وراء بعدها وكاف بعد الراء

وَأُولَئِكَ مَن كَانَ أَخذَ بِهِذَ الدِّينِ مِن أُمَّةِ الرُّومِ قُسْطُنْطِينَ بنِ [] عَنِ ما يَأْتِي فِي ذِكْرِهِم. وَلَمْ يَزَلِ البَابَةُ واحِدَةً فِي المِثَّةِ النِّصْرَانِيَّةِ مَدَّةَ مَلِكِ الرُّومِ وَغَدِبِهِم لَأُمِّ النِّصَارِيِّ. وَكَانَ مِزْلُهُ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، فَبِمَا تَلَا شَيْ أَمْرَ الرُّومِ وَضَعْفَ وَضَاقِ نِطَاقِ دَوْلَتِهِمْ وَتَحْيِيزِوا إِلَى لِقَسْطَنْطِينِيَّةِ، وَفَتَرَتْ الأُمُّ لِنِصْرَانِيَّةٍ وَتَعَدَّدَ مَلُوكُهَا فِي جَنْبِ الغَرْبِيِّ مِن نِواحِي الشَّامِ، أَقْدَمَ لِإِفْرَنْجَةِ وَمِنَ وِراءِهِم هُنَاكَ بَابَةً لَأَنْفُسِهِمْ. فَمَسَكْنَهُ لِهَذِ العَهْدِ بِرُومَةٍ.

وَمِنَ مَذاهِبِ البَابَةِ فِي المِثَّةِ النِّصْرَانِيَّةِ أَنَّهُ يَحْضِيهِمْ عَنِ الانْقِيادِ لِمَلِكِ واحِدٍ يَرْجِعُونَ فِي أَحْكامِهِمْ وَاجْتِماعِهِمْ إِلَيْهِ، وَيَتَحَرَّى بِهِ لِعَصْبِيَّةِ الَّتِي لَا فَوْقَها مِنْهُمْ لَتَكُونَ يَدُهُ عَلَيْهِمْ. وَيَسْمِيهِ الأَنْبَرُضُورَ. وَيَبْاَشِرُوهَ بِوَضْعِ لَتَحِ عَنِ رَأْسِهِ، فَيَسْمَى الْمُتَوَحَّ، حَرْصًا عَنِ اجْتِماعِ كِثْمَةِ النِّصْرَانِيَّةِ، بِأَلَمْ يَقْدِرْهُوَ عَلَيْهَا بِفَقْدانِ العَصْبِيَّةِ فَكَانَ الأَنْبَرُطُورُ فِي المِثَّةِ لِنِصْرَانِيَّةٍ قَبْلَ لِإِسْلامِ مِنَ الرُّومِ بِقُوَّةِ نَأْسِهِمْ حَيْثُ وَعَسِيهِمْ عَنِ الأُمِّ. ثُمَّ ذَا فَتَرَقَ أَمْرُ لِنِصْرَانِيَّةٍ وَصارَ نِرومُ نَبْ وَلِفَرَنْجَةِ نَبْ، حَتَّى نَبْ لِمَرْجَةِ لِأَنْبَرُطُورِ مِنْهُمْ وَبَقِيَ لِرُومِ عَنِ عَدَنَتِهِم الَّتِي كَسَتْ لِأَوْنِهِمْ. فَدَبَّحَ لَهُمْ مِزْلَهُ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ كَمَا كَانَ لِشَبابِ، وَنِطَورِهِمْ مِنَ قَبِيلِهِمْ. هَذَا ما يَدْعُو مِنَ اخْتِيارِ النِّصْرَانِ، وَأَنَّهُ أَعْمَهُ صَحَّتْهُ

(١) بِبَعْضِ مِثْ [أ] وَ[ب]

[33] في مراتب الملك والسيطان وألقابها

اعلم أن السيطان في نفسه مستضعف يحمل أمراً ثقيلاً. فلا بد له من الاستعانة عليه بأناء حسه وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وسائر مهه، فما ظنك بسياسة نوعه ومن سترعاه الله من خلقه وعباده. وهو محتاج إلى حماية الكافة من عدوهم بالمدافعة عنهم، وإلى كف عدوان بعضهم على بعض في أنفسهم بمصء الأحكام الوازنة فيهم وكف العدوان في أموالهم بإصلاح سائلتهم، وإلى حملهم على مصابهم وما تعم به^١ البدوى في معاشهم ومعاملاتهم من تفقد المعاش والمكايل والموازين حذراً من التطفيف، وإلى النظر في السكة لحفظ النقود التي يتعمدون بها من الغش، وإلى سياستهم بما يريده منهم من الانقياد له ولرصى مقاصده فيهم ومراعاة المجد وديهم فيتحمس من ذلك فوق العاية من معاناة القنوب قال بعض الأشراف من حكماء 'معاناة نقل الحال من أماكنها أهون علي من معاناة قلوب لرجال'

[١]، صيف [ب]

[٢] وما تعمهم به [ب]

ثم إن الاستعانة إذا كانت بأولي القربى من أهل النسب أو التربية أو الاصطناع القديم للدولة كانت أكمل لما يقع في ذلك من مجاسة خلقهم خلقه، فتمت المشاكلة في الاستعانة. قال تعالى : «جعل لي وزيراً من أهلي هرون أخى، أشد به زري وأشركه في أمري وهو إم أن يستعين سيفه، أو قمه، أو رأيه ومعارفه، أو بحجابه عن الناس أن يزدحموا عليه فيشعده عن النظر في مهماتهم. فقد توجد لرجل واحد، وقد تفترق في أشخاص.

وقد يتفرع كل واحد منها إلى فروع كثيرة، كالقلم يتفرع إلى الرسائل والمخططات وقلم الأوامر، وإلى قلم المحاسبة، وهو صاحب الجاية والعطاء وكل سيف يتفرع إلى صاحب الحرب، وصاحب الشرطة، وصاحب البريد، وولاية الثغور. وكل معارف تتفرع إلى معرفة الأحكام والدين، وهو القاضي المفد لأحكام لشرعية إدا السطان إما هو حارس للهمة، وإلى معرفة السياسة، وهو الحسب والمشاور.

ولكل واحد من هذه حطة في الدولة وخطط بها تتفرع وتتعدد ورمى استوفى الكثير من هذه الخطط في تفصيلها وعدد شروطها وأحكامها القاضي الماوردي في كتاب الأحكام السلطانية، أفرد ذلك الكتاب لها وبين كثيراً من الخطط والمراتب على ما تقتضيه الأحكام الشرعية، وإن كانت انقلبت إلى السلطان والملث، لكنه كونه جمع بينهما في ظاهر أمره. ولم يحصر هذا الكتب حين لتأليف فاستوعبها، لكنني ذاكرها واحدة واحدة وأبين من أحوالها ما أمكني مما طبع على من أخبار الدول.

الوزارة

وهي أم الخطط السلطانية والرتب المنوكية لأن اسمها يدل على مطلق الإعدة فإن الوزارة مأخوذة إما من المؤازرة، وهي المعاونة، أو من الورد، وهو الثقل، كأنه يحمل مع مُعاعله أوزاره وأثقاله. وهو راجع إلى المعاونة المطلقة.

وقد كنا قد منّا في أول الفصل أن أحوال السطان وتصرفه لا تعدو رُبعة
أنحاء

لأنها إما أن تكون في أمور حمية الكافة وأسبابها من النظر في الحند
والسلاح والحروب وسائر أمور الحمية ومضلة، وصاحب هذا هو الورير في
المتعرف وإما أن تكون في أمور مخاطباته لمن يُعد عنه في المكان أو في
الزمان وتنفيذه الأوامر فيمن هو محجوب عنه، وصاحب هذا هو الكاتب
وإما أن تكون في أمور حياته لئمال ونفاقه وصسط ذلك من جميع وجوهه أن
يكون بمصيبة، وصاحب هذا هو صاحب المال والحياة. وإما أن تكون في
مدافعة الناس ذوي الحاجات عنه أن يزدحموا عليه فيشعبوه عن مهمه، وهد
راجع لصاحب الباب الذي يحجه

فلا تعدو أحواله هذه لأربعة بوجه، وكل حطة أو رنة من رب منك
والسطان فيليها ترجع. إلا أن الأرفع منها ما كانت الإعاة فيه عامة فيم تحت
يد السطان من ذلك الصنف، وهو يقتضي مباشرة السطان دائماً ومشر كنه
في كل صنف من أحوال ملكه. وأما ما كان حصاً لبعض شئس أو بعض
الجهات، فيكون دون الرنة الأخرى، كقيادة ثعر أو ولاية جاية خاصة أو النظر
في عمل خاص كحسة الطعام والنظر في لسكة. فإن هذه كلها نظر في
أحوال خاصة. فيكون صاحبها ناعاً لأهل لنظر النعام، وتكون رتبتهم مرؤوسة
لأولئك

وما زال الأمر في لدول قبل الإسلام هذا، حتى إذا جاء الإسلام وصار
لأمر خلافة، فذهبت هذه لخطط كنها بدهاب رسم الملك، إلا ما هو طيعي
من المعونة بالرأي والمقوضة فيه، فلم يمكن رونه، إذ هو أمر لا بد منه فكان
صلى له عليه وسلم يشاور أصحابه وينصوهم في مهمته العامة والخاصة.
ويختص مع ذلك أما بكر حصوصيات أخرى، حتى كن عرب لذين عرفوا
الدور وباشرو أحوالها في كِسْرَى وَفَيْصَر وَالتَّخَرِشِي يسمون أكر وريره
وئم يكن لفظ الورير يعرف بين المسلمين، لدهاب رتب الملك بسداحة
الإسلام. وكد عمر مع أبي بكر، وعلي وعثمان مع عمر

وأما حال الحباية والإيقاق والحساد، فلم يكن عندهم مرتبة، لأن العلوم كانوا عرباً مُبِينِينَ لا يحسبون الكتاب ولا الحساب فكأنوا يستعمرون في حسان أهل الكتاب أو فر دأ من موالي لعرب عن يحبده وكان قبلأ فيهم وأما أشرفهم، فلم يكونو يحبذونه، لأن الأمية كانت صفتهم التي امدروا بها وكذا حال المحاطات وتبعيد الأمور لم تكن عندهم رتبة خاصة للأمية حتى فيهم ولأمانة لعامة في كتمان القور وتأديته ولم تحوج سياسة إلى حثيره، لأن الخلافة إنما هي دين ولست من لسياسة في شيء، وبصاً، فلم تكن لكتابة صدعه فيسجد لـحقيقة أحسها، فكان احدىقة يستيب في كنده متى عن له من يحسنه وأما مدافعة ذوي الاحباب عن نوابهم، فكان محظوراً بالشريعة، فلم يعنوه

فلمما تمت خلافة إلى الملك وجاءت رسوم نسطور وأقده، كان أو شيء يدئ له في لدولة الأموية شأن لبا وسده دور الجمهور، لما كانوا يحشون على أنفسهم من عتيا حواراح وغيرهم، كما وقع بعمر وعنى و معاوية وعمر بن العاصي وغيرهم مع ما فى فتحه من ردهم بسس عنهم وشعهم بهم عن مهمات ونحدو من يقوم لهم بذلك، وسموه حاجب وقد جاء أن عبد الملك لما ولى حاجبه قال له 'ويتك حجة نبي، لا عن ثلاثة المؤذن للصلاة، فيه داعي الله، وصاحب لريد، فأمر ما جاء به، وصاحب طعام مثلاً يمسد'

ثم استمحل الملك عدد دك، فظهر المشاور وسعس في أمور القبتل ولعصائب وسنلافهم، وأطلق عليه اسم الوزير وبقي أمر احسان في لموالي والدميين. واحد لسنحلات كاتب محصوص حوطة على أسرار النسطور أن تشتهر بفساد سياسته مع قومه ولم يكن مثدة لوزير، لأنه إنما احتيج له من حيث الخط والكتاب، لا من حيث لفساد الذي هو الكلام، إذ

(١٦) أحسها لأن الكل كانوا يعرفون عن مقاصدهم بأربع أعمار، ولم يسبق إلا لخط فكان سـ

اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد. فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبهم يومئذ هـند سائر دولة سي أمية. وكان نظره عاماً في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر أمور الجدييات والمطائنات، وما يتبعها من النظر في ديوان الحدد وفرص إعطائها بالأهنة وغير ذلك.

فلما جاءت دولة بني العباس واستفحل المنك وعظمت مراتبه وارتفعت، عظم شأن الوزير وصار إليه النيابة في إقصاد الحل والعقد، وتعينت مرتبته في الدولة، وعنت له الوجوه وخصعت الرقب، وحُمل له النظر في ديوان الحسان، لما تحتج إليه خطته من قسم الأعطيات في الحد، واحتج إلى النظر في جمعه وتفريقه، وأُضيف إليه النظر فيه ثم حُمل له النظر في القلم ولترسيل صيود أسرار لسلطان ولحفظ لئلاعة. وكان السان قد فسد عند بجمهور.

وجعل الخاتم لسجلات لسلطان ليحفظها عن لذيوع والشيوع ودفع إليه فصار اسم الوزير جامعاً لخطتي سيف والقسم وسائر معاني الوزارة والمعاونة، إلا شأن الباب فبقي لصاحبه المسمى بالحاجب لاستكتاف الوزير عن مثل ذلك

ثم جاء في لدولة العباسية شأن الاستبداد على لسلطان، وتعاور فيها استداد لوزراء مرة ولسلطان أخرى، وصار الوزير إذا استد محمناً إلى استدة الخليفة إياه لذلك لتصح لأحكام الشرعية وتخري على أصلها. فبقسمت الوزارة حينئذ إلى وزارة تنفيذ وهي حال ما يكون السلطان قائماً على نفسه، وإلى وزارة تمويص وهي حال ما يكون الوزير مستنداً عليه

ثم ستمر الاستبداد وصار الأمر لمولوك العجم، وتعطل رسم الخلافة ولم يكن لأولئك المتغلبين أن يتحلوا لقب الخلافة، وستكموا من مشركة لوزير في القبل لأنهم خول لهم، فتسموا بالأمرة. وكان المستند على الدولة يسمى أمير الأمراء، إلى ما يحلبه له الخليفة من ألقابه، كما تراه في أخبارهم. وتركوا اسم الوزارة إلى من يتولاها للخليفة في حصته. ولم يزل هذا الشأن عندهم إلى آخر دولتهم.

وفسد اللسان خلال ذلك كله وصار صناعةً ينتحلها بعض الناس. فامتهنت وترفع الوزراء عنها لذلك ولأنهم عجم، وليس تلك البلاغة هي المقصودة من لسانهم. فتخير لها من سائر الطبقات واختصت به، وصارت حادمةً للوزير. واقتصر باسم الوزير على معاني الحروب والجند وما يرجع إليها، ويده مع ذلك عالية على أهل الرتب، وأمره نافذ في الكل، إما بيابة أو استبداداً. واستمر الأمر على هذا.

ثم جاءت دولة الترك آخراً بمصر، فأرأوا الوزارة قد ابتذلت بترفع أولائك عنها ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور، ونظره مع ذلك متعقب بنظر أمير، فصارت مرووسةً ناقصةً، فاستكف أهل هذه الرتبة العالية في الدولة عن اسم الوزارة، وصار يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد. ولم يزل اسم الحاجب في مدلوله.

وأما دولة بني أمية بالأندلس، فأبقوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة، ثم قسموا خطته أصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً. فجعلوا الحسان الدول وريراً، ولتوسل وزيراً، ولتنظر في حوائج المتظلمين وزيراً، ولتنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً. وجعل لهم بيت يجلسون فيه على قُرُش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان هنالك، كل فيما جعل له. وأفرد للتردد بينهم وبين الخيمة واحد منهم ارتفع عنهم مباشرة السلطان في كل وقت فارتفع مجلسه عن مجالسهم، وخصّوه باسم الحاجب. ولم يزل الشأن هذا إلى آخر دولتهم. فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها. فأكثرهم كان يُسمّى الحاجب، كما نذكره.

ثم جاءت دولة الشيعة بإفريقية والقيروان، وكان للقائمين بها رسوخ في الداوة، فأعفلوا أمر هذه الخطط أولاً وتَقَيَّح أسمائها، حتى إذا أدركت دولتهم الحضارة صاورا إلى تقليد الدولتين قبلهم في وضع أسمائها، كما تراه في دولتهم.

ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك أغفلت لأمر أولاً لساواة، ثم صارت إلى اتحال الأسماء، فكان اسم الورير في مدلوله، ثم اتعوا دولة لأمويين وقلدهم في مذاهب السلطان وأصروا اسم الورير لمن يحجب لسلطان في مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند حدود في تحتهم وخطابهم والأدب التي تلزم في الكون بين يديه ورفعوا حطة حجابة عنه ما شاؤوا، ولم يزل الشئ هذا إلى هذا العهد ولله متولي الأمور.

الحجابة

قد قدمنا أن هذا للقب كان مخصوصاً في الدولة العباسية من بحجب السلطان عن العامة ويغلق بابه دونهم أو يفتح لهم على قدره وفي مواقفه وكانت هذه منزلة يومئذ عن الخطط مرفوعة لهم، يد الورير متصرف فيها يراه وهكذا، كانت سائر أيام بني العباس وإلى هذا العهد فهي بمصر مرفوعة لصاحب الخططة لعليل لمسمى نائب. وإنما صاحب عندهم هو المتصرف بين يدي السلطان القائم على رأسه في المشهد والمجلس العامة وخاصة. وأما في دولة بني أمية بالأندلس، فكانت حجابة لمن يحجب السلطان عن الخاصة والعامة، ويكون واسطة بينه وبين لوزراء فمن دونهم، فكانت في دولتهم ربيعة عاية، كما تراه في أخبارهم، كان حذير وغيره من حجبهم، ثم لما جاء الاستبداد على الدولة احتصن المستند باسم حجابة لشرفهم، فكان المنصور بن أبي عمر وأبنائه كذلك ولدوا في مطهر الملك وأطواره، جاء من بعدهم من ملوك لطوائف هم تركوا لقباً، وكانو يعدونه شرفاً لهم. وكان أعظمهم مكاناً بعد اتحال لقب لملك وأسمائه لا بد له من ذكر صاحب وذي الوزارتين، يعسور به السيف والقلم يذنون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة، ويدي لوزارتين على جمعه خططي سيف والقلم.

ثم لم يكن في دول المغرب وإفريقية ذكر لهذا الاسم للبداوة التي كانت مهمهم وربما يوجد في دولة العبيدين بمصر عند استغلالها وحصرتها. إلا أنه قيس. ولما جاءت دولة الموحدين لم تستمكن فيها الحضارة الداعية إلى التحلل لألقاب وتمييز الخطوط وتعيينها بالأسماء إلا آخراً. فلم يكن عندهم من ترتيب الألقاب إلا أن يورس كانوا أولاً يخصون هذا الاسم بالكاتب المتصرف المشترك لتسلط في خاص أمره، كابن عطية وعبد السلام الكومي، وكان له مع ذلك نظر في الحسبان والأشغال. ثم صار اسم الوزير لأهل الدولة من الموحدين. كابن جامع وغيره. ولم يكن اسم الحاجب معروفاً عندهم.

وعند استبداد بني أبي حفص، كانت الرئاسة في دولتهم أولاً والنقد للوزير الرأي والمشورة، وكان يخص باسم شيخ الموحدين. وكان له النظر في الولايات والعزل وقود العساكر والحروب. واختص الحسبان برتبة أخرى سمي متوليها بصاحب الأشغال، ينظر فيها النظر المطلق في الدخل وخرج. ويحاسب ويستخلص الأموال ويعاقب على التفريط. ويسمى بصاحب الأشغال. وكان من شرطه أن يكون من الموحدين. واختص القنم أيضاً عن يحد لترسيب ويؤمن على الأسرار، لأن الكتابة لم تكن من متحل لغوه ولا ترسيب بلسانهم، فلم يشترط فيه النسب. واحتاج السلطان لأنوسع مكانه وكثرة ترزقين في داره إلى قهرمان خاص بداره في أحواله بحريها على قدره وترتيبها من رزق وعطاء وحصر للذخيرة والإصطبلات وتنفيذ ما سحتاج إليه في ذلك على أهل الجباية، فخصوه باسم الحاجب. ورى استصفاؤه كتاب العلامة على السجلات إذا اتفق أن يحسن صاعه ككتبة، وربما جعلوه لغيره. واستمر الأمر على ذلك. وحجب السلطان نفسه عن الناس، فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين أهل الرتب كهم ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب، ثم الرأي والمشورة، فصارت الحطة أرفع الرتب وأوعبها للخطط. ثم جاء الاستبداد والحجر مدة من بعد مولد السلطان أبي يحيى. ثم استبد السلطان بأمره وأذهب آثار الحجر والاستبداد

عنه يذهب خطة الحجابة التي كانت سلماً إليه، وبشر أموره كله بنفسه من غير استعانة بأحد والأمر على ذلك لهذا العهد

وأم دول رتبة، فلا أثر لاسم الحاجب عند سي مرين. وأما الخطة التي هي رياضة الحرب والعساكر، فهي لدولة، ورتبة القدم في الحسبان والكتاب رتبة إلى من يحسبهم من أهله وقد تجمع عندهم. وقد تُفَرَّق. وأما باب السلطان وحجبه عن العمة، فهي رتبة عندهم يسمى صاحبها بالمزوار ومعه المزوار على الحرس والحدود، المعروف عنهم. فللباب له، وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود في دار العمة رجع إليه فكُنْها ورارة صغرى. وأم دولة بني عبد الواد، فلا أثر عندهم لشيء من هذه الألقاب ولا تمييز خطط، لدولة دولتهم وقصورها. وإنما يحصون باسم الحاجب في بعض الأحياء منفذ الخاص بالسلطان في داره. كما كان في دولة بني أبي حمص وقد يجمعون له حسان والسجل كما كان فيها، حملهم على ذلك تقليد الدولة مع كانوا في بيعته وقائمين بدعوتها منذ أول أمرهم

وأما أهل الأندلس لهذا العهد، فالمحصوص عندهم بالحسبان وتنفيذ حاص السلطان وسائر الأمور للمانية يسمونه بالوكيل. والورير كالتوريز، إلا أنه قد يُجمع له الترسيل. والسلطان عندهم يصع خطه على السجلات كلها، فليس هناك خط للعلامة كما لغيرهم من الدول.

الكتابة والعلامة

هذه الخطة غير ضرورية في لدول لاستغناء كثير من لدول عنها رأساً، وهي بدول العريقة في السدو التي لم يأخذها تهذيب الحضرة ولا استحكم المصانع. وإنما هي كمالية في الدول ومن أنواع التفنن في الأنظمة عند

1 الكسرة وللاعة [ب]

2 عوَّض عن النص بدى سدى من هاوينهي حرمه، ورد النص تبي في [ب] وربما أكد حاجة إليها في لدولة لإسلامية شأن اللسان بعربي وللاعة في لعبرة عن المقاصد، فصار لكتابات يؤدي كنه الحاجة بأبع من لعبارة للسانة في الأكثر. فصار فسد اللسان وصار صياغة اختص بن يحسبه

سكمال الحصاره وتووع مراتب الملك واستحاده لصنائع وتعدد لخطط، فدعت الحاجة إلى استحاده الكتب واحتصاصه بالدولة. وقد كان في أول الإسلام يكتب عن صاحب الدولة كل من يحسن الكتابة بأي خط اتفق، ثم روعي فيه جودة الخط عند حصول الحضارة، ثم اختص ذلك بكتاب معين عند استفحال لدولة صوناً لأسرار الملك عن الانتدال.

وكانت عند بني مية وبني العباس من بعدهم رفعة^١. وكان الكتب يصدر السجلات مطلقة ويكتب في آخرها اسمه، ويحتم عليها بخاتم السلطان، وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شارته يغمس في طين أحمر مداف بالماء ويسمى 'طين لختم'، ويطلع به على طرفي السجل عند طيه والصاقه. ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم السلطان، ويضع الكتب فيها علامته أولاً أو آخراً على حسب الاحتيار في محلها وفي لفظها. ثم قد تنزل هذه الحطة بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها أو استناد وزير عليه، فتصير علامة هذ الكتب ملغاة بالحكم بعلامة الرئيس عليه يستدل بها فيكتب صورة علامته المعهودة والحكم لعلامة المستند كما وقع^٢. آخر الدولة لخفضية لما ارتفع شأن الحاجة وصار أمرها إلى التمييز ثم الاستبداد، صار حكم العلامة ملعى وصورتها ثابتة اتباعاً لما سلف من أمرها. فصار الحاجب يرسم للكتب إمضاء كتابه ذلك بحط يضعه بتحرير له من صيع الإنفاذ ما شاء. فيأمر الكتب ويضع العلامة المعتادة. وقد يختص السلطان نفسه بوضع ذلك إذا كان مستبداً بأمره قائماً على نفسه، ويرسم الأمر للكتب ليضع علامته.

^١ وكانت عدسي لعماس رفعة [ب]

^٢ واحكم لهذا كما وقع [ب]

[التوقيع]

ومن خطط الكتابة التوقيع . وهو أن يحنس الكاتب بين يدي لسلطان في محالس حكمه وفصده ويوقع على القصص المرفوعة أحكامها^{١٩} والفصل فيها متلقة من السلطان بأوجز لفظ وأتبعه . فإما أن يصدر كذلك، وإما أن يحدو الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد صاحب القصة ويحتاج الموقع إلى عارضة من لئلاعة يستقيم بها توقيعها . وقد كان جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي لرشيد ويرمي بالقصة إلى صاحبها، فكانت توقيعته يتنافس اللغاء في تخصيصها للوقوف فيها على أساليب اللأعة ومونها، حتى قيل إنها كانت ناع كل قصة منها بديار وهكذا كان شأن الدوب

وكانوا^{٢٠} يتحرون الكاتب ويشرون فيه لتقديم تلك الحطة شروطاً من لدك والعلم والروية والروة والعدالة و داب الملك و سلطان مادرة الوجود و عريزة ومن أحسن ما وقع إلينا في ذلك رسالة عد حميد إلى الكتاب وبصها

أما بعد . حمصكم الله يا أهل صناعة لكتابة و حاطكم و ووفقكم وأرشدكم . فإن لله عز وجل جعل الدس بعد لأسياء مرسلين صلوات لله عليهم أحمعين ومن بعد الملوك المكرمين أحيفاً، وإن كانوا في الحقيقة سوء و صرفهم في صوف المصاع و صروب المأولات إلى أسب معدشهم وأنواب أرزاقهم . فجعلكم معشر الكتاب في أشرف الجهات، أهل الأدب والروة والعلم والروية نكم تستظم لالحافة محاسنها وتستقيم أمورها، وبصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ويعمر عدائهم . لاستعبي المنك عنكم ولا يوجد كاف إلا منكم . فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم أتي بها

١٩ خرفوعة إبيه أحكامها [ب]

٢٠ الفقرة التي خندئ من هها وحص رسالة أبي نبي لم ترد في هه موضع في [ب]

يسمعون، وأصبرهم نتي بها يصبرون، وألستهم لني بها ينطقون، وأيديهم
التي بها يبطشون، فامتعتكم لئلا عما حصكم من فصل صنعتم ولا نزع عنكم
ما أضفده من لعمرة عبيكم

وئس أحد من أهل الصاعك كتب أحوج إلى حماع حلال أخير
المحمودة وحصاب فصل المذكورة ومعدودة منكم أيها الكاتب، قد كنتم على
ما يأتي في هذا الكتاب من صفاتكم فإن الكتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه
صاحبه الذي يوبه في مهمات مؤره أن يكون حسيماً في موضع احسم، فهما
في موضع الحكم، ومقدماً في موضع الإقذار، ومحمداً في موضع
الإحجام، مؤثراً لضعاف والعدل والإصاف، كنوماً للأسرار، وفيه عند
الشدة، علماً يأتي من الأمور، يصع الأمور من صعها وأصوارق ما كتب،
قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه، فإن لم يحكمه أحد منه فقد رما
بكتفي به، يعرف بعبرة عقله وحسن تدبره وفصل بحرته ما يرد عليه قبل وروده
وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدره، فيعدل لكل أمر عدته وعياده، ويهيئ لكل وجه
هيأته وعادته

فتافسوا يامعشر انكتب في صفوف لادب وتعقروا في سبيل وبدو
عنكم كتب لئلا عز وجن، والفرائض، ثم العربية، فإنها ثفاف أنستكم ثم
أجيدوا الخط، فيه حلية كتبكم وروو الأشعار، وعرفو عريها ومعانيها،
وأبدم اعرب ولعنهم وأحدثها وسيرها، فإن ذلك معبر لكم على ما تسمو
إليه هممكم ولا تصيعوا لنظر في احساب، فإنه قواء كتب حرج
وإرعوا أنفسكم عن نظم سبها وديها، وسنساب لأموال ومحارها،
فيها مدلة لبرقاب، مفسدة لكتاب وبرها اصعدكم عن الداءات، وروو
أنفسكم عن السعية ونسيمة وما فيه أهل جهالات وإيكم ونكر
والسحف ولعظمة، فيها عدوة محتنة من غير حنة، ونحو في الله عز
وحل في صاعتم وتواصوا عليها بالذي هو أيق أهل الفصل ولعدن واسل
من سنعكم.

وإنما الزمان يرحل منكم فاعظموا عليه وواسوه حتى ترجع إليه حاله ويثوب إليه أمره. وإن قعد أحدكم تكبر عن مكسه ولقاء إخوانه، فزوروه وعظموه وشاوروه وستظهِروا بفصل تجربته وقديم معرفته. وليكن لرجل منكم على من اصطنعه و ستظهِر به نبوه حاجته إليه أحوط منه على ولده وأخيه. فإن عرضت في الشعر محمداً فلا يصنعها إلا إلى صاحبه، وإن عرضت مديماً فيتحميها هو من دونه. فإن العيب إليكم معشر الكتاب تسرع منه إلى لقراء، وهو لكم أفسد منه لها. فقد عنتم أن الرجل منكم إذا صححه من يذل له من نفسه ما يحب له عليه من حقه، فواحب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وصبره وبصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ما هو حزاء حقه، ويصدق ذلك فعاله عند الحاجة إليه والاضطرار إلى ما لديه. فاستشعروا ذلك، وفقكم الله، من أنفسكم في حالة الرخاء والشدة والحرمان والمواساة والإحسان والسراء والضراء. فعمت الشيمة هذه لمن وسيم بها من أهل الصناعة الشريفة

ورداً ولي الرجل منكم أوصير إليه من أمر خلق الله وعياله أمر، فليراقب ربه عز وجل، وليؤثر طعته، وليكن على الضعيف رفيقاً وللمطلوم منصفاً. فإن الخلق عيال الله، وأحبهم إليه أرفقهم بعياله. ثم ليكن بالعدل حاكماً وللاشر ف مكرماً وللقيء موفراً وللدلاد عامراً وللرعية متألفاً وعن أداهم متحلفاً وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً، وفي سجلات حراجه واستقصاء حقوقه رفيقاً.

وإذا صحب أحدكم رجلاً فليختر خلأته، فإذا عرف حسبه وقيبحها أعنه على ما يوافق من حسن واحتل نصرفه عما يهواه من القبيح بالظف حنة وأحمل وسية. وقد علمتم أن سائس الهيمة إذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رموحاً لم يهجهج إدا ركها، وإن كانت شوباً اتقاه من قبل يديها، وإن خاف منها شروداً توقها من ناحية رأسها، وإن كانت حروناً قمع رفق هواها في طرقها فإن ستمرت عطفها يسيراً فيسلس له

قيدهم وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن سوس الناس وعامهم
وخدمهم وداحلهم. والكاتب بفضل أدبه وشريف صناعته ولطيف حيلته
ومعامته لمن يحاوره من الناس وينظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى
بالرفق لصاحبه ومدايرته وتقويم أوده من سائس الهيمة التي لا تحير حوَّناً ولا
تعرف صواباً ولا تفهم خطئاً لا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها.
ألا فارفقوا رحمكم الله في النظر واعملوا فيه ما أمكنكم من لرويه والفكر
تأمُّو بذل الله عن صحتهمو الثَّوَّة والاستثقال والخفوة، ويصير منكم إلى
اموافقة، وتصيروا منه إلى المواجهة لشفقة إن شاء الله.

ولا يحورن الرحل منكم في هيئة مجسسه وميسسه ومركبه ومظعمه
ومشربه ونائه وحدهم وغير ذلك من فوس أمره قدر حقه، فيكم مع ما فصلكم
الله به من شرف صنعكم خدمة لا تحمسون في خدمتكم على التقصير،
وحطة لا تختل منكم أفعال لتصنع والتدبير. فاستعينوا على عطفكم
بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصنه عنكم واحذروا متلف السرف
وسوء عاقبة الترف، فإنهم يعقد الفقر، ويدلان الرقب، ويمضحون أهلها
ولا سيما الكتاب وأرباب الأدب

وللأمور أشباه وبعضها دليل على بعض. فاستدلوا على مؤنتف أعمالكم
نما سبقت إليه تجربتكم. ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوصحها محجة
وأصدقها حجة وأحمدها عاقبة. واعلموا أن لتدبير أفة متلفة، وهو الوصف
الشاع لصاحبه عن إبعاد عنه وزويته، فبيقصد الرحل منكم في مجسسه قصد
الكافي من مطلقه، وليوحز في ابتدئه وجوانه، وليأخذ بمجامع حاحه، فإن
ذلك مصححة لفعله ومدفعة لشاعن عن كثاره. وليصرع إلى الله في صلة
توفيقه وإمداده بتسديده مخافة وقوعه في الغبط المصير بده وعمله وأده فإنه
إن ظن منكم ظان أو قل قائل إن الذي برز من حميل صنعته وقوة حركته إنما
هو بفصل حيلته وحسن تدبيره، فقد تعرض بطنه أو مقالته إلى أن يكلمه الله عز
و حل إلى نفسه، فيصير منها إلى غير كاف، وذلك على من تأمله غير حاف.

'ولا يقل أحد منكم إنه أبصر بالأمر وأحمل لعباء التديير من مرقفه في صنعته ومصاحبه في خدمته، فإن أعقل الرحلين عند ذوي الألب من رمى بالعجب وراء ظهره ورأى أن صاحبه أعقل منه وأجمل في طريقته. وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعمة الله حل ثنؤه من غير اعتراض برأيه ولا تزكية لنفسه ولا تكاثر على أحيه أو نظيره وصاحبه وعشيرته. وحمد الله واجب على الجميع، وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته.

'وأن أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل: من تلزمه النصيحة يلزمه العمل. وهو جوهر هذا الكتاب وعرة كلامه بعد لذي فيه من ذكر الله عز وجل. فذلك جعلته احرة وتممته به. تولاا الله وإياكم يا معشر الأنفة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه في إبعاده وإرشاده. فإن ذلك إليه ويده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الأشغال

هذه حطة الحسد والجبية، وكانت أول الأمر كما قلناه راحة للموالي وأهل الذمة أيام بني أمية، ثم أُصيفت في دولة بني العباس لبوزير كما كان شأن بني برمك وبني سهل وغيرهم، ثم أفردت في دولة بني أمية بالأندلس والعبيدين وفي دولة لموحدين.

وكان صاحب هذه الحطة كما قلناه لا بد أن يكون من الموحدين مستقر النظر في استخراج الأموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاة والعمال فيها ثم تنفيذها على قدرها وفي موابقتها. وكان يعرف بـ 'صاحب الأشعان' وكان ربما يدها في الجهات غير الموحدين ممن يحسنها. ولما استند بنو أبي حفص وكان شأن الحلية من لاندلس، فقدّم عليهم أهل البيوتات وفيهم من

(7) سبب بنو أبي حفص بإمريفي وكان [ب]

كان يُستعمل في ذلك بالأندلس، مثل بني سَعِيد أصحاب بقعة حوار عرانة المعروفين سبي أبي الحسين، فاستكفوا بهم في ذلك وجعلوا ينظر بهم في الأشغال كما كان لهم بالأندلس، ودولوا فيها بينهم وبين كبار الموحدين. ثم استغنى بها أهل الحسان والكتاب وخرجت عن الموحدين ثم لما استعبط أمر الخاحب وبعد أمره في كل شأن من شؤون الدولة تعطل هذا الرسم وصار صاحبه مسؤولاً للخاحب، وأصبح من حملة الحدة، ودهست تلك الرياسة التي كانت له في الدولة

وأما دولة بني مرين بُهِد العهد، فصاحب هذه الرتبة هو الذي يصحح الحسابات ويُرحل إلى ديوانه، وبطرقه معقب نظر السلطان أو نورير، وحظه معتبر في صحة الحساب

هذه صور الرتب والخطط لسلطانية، وهي الرتب العمة التي هي عامة النظر ومباشرة لسلطان.

وهناك مراتب أخرى وحفظ خاصة بأصناف لأحوال لسان على ذكرها لتشعبها واضطرانها واختلاف الاصطلاح في الدول فيها، كاخسة، وهي النظر على دابة الأسواق في المعاش لاحتساب الموارس وتقدير الأسعار ومثال ذلك. وهي حصة ضرورية في المدن، إلا أنها دالة لاحتصاصها بصف مرؤوس وعدم مباشرتها لسلطان. لأنها ليست مما يهمهم في خاصة ملكه. وكذلك حصة السكة، وهي النظر في التقدير للدين بهما تعامل الناس في ساعاتهم من الذهب والفضة أن يدجنهما العيش فتتبع أموال الناس وحفظ ذلك بوضع العلامة السلطانية عنه في نقوش تكتب عليهما إما حقاً أو صوراً على اختلاف لعوائد والاصطلاحات في ذلك، فيكون ذلك علامة على حيوصه من العيش ومُنوَّي ذلك أمين عليه. وهذان الخططان من الخطط الخلافية. وقد تقدم ذكرهما وأنهما اعتبرا في حفظ الملوكية لأيهما من المصالح العمة بني لا بد من النظر فيهما من حيث الدين، ومن حيث لعدة، واشترك فيهما الملك والخلافة، بخلاف نصلة ولقضاء فيهما محبوبة

بالدين ومأخوذة عنه، ولا تعرف إلا من الشرع فاختصت رستهم بخلافة
دول لث

وكان من حطط لموكية أيضاً صاحب الطرز. وهو رسم قد ذهب لهذا
العهد بانتقدس لدول وكان عند استعلاظ لدول وترفها في دار لسح التي
نسح فيها ثبب السطاط لاساسه وعطائه، ويرسم فيها طرار دسم لسلطان هو
شدرتها فكان اسطاط يتخير بها من يقوم بها. وكانت من حطط لدول
ومر نسها وكذا الأشعال تتشعب إلى مشرف ومحاسب، وهو صاحب
لدبول، وغير ذلك وكذا حطط حرب وكل وحدة من هذه ترجع إلى
الحطط نكرى وتدرج تحتها كل في صلمه.^{١٨}
واحد علب على أمره ومحكم سسته في حلقه.

الشرطة

وتسمى لهد العهد الحكومة، وفي دولة أهل الأندلس حطة صاحب
لمدسة. وكان أصل وضعها في الدولة لعاسية لمن يقيم أحكام الجرائم في
حار سشرتها أولاً، ثم الحدود بعد ستيهاها. فإن التهم التي تعرض في
الجرائم لا يصدر لشرع إلا في ستيها حدودها، وسياسة النظر في استيها
موجبها بقر، يكرهه عنه الحاكم إذ حتمت له القرائن لما توحه المصلحة
لعمة في ذلك فكان لذي يقوم بهذا الاستيها وبلاستيها لذي بعده إذا
سره عنه لقضي يسمى 'صاحب الشرطة'. ويؤهلها بهذه لرتبة وقلدوها
موليهم خصصين بهم ولم تكن عامة اتقليد في ساس، إذ كان حكمه على
الدهماء وأهل لرب.

ثم عظم ساهها في دولة بني أمية بالأندلس، وقسمت إلى شرطة كرى
وشرطة صغرى، وحصل حكم نكرى على الخاصة والدهماء وحصل له الحكم

^{١٨} في كل صف [ب]

^{١٩} وأهل الرب [ب]

على ذوي المرتب نسلطانية والضرر على أيديهم في لظلمات وعلى أيدي أقاربهم ومن إليهم من أهل الحة. وحُعل صاحب الصغرى مخصوصاً بالعامه. ونُصب لصاحب الكرى كرسي ساب در لسلطان ورحل يتوؤون المتقدين يديه فلا يرحون عنها إلا في تصريحه وكادت ولايتها للكدر من رحالات الدولة، حتى كانت ترشياً لمورة واجحانة.

وما في دولة الموحدين بالمغرب، فكان لها حظ من النويه، وإن لم يجعلوها عامه وكان لا يليها إلا رحالات الموحدين وكراؤهم. ولم يكن له التحكم على أهل المراتب السلطانية ثم فسد ليوم منصها وحرحت عن ولاية رجال الموحدين، وصارت ولايتها من قم بها من المضطعين. والله مقرب الليل والنهار.

قيادة الأساطيل

وهي من مرتب الدولة وحفظها في ملك المغرب وفريقية، ويسمون صاحبها في عرفهم باسم أئند، تمنحيم للام منقولاً من لغة لإفرجة، فإنه سمها في اصطلاح لعنتهم.

وإنما احتضت هذه الربة بملك إفريقية والمغرب لأنهما جميعاً على ضفة لبحر الرومي من جهة الجنوب. وعلى عدوته الحوية بلاد البربر كهم من ستة إلى الإسكندرية إلى الشام، وعلى عدوته الشمالية بلاد الأندلس والإفرجة والصقلية ولروم إلى بلاد الشام أيضاً. ويسمى لبحر الرومي و'البحر الشامي'، ستة إلى أهل عدوته. والساكنون سيف هذا البحر وسواحته من عدوته يعنون من أحواله ما لا تعنيه أمة من أمم البحار.

فقد كانت الروم والإفرجة والقوط بالعدوة لشمالية من هذا البحر الرومي، وكدت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفين، فكانوا مهرة في ركوبه وخرب في أساطيله. وما أسف من أسف منهم إلى ملك العدو الجنوبية، مثل الإفرجة إلى إفريقية، والقوط إلى المغرب، أحازوه في الأساطيل ومدكوها

وتغلبوا على البربر وانتزعوا من أيديهم أمرها. وكان لهم بها المدن الحفنة مثل قرطاجنة وسيبطة وجنولا ومُرناق وشِرْشال وصَنْجَة. وكان صاحب قرطاجنة من قبهم يحارب صاحب رومة ويبعث الأساطيل لحربه مشحونة بالعساكر والعدد، فكانت هذه عادة لأهل هذه البحر لسكانين حماهيه معروفه في القديم والحديث.

ولم يمك المسلمين مصر كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أن صِف لي البحر فكتب إليه : إن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف، دود على عود. فأوعز حينئذ بمنع المسلمين من ركوبه. ولم يركه أحد من العرب إلا من اقتات على عمر في ركوبه ونال من عقابه، كما فعل بَرْقِصَة بن هَرْثَمَة الأردني، سيد بَجِيلة، لما أغزاه عُثْمَان فبلعه عزوه في البحر. ولم يرل الشأن ذلك حتى إذا كان لعهد معاوية أذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على أعواده والسبب في ذلك أن العرب لبداوتهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه. والروم والفرنجة لممارستهم أحواله ومرباهم يتقلدون على أعواده مربوا عليه وأحكموا الدرة بثقافته.

ولم استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم وصارت أمم العجم جيولا لهم وتحت أيديهم وتقرب كل دي صنعة إليهم بمبلغ صاعته واستخدموا، من التوائية في حاجتهم البحرية أمما وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ستحدثو بصراً بها، فشرهوا إلى الجهاد فيه وأنشؤوا لسفن والشواني، وشحو الأساطيل بالرجال والسلاح، ومطوهاا المقابلة لم وراء البحر من أمم الكفر واحتصوا لذلك من مملكتهم وثورهم ما كان قُرب إلى هذا البحر وعلى ضفته، مثل الشام وإفريقية والمغرب والأندلس فكانت الأساطيل بدورية لعهد الأغالبة، وأوعز الخليفة عبد الملك إلى حسَّان بن النُّعْمان بتأجير دار صناعة تنونس لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد وبها كان فتح صِقْلِيَّة أيام زيادة الله الأول بن إبراهيم بن لأغلب على يد أسد بن الفُرات، شيخ الفتية، وفتح قَوْصَرَة أيضاً في أيامه بعد أن كان معاوية بن حُذَيْف

عزى صقية أيام معاوية بن أبي سفيان. وكانت من عدد ذلك أساطيل إفريقية و لأندلس في دوة العبيديين و لأمويين تعاقب إلى بلادهما في سبيل الفتنة، فتحوس حلال لسو حل للإفساد واستحريب

و انتهى أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى مئتي مركب أو نحوها، و أسطول إفريقية كذلك مثله أو قريب منه. وكان قائد الأساطيل بالأندلس بن زُمَاحِس، ومرفأه للحط والإقلاع بجاية والمُرّة وكست أساطيلها محتمعة من سائر الممالك، من كل بلد تتحد فيه السفن أسطولاً يرجع بطره إلى قائد من البوالية يدبر أمر حربه وسلاحه ومقدنته، ورئيس دبر أمر جريته ناريج أو الملحاذف فإذا اجتمعت لأساطيل لغزو ومحتفل أو عرص سلطاني مهم، عسكرت تعرفها بعموم، وشعبها بفسطاط برجله وأنجاد عساكره وموابيه، وجعلهم لنظر أمير واحد من أعين طيقت أهل مملكته يرجعون كلهم إليه، ثم سرحهم بوجههم و تنصر إليهم بالفتح والنعيمة

وكان المسمون لعهد الدولة للإسلامية قد عبدوا على هذ البحر من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطتهم فيه فم يكن لأئم نصيرية قد أساطيلهم في شيء من جوانبه وامتصوا ظهره للفتح سائر أيامهم، فكانت لهم المقامات المعنومة من الفتح والعمائم، ومكوا سائر الجزائر اسقصة عن سواحل فيه، مثل مَيُورُقه ومُبرُقة وبَيسَة وصفينة وقوصرة وماطيه وإفريقيش، وغزو سردانية وسائر ممالك المغرب وعزى بواقسام لشيعي وبناء جزيرة حثوة من المهدية مر بواقسوا بالظفر والنعيمة وأفتح محاهد العامري، صاحب دانة من موك الطوائف، جزيرة سردنة في أساطيله سنة خمس وأربعمائه، وارتفعه البصري لوقتتها. والمسمون حلال ذلك كنه قد تغلبوا على الأكثر من حة هذا البحر، وسارت أساطيلهم فيه حثية ودهة. وأسطولهم من صقية قد صبى على أهل البر لكسر من لعدوة لشمالية، وتجزت أئم البصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل إفريقيا والصقلية وجزائر أرُمانيه، لا يعدوها وأسطول المسلمين

قد صريت عبيهم صرى الأسد بفريسته، وقد ملأت الأكثر من بسيط هد البحر عدة وعديداً، واحتلفت في طرقه سلماً وحرّاً. فلم يظهر للنصرانية فيه ألواح. حتى إذا أدرك الدولة العبيدية والأموية الوهن والفسس وطرقها الاعتلان، مد النصرارى أيديهم إلى حزائر البحر، مثل صقلية وإقريطش ومالطة فملكوها، ثم ألحوا على سواحل الشام في تلك الفترة فاستولوا عليها وعبروا على بيت المقدس، وبنوا عليها الكنيسة لمظهر دينهم وعبادتهم، وغلبوا بي خزؤون على طرابلس، ثم على قايس وصفاقس، ووضعوا عندهم الجزري، ثم ملكوا المهديّة مقر ملك العبيديين من يد بني بُلُكَيْن من زيري. وكانت لهم في المائة الخامسة الكرة. والجانب الغربي من هذا البحر لذلك العهد موفور الأساطيل ثلث القوة. لم يتحبّقه عدو ولا كانت لهم به كرة. فكان قنّد الأسطول به لعهد متونة بنو ميمون، رؤساء جزيرة قادس، ومن أيديهم أخذها عبد مومن بسلمهم وطاعتهم، انتهى عدد أساطيلهم إلى المائة من بلاد العدوتين جميعاً.

ولما استفحلت دولة الموحدين وملكوا العدوتين، أقاموا خطة هذا الأسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد. وكان قائد أساطيلهم أحمد الصقلي، من صديقيان المواطنين بجزيرة جربة من سيدويكش، أسره النصرارى من سواحليها وربي عندهم، واستخلصه صاحب صقلية واستكفاه. ثم هبّ وولي ابنه، فأسحطه ببعض النزعات. وخشي على نفسه فلاحق بتونس ونزل على السيد بهي. وأجاز إلى مراکش، فتلّقه الخليفة يوسف العسري بالجرة وإكرامة، وأجزل له الصلّة، وقلده أمر أساطيله. فجلى في جهاد أم النصرانية، وكانت له آثار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين. وانتهت أساطيل لمسمين على عهده في الكرة والاستجادة ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه.

ولما قم صلاح الدين بن أيوب، ملك مصر والشام لعهد، باسترجاع ثغور الشام من يد الأمم النصرانية وتطهير بيت المقدس من رجس الكفر وسائته.

توفرت أساطيلهم الكفرية بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية قرية لبيت المقدس الذي كانوا قد استولوا عليه. فأمدوهم بالعدد والأقوات، ولم تقدمهم أساطيل الإسكندرية لاستمرار الغلب لهم في ذلك الجانب الشرقي من البحر وتعدد أساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل عن ممانعتهم هنالك. فأودع صلاح الدين على يعقوب المنصور، سلطان المغرب لعهد من الموحدين، رسوله عبد الكريم من مُنْقِذ طالبا مدد الأساطيل لتحول في البحر بين أساطيل الكفرة وبين مرادهم¹⁰ من إمداد النصرانية بشغور الشام. وأصحح كتابه إليه في ذلك، من إنشاء الفاضل البيهقي، يقول في افتتاحه: 'فتح الله لحضرة سيدنا أبواب المناجح والميادين'، حسما نقله العماد لإصهاني في كتاب الفتح القدسي. فنقم عليهم المنصور تحافهم عن حطه بأمر المؤمنين، وسرها في نفسه، ولم يبدها لهم، وحملهم على مناهج البر وكراهة، وردهم دون حاجتهم. وفي هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالأساطيل، وما حصل للنصرانية في الجانب الشرقي من هذا البحر من الاستعانة.

ولما هلك يعقوب المنصور واعتلت دولة الموحدين واستولت أم خلافة عسى لأكثر من بلاد الأندلس وأجزوا المسلمين إلى صيف البحر ومكوا الجزائريتي ساجناب الغربي من البحر الرومي، قويت ريجهم في بسيط هذا البحر واشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم وتراجعت قوة المسلمين فيه إلى المساواة معهم، كما وقع لعهد السلطان أبي الحسن، ملك زنادة بالمغرب. فإن أساطيلهم كانت عند مراميه الجهاد في مثل عدة النصرانية وعديدهم. ثم ترجعت عن ذلك قوة المسلمين في البحر لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع الموائد الأندلسية. ورجع النصراني فيه إلى دينهم المعروف من الدربة فيه والمراد عليه والبصر بأحواله وغلب الأهم في بسيطه. وصار المسلمون به كأجانب، إلا قليلا من أهل البلاد لساحلية

(10) مرهم [ب]

لهم المراد عليه لو وجدوا كثرة من الأنصار والأعوان، أو قوة من لدون
تستجيش لهم أعواناً وتوضح لهم في هذا الغرض مسلكاً.
وبقيت هذه المرتبة لهذا العهد في الدول المغربية محفوظة لما عساه تدعو
إليه الحاجة من الأغراض السلطانية في البلاد الحرة، والمسلمون يستهجون
الريح على الكفر وأهله. فمن المشتهر بين أهل المغرب عن كتب لحدثن أنه لا
بد للمسلمين من الكرة على النصرانية وافتتاح ما وراء البحر من بلادهم، وأن
ذلك⁽¹¹⁾ يكون في الأساطيل.
والله ولي المؤمنين.

(11) بلادهم في ذلك، وأن ذلك [ب]

[34] فصل في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول

عمم أن السيف والقلم كلاهما معين لصاحب الدولة، يستعين بهما على أمره إلا أن الحاجة إلى السيف في أول الدولة ما دام أهلها في تمهد أمرهم تشد من الحاجة إلى القلم، والقلم في تلك حار حاد فقص، بعد تحكيم، تسليطي، والسيف شريث في معونه

وكذلك في آخر الدولة، حيث تضعف عضويتها، كما ذكرناه، وينسأهم من يبالهم من أساب الهرم التي قدمنا. فتحتاج الدولة إلى الاستعانة بأرباب السيوف ويقوى الحاجة إليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها، كما كان شأن أول الأمر في تمهيدها، فتكون لسيف مزية في الحالتين على القلم، ويكون أرباب السيف حينئذ أوسع جهاً وأكثر نعمة وأسنى قطعاً.

وأم في وسط الدولة، فيستغني صاحبها بعض الشيء عن السيف لأنه قد تمهد أمره ولم يبق همه إلا في تحصيل ثمرات الملك من الجبابة ولضبط ومباينة الدول وتنفيذ الأحكام، والقلم هو المعين في ذلك. فتعظم الحاجة إلى تصريفه، وتكون السيوف مهمة في مضاجع غمودها، إلا إذا كانت ثابتة أو دُعيت إلى سد فرجة، وما سوى ذلك فلا حاجة إليها. فيكون أرباب الأقلام في هذه الحالة أوسع جهاً وأعز رتبة وأكثر نعمة وثروة وأقرب من السلطان

مجلساً وأكثر إليه تردداً وفي خلواته نجياً. لأنه حينئذ ألَّه التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه والنظر في أعضائه وتنقيف أطرافه والمجاهة بأحواله. ويكون الوزراء حينئذ وأهل السيوف مستغنى عنهم، مُبْعَدِينَ عن باطن السطان، حذرين على أنفسهم من نوادره. كما كتب به أبو مسلم للمنصور حين أمره بالقدوم : "أما بعد، فإنه مما حفظناه من كلمات الفرس : أخوف ما يكون الوزراء إذا سككت الدهماء". سنة الله في عباده.

[35] في شارات الملك والسلطان الخاصة به

اعلم أن للسلطان شارات وأحوالاً تقتضيها الأبهة والبذخ، فيختص بها ويتميز بتحملها عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء في دولته. فلنذكر ما هو مشتهر منها بمبلغ المعرفة. وفوق كل ذي علم عليم.

الآلة

فمن شارات الملك الآلة^١ من نشر الألوية والرايات وقرع الطبول والنفخ في الأبوق والقرون. وقد ذكر أرسطو في الكتاب المنسوب إليه في السياسة أن السر في ذلك إرهاب النفوس بالروعة. ولعمري إنه أمر وجداني في مواطن الحروب يجده كل أحد من نفسه. وهذا السبب الذي ذكره أرسطو، إن كان ذكره، فهو صحيح ببعض الاعتبارات. وأما الحق في ذلك، فهو أن النفس عند سماع النغم أو الأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك، فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب، ويستमित في ذلك الوجه الذي هو فيه. وهذا موحود حتى في الحيوانات العجم. فانفعال الإبل بالحداء

١) الملك تحاد لآلة [سا]

والخيل بالصفير والصريخ كما علمت. ويزيد ذلك تأثيراً إذا كانت لغمة متناسبة كما في الغناء. وأنت تعلم ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى. ولأجل ذلك يتخذ المعجم في مواطن حروبهم الآلات الموسيقارية، لا طبلاً ولا بوقاً. فيُخدق المغنون بالسلطان في موكبه بالآتهم وعنائهم، يحركون نفوس الشجعان بطريهم إلى الاستماتة.

ولقد رأينا في حروب العرب المنشد يتغنى أمام الموكب بالشعر ويطرب به، فتجيش همم الأبطال بما فيها، ويسارعون إلى محال الحرب، وينبعث كل قرن إلى قرنه. وكذلك زناته، يتقدم الشاعر عندهم أمام الصفوف ويتغنى، فيحرك بغنائه الجبال الرواسي ويبعث على الاستماتة من لا يظن بها ويسمون ذلك الغناء الذي في الحرب "تازصو كائت". وأصله كله فرح يحدث في النفس فتنبعث عنه الشجاعة، كما تنبعث عن نشوة الخمر بما حدث عنده من الفرح. والله أعلم.

وأما تكثير الرايات وتلوينها وإطالتها، فالتقصده به التهويل، لا أكثر. ورمى يحدث في النفوس من التهويل زيادة في الإقدام. وألوال النفوس عربية والله الخلاق العليم.

ثم إن الدول والملوك يختلفون في اتخاذ هذه الشارات. فمن أكثر ومقل بحسب اتساع الدولة وعظمتها.

فأما الرايات، فإنها شعار الحروب منذ عهد الخليفة. ولم تزل لأمر تعقدها في مواطن الحروب والغزوات، ولعمد النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء.

وأما قرع الطبول والنفخ في الأبواق فكان المسلمون لأول المائة² متجافين عنه تنزهاً عن غلظة الملك ورفضاً لأحواله واحتقاراً لأهنته التي ليست من الحق في شيء، حتى إذا انقلبت الخلافة ملكاً وتبجحوا رهرة الدنيا ونعيمها

(2) المئة [ب].

ولابسهم لمولي من لمرس و روم. أهل الدور لسلمة، وأزورهم ما كان
أولئك ينتحلونه من مذاهب البذخ ولترف، فكان مما استحسونه اتخاذ الآلة،
فاتخذوه وأذنو لعمالهم في اتخاذها تنويهاً بانث وأهه. فكثيراً ما كان
العمل، صاحب الشفر أو قائد لبعث، يعقد له الخليفة من العباسيين أو
العبيديين لواءه ويخرج إلى بعثه أو عمله من دار الخليفة أو داره في موكب
من أصحاب الرايات والآلة، فلا تميز بين موكب لعمام والخليفة إلا بكثرة
الآلات أو قمتها، أو بما يختص به الخليفة من الألوان لرايته كالسواد في ريات
بني العباس. فإن رياتهم كانت سوداً حزن على شهدائهم من بني هاشم ونعيهاً
على بني أمية في قتلهم. ولذلك سمو المسودة. ولما افترق أمر الهاشميين
وخرج الطاسيون على عباسيين في كل جهة وعصر، ذهبوا إلى محالفتهم في
ذلك، واتخذوا الرايات بيضاً وسموا اميصة لذلك سائر أيام عبيديين
ومن حرج من الطاسيين في ذلك العهد بالشرق، كأند عي طرسند ودعي
ضعة، أو من دعا إلى بدعة لفصة من غيرهم كقفر مطة ولما نزع المأمون
عن سس اسود وشعاره في دولته عدل إلى لون الحصرة، فجعل رياته
خضراء.

وأما لاستكثارها، فلا ينتهي إلى حد. وقد كت أنه لعبيديين ما حرجوا
إلى فتح الشام خمسمائة من البنود وخمسمائة من الأبواق. وأما موكب لبربر
بالمغرب من صنهاجة وغيرهم، فم يختصوا بمون و حد بل وشعوا بالذهب
واتخذوه من الحرير الخالص مونة، واستمروا على لإذن فيها لعمالهم، حتى
إذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زنة، فقصروا الآلة من الطبول
والبنود على السلطان، وحضروا عي من سواه من عمائه، وجعلوا موكباً
خاصاً يتبع أثر السلطان في مسيره، يسمى لساقه.

وهم فيه بين مكثر ومقل باختلاف مذاهب الدول في ذلك. فمنهم من
يقتصر عي سبع من العدد تبركاً بالسعة كما هو في دولة الموحدين وبني
الأحرر بالأندلس، ومنهم من يبلغ لعشرة والعشرين كما هو عند زناتة وقد

بغت أيام السطاب أبي الخس فيما أدركه مائة من ضول ومائة من سود،
مبولة -حرير، منسوجة بالذهب، مابين كبير وصغير ويذبول للبوالة
والعبد والفقو دهي الحدرية واحدة صغيرة من الكتان بيضاء، وطنبيل صغير
أيام حرب، لا يتحورور ذلك.

وأما لعص لعهد من ثم الخلافة، فكثير شأنهم تحدد الأتوية القليلة
داهية في اخو سعد، ومعها فرع لأوتار من الطناير ونعج العيطات، يدهون
فيها مذهب العد، وطريقه في مواضع حروبهم هكذا سلعا عنهم وعم
وراهم من ميوث المعجم وفي حق السموت والأرض واختلاف السسكم
وأواكم ثبات للعدين

المقصورة

فما ليت المقصورة من المسجد لصلاة لسطن، فون من احدها ميرة
س حكم حين ضعه اليماني، فحشي من حيثد الخلفاء عني أنفسهم
واتخذوه من بعده، وصارت سة في تميز لسلطان عن ناس في الصلاة
وهي بما تحدث عن حصول الشرف في الدول والاستمجان، شأن أحوال
الأنهية كها، فقد نقل أنه إلى اتحدها من الموحدين يعقوب المصور عند
استمجان الدولة وحصول الشرف، وهكذا سائر دول، سة له في عده

السري

أما السري والمسر، وهم أعواد منصوبة أو رائث منصدة لخدوس السطن
عنيها مرتفع عن أهل محله أو يساويهم في التصعيد ولم يزل ذلك من سس
الملك قس للإسلام وفي دول المعجم وقد كانوا يحسون على أسرة الذهب،
وكان السمن سري من عح معشي بالذهب، لأنه لا تأخذه دول إلا بعد
لاستمجان، الشرف، شأن لأنه كلها كما قبله وأما في أهل الدولة عند
الدولة فلا يتشورون إليه

وأور من تحذه في الإسلام معاوية، وستأد الناس فيه وقال لهم : إبي قد دنت . فأذنوا له ، فاتخذه . واتعه ، الملوك الإسلاميون فيه ، وصار من مزارع الأبهة .

السكة

وهي طابع لسلطان ونقوشه على الدبير والدراهم . وهي أيضاً من مزارع الأبهة للملك وضرورة للدول إنها يتميز الخالص من البهرج عند الناس ، ويثقون بعلامة السلطان الذي قام لهم بذلك . وكان ملوك لعجم يتخذونها ويرسمون فيها تماثيل تكون معروفة بهم مثل تماثيل السلطان أو تماثيل حصن أو حيون ومصنوع . وبقي هذا الشأن عند العجم ولمحاء الإسلام ، أعين ذلك سداحة الدين وبدواة العرب وكانوا يتعاممون بالذهب والمصصة ورنأ ، وكانت دبير الفرس ودرهمهم بين أيديهم يردونها في معاملتهم إلى الورن ويتصرفونها بينهم ، إلى أن بدأ لعبد الملك شأن السكة حرصاً على صيانة لبقدين الجاريين بين مسلمين في معاملاتهم من الغش . فعين مقدار الدينبر والدراهم ، وتحد الطابع ونقش فيه كلمات لا صوراً لأن العرب كادت البلاءة أفتر مسحهم ، مع أن لشرع يهني عن الصور . فلما فعل ذلك ، استمر بين الناس في أيام المئة كلها . وكان الدينبر والدرهم على شكلين مدورين والكتابة عليهما في دوائر متوالية . هكذا أيام العباسيين والعباسيين والأمويين . وأما صنهاجة ، فلم يتحدوا سكة إلا آخر الأمر ، اتخذها المنصور صاحب بحاية . ذكر ذلك ابن حماد ولمحاء دولة لموحددين ، كان مما س لهم المهدي اتخذ سكة الدرهم مربع الشكل ، وأن يرسم في دائرة الدينبر شكل مربع في وسطه ويملاً كثناً بالسطور باسمه واسم الخفاء من بعده ، ففعل ذلك . وكانت سكة لموحددين على هذا الشكل لهذا لعهد . وكان المهدي يسمى بذلك 'صاحب الدرهم المربع' ، نعتة بذلك المتكلمون بالحدثان من قبله .

الطرار

وكان لعهد الدولتين يرسم الخلفاء أسماءهم في طرز ثوابهم. خاصة بلباسهم سجاً يحيط الذهب لتصير معمة ذلك الطرز، يريدون بذلك التنويه بالذكر وعوضاً عما ترسمه العجم على ثيابهم من صور الملوك وأشكالهم. وكن من الرتب لمنهية في الدولتين. وكانت خطته تسمى عندهم بـ 'الطرار' وكنوا يقندونها كبار مواليتهم وثقت دولهم. وتلاشى هذا الرسم وضعف أمره عند قصور لدول عن أحوال الترف واقتصارها على الضروريات دون الترف في ضروب الألبات.

وأما الموحدون، فلم يأخذوا به في دولتهم لما يبي عليه أمرهم مدوله من منازع الديانة والتورع التي سن لهم الإمام المهدي طرقها. وكانت هذه الثياب في الأغلب منسوجة بالحرير والطرز بالذهب. ولم يكن حنفوهم يلبسون ذلك ولا يستعمونه، فسقط هذا الرسم من دولتهم. وأدركنا منه في الدولة المرينية لعنفوانها وشموحها رسماً قلدوا فيه ما كان دولة ابن الأحمر بالأندلس، فإنه كنت هنالك منه لمحة من آثار الدولة لأموية السالفة هنالك والله وارث الأرض ومن عليها.

الخاتم

وأما الخاتم، فكان من الخطط الخلافية. وكن أصل اتحاده للمحتم على الرسائل والصكوك، فإنه ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب إلى قيصر، فقل له إن العجم لا يقبلون كتاباً إلا أن يكون مختوماً. فاتخذ خاتماً من فضة وبقش فيه 'محمد رسول الله'. قال البحاري جعل الثلاث كمات في ثلاثة أسطر، وحتم به وقال: لا ينقش أحد مثله قال: 'وتختم به أبو بكر وعمر وعثمان من بعده، حتى وقع لعثمان في شر أريس، ونزع البئر فلم يوجد'.

فكان الشأن في اتحاد الخاتم أولاً حتم الكتب، ثم لم يزل الختماء من بني أمية وبني نعباس ينهون من شأن ختم، وكان مخصوصاً عندهم بأورير، و نظر ما يقفه الطبري وغيره أن الرشيد لم أراد أن يستورر جعفرأ ويسسده به من لفصل قان ليحيى بن خالد، أبيهما، يأت، قد ردت أن أخوار حتم من بمبي إلى شمالي. فعلم يحيى أنه مستبدل من الفصل بجعفر، ما كسى به عن الوزارة بالخاتم، إذ كانت حصة خاتم من خصوصيات نوردة ومقصورة عيه

هكذا هو حديث الختم

ثم لما تداوله الختماء وحدثت لأهله وأحوال تُترو و صدر بخذه عدة وبالعوا في استحدته كما هو شأنهم عند اتراف في جميع لآلة والمدعوب، فصور و بصوغوه من لذهب وينحدوب له فصوص المياقوت و لرمرد والغيرورج، ويساعون في استحددة أصنافها وانتقائها، واتحد للحنم على كتب طابع من القصة تمش فيه كمات تتضمن ذكر صاحب الدوة تصريحاً والدي رأياه بالأخباريين أن الختم على لرسائل والصكوك كان طين حتم وما وقفا على كفيه هد لعل، إلا أن الذي يظهر في ردي الرأي أنه طين أحمري يدا ف لءاء ويعمس فيه الختم، ويجعل على فم السجل عد الدرر كما يفعل اليوم بالقنواع على لأمتعة بالأسوق، نعمس في حين ممدد بدنت يسمونه المغرأ أو يطعون به. وكان طين حتم في دور بني العباس يرفع إلى در السطاب من بلد سيراف، ويعرف به طين الختم، اضره في أحبارهم عند ذكر هدايا لعمال ومرتمع حديثهم تحده هدايت.

الدعاء في الخطبة

وأم لدعاء على اسبر، فكان الشأن أولاً عند حلفاء ولاية اصلااة أنفسهم، فلم يكونوا يفعلون ذلك فمما حدثت لأهله وحدث في الختماء المذع من احضة الصلاة واستأبو فهما كان احصيت شدد بذكر حلفته على

المسر تنويهاً باسمه ودعاءً له أن يجعل الله مصالحة العالم فيه، ولأن تلك
الساعة مظنة للإحادة، وامثالاً لنقوله صلى الله عليه وسلم من كانت له دعوة
صالحة فيصعبها في السخط وكان الحيفة ينفرد بذلك فيما جاء الحمر
والاستنداء، كان المتعصبون على الدول كثيراً ما يشاركون حيفة في ذلك،
ويشادونهم عقب اسمه وذهب ذلك بذهب تلك الدول، وصار الأمر إلى
احتصاص السلطان بالدعاء له على المسردون من سواء، وخطر أن يشاركه فيه
أحد ويسمو إليه.

وكثيراً ما عفى المهدون من أهل الدول هذه الترسيم عندما تكون لدولة في
أسسور العصاة ومناحي الداوة في لتعاضل و خشونة، ويقنعون بالدعاء
على لإيهام والإحمال من وفي أمور المستعير ويسمو مثل هذه الخطه إذا
كاتب على هذا المسحى 'عسسية'، يعنوب بذلك أن الدعاء على لإحمال بما
يتناول عسسي، تقسداً في ذلك لما سيف من الأمر، ولا يحقوب أي وزراء ذلك
من تعيينه ول لصريح باسمه

يحكى أن يعمرأس بن زيد، ماهد دولة بني عبد الواد، لما عليه لأمر بنو
ركري يحيى بن أبي حفص على ندمسان، ثم بدا له في إعادة الأمر إليه على
شروط شرطها كان فيها ذكر اسمه على مابر عمه، فقال يعمرأس تلك
عوادهم يذكرون عليه من شؤوا.

وكذلك يعقوب بن عبد حق، ماهد دولة بني مرين، حصره رسول
المستنصر، وتخلف عن شهود حمعة، فقتل له ١٠ ثم يحصر هذا لرسول
كراهية لخبو حصه من ذكر سبطنه فأذن في الدعاء له، وكان ذلك سبباً
لأخذهم بدعوته.

وهكذا شأن الدول في بدايتها وتمككها في العصاة والداوة. وإذا استبعت
عيون سياستهم ويطروا في أعطف منكم واستتمو ثبات الحصرة ومعني
لندج والأنهه، اتحبو جميع هذه لسمات وتفتنو فيها وتجاروا إلى غايتها
وأتمو من المشاركة فيها وجرعوا من افتقادها وحنو دويهم من ثرها
ولعانه ستنار والله على كل شيء رقيب.

الفساطيط وأفراك

اعلم أن من شارات المنك وترفه تخاد الأحياء ولفساطيط والفازات من ثياب الكتان ولصوف بحدل الكتان والقطن، يباهى بها في الأسفار، وتنوع منها الألوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسر. وإي يكون الأمر في أول لدولة على غير ذلك، ويكون سكى أهل الدولة في بيوتهم نتي حرت عدتهم بتحددها قبل المنك وكان لعرب لعهد الخنفاء الأولين من بني أمية إغى يسكون سوتهم التي كانت لهم حياماً من الوبر واصصوف. ولم ترل العرب لذلك لعهد بديس إلا لأقر منهم فكانت سفريهم لغزواتهم وحروبهم يطعونهم وسائر حللهم وأحيئهم من لأهل واولد. كما هو شأن العرب لهذا العهد. فكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلل. بعيدة ما بين المدرل. متفرقة الأحياء، يعيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الأخرى. كشأن العرب لهذا العهد.

ولذلك ما كان عبد الملك يحتج ساقه لحشر الناس على أثره أن يقيموا إذا طعن. ونقر أنه استعمر في ذلك الحجاج حين شاربه روج من زساع. وقصته في إحراق فساطط روح وحيامه لأول ولايته حين وجدهم مقيمين في يوم رحيل عبد المنك قصة مشهورة. ومن هذه الولاية تعرف ربة الحجاج بين العرب، فإنه لا يتولى إرادتهم على الظعر إلا من يأمن بوادر لسمهاء من أحبهم لأنه من لعصبة ائالة دون ذلك. ولهذا اختصه عبد الملك بمثل هذه الرتبة، ثقة بغنائه فيها بعصبته وصرامته

فلما تفننت الدولة لعربية في مذهب الحصرة والسخ، ونزلوا المدن والأمصر، وانتقلوا من سكى الحيام إلى سكى القصور، ومن ظهر الحف إلى ظهر الحافر، اتخذوا لسكى في أسفارهم ثياب الكتان يستعملون منها سيوت مختلفة لأشكال، مقدرة لأمثال، من القوراء والمستطيلة والمربعة، ويحتفلون فيها تبغ مذاهب الاحتمل وزينة. ويدير السلطان على فساططه وفاراته من بينهم سياحاً من الكتان يسمى في المعرب بالسناد البربري الذي

هو لسان أهله "أفراك"، لكاف التي بين القاف والكاف. وجنحت الدعة بالنساء والولدان إلى المقام بقصورهم ومسزلهم، فحلف لذلك طهرهم وتقاربت السياح بين منازل العسكر، واجتمع الجيش والسيطان في معسكر واحد يحصره النصر في سيطه زهراً أنيقاً. واستمر الحال على ذلك في مذهب الدول في بدحها وترفها

وكذا كدنت دولة الموحدين وزناته التي أظلتها، كان سفرهم أول أمرهم في بيوت سكانهم قبل الملك من الخيام والقياطن، حتى إذا أخذت الدولة في مذهب الترف وسكنى لقصور، عادوا إلى اتخاذ الأحياء والمسطيط، وبلغوا من ذلك فوق ما أرادوه. وهو من لترف بمكان، إلا أن العسكر به تصير عريضة للنسبات لاحتتماعهم في مكان واحد تشمدهم فيه لصيحة، ولخفتهم من الأهل والولد الذي تكون الاستمدة دويهم، فيحتاج في ذلك إلى تحفظ آخر، كما مذكره.

والله القوي العزيز .

(١٠) والله سبحانه ومعالى أعظم بالصواب [ب]

[36] في الحروب ومذاهب الأمم في ترتيبها

علمه أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تنزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله. وأصدها إرادة انتقام بعض البشر من بعض. ويتعصب لكل منهم أهل عصبته، فإذا تذاثروا لذلك وتوافقوا الطائفتان، إحداهما تطلب الانتقام، والأخرى تدافع، كانت الحرب. وهو أمر طبيعي في البشر لا تخلو عنه أمة ولا جيل.

وسب هذا الانتقام في الأكثر إما غيرة ومنافسة، وإما عدوان، وإما غضب لله ولدينه، وإما غضب للملك وسعي في تمهيده.

فالأول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعشائر المتناظرة. ولثاني، وهو العدوان، أكثر ما يكون من الأمم الوحشية الساكنين بالقفر، كالعرب والأكراد وأشباههم، لأنهم جعلوا أرزاقهم في رماحهم ومعشهم فيما بأيدي غيرهم، ومن دافعهم عن متاعه أذنوه بالحرب. ولا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك، وإنما همهم ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم.

1 توافقا [ب]

والثالث هو المسمى في عرف الشريعة بالجهاد⁽²⁾.

والرابع هي حروب الدول مع الخارجين عليها والممانعين لطاعتها.

فهذه أربعة أصناف من الحروب : الصنفان الأولان منها حروب بغية وفتنة، والصنفان الآخران حروب جهاد وعدل.

والأم لبشرية كلهم على تعاقب أجيالهم يرتبون الصفوف لقتال ويسوونها كما تسوى القداح أو صفوف الصلاة، يرون في ذلك إرهاباً زائداً على صدق القتال. لأن وجود الصف وراء المقاتلة كالحائط الذي لا يبرح ملجأ لهم في الكر والفر، يحده المتحيز متى اضطر إليه.

وفي التنزيل - "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُورٌ" - وَجَّهَ أَنْ يَشَدَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي الصَّفِّ. ففي الحديث - المؤمن سمؤم كالبنيان يشد بعضه بعضاً". ومن هنا تظهر لك حكمة التحريم في التوتى في نزحف. فإن المراد بالصف حفظ النظام للمقاتلة، كما قد فهم على العدو ظهوره فقد أخذ بالمصاف وباء يائم الهزيمة إن وقعت وصار كأنه حره على المسلمين وأمكن منهم عدوهم. فعظم لذلك الذنب وعد من أكثر لما يخر من خرق سياج الدين بخرق سياج جماعته. هذا وجه ترتيب الصفوف.

ثم إن الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمون الحيوش والعساكر أقساماً يسمونها "كرادس" ويسوون في كل كردس صفوفه. وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم الكثرة البالغة وحشروا من قاصية النواحي، استدعى ذلك أن يجهل بعضهم بعضاً إذا اختلطوا في مجال الحرب واعتوروا مع عدوهم الطعن والضرب. فيخشى من توقعهم فيما بينهم لأجل النكراء و الجهل بعضهم ببعض. فلذلك كانوا يقسمون العساكر بالكرادس، يجعلون المتعارفين كلاً في ناحية، ويرتبونها قريباً من الترتيب الطبيعي في الجهات

(2) المسمى بالجهاد [ب]

الأربع يسمونه "التعبئة". وهو مذكور في أخبار فارس والروم والدولتين صدر الإسلام. فيجعلون بين يدي الملك عسكرياً يسمونه 'المقدمة'، منفرداً بصفه أو صفوفه، متميزاً بقائده ورايته وشعاره، ثم عسكرياً آخر في كردوس أو كراديس من ناحية اليمين عن موقف الملك، يسمونه "الميمنة"، ثم عسكرياً آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه "الميسرة"، ثم آخر من ناحية الخلف يسمونه "الساقة". ويجعلون مكان الملك وكراديسه في الوسط بين هذه كلها، ويسمونه "القلب". فإذا تم لهم هذا الترتيب الذي يسمونه 'التعبئة' وأحكموه، إما في مدى واحد للبصر أو على مسافة يوم أو يومين بين كل عسكريين منها، أو كيف ما أعطاه حال العساكر في القلة والكثرة. فحينئذ يكون الزحف من بعد هذه التعبئة.

واظر ذلك في أخبار الفتوحات، وأخبار الدولتين بالمشرق، وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك تختلف عن رحيله لبعده المدى في التعبئة. فاحتج إلى من يسوقها من خلفه وعين لذلك الحجاج بن يوسف، كما أشرنا إليه وكما هو معروف في أخباره. وفي الدولة الأموية بالأندلس كثير منه أيضاً. وهو مجهول فيما لدينا، لأننا إنما أدركنا دولاً قليلة العساكر، لا تنتهي في مجال الحرب إلى التناكر، بل أكثر الجيوش من الطائفتين معاً تجمعهم لدين حلة أو مدينة، ويعرف كل منهم قرنه في حومة الحرب ويناديه باسمه ولقبه، فاستغني عن تلك التعبئة.

ومن مذاهب الأمم في الحروب ضرب المصاف وراء عساكرهم من الجمادات والحيوانات العجم، يتصبونها ملجأً للخيلة في الكر والفر ليكون دؤم للحرب وأجدد بالظفر. فأما الفرس فكانوا يتخذون لذلك الفيلة يحمون عليها صناديق الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح والرايات، ويصفونها وراءهم في حومة الحرب كأنها الحصون، فتقوى بذلك نفوسهم ويزداد وثوقهم. وأما ملوك القوط بالأندلس وأكثر العجم، فكانوا يتخذون لذلك الأسيرة يتصبون للملك سريره في حومة الحرب ويحف به من

خدمه وحاشيته وجنوده من هو زعيم بالاستماتة دونه، وترفع الرايات في أركان السريـر، ويحدق به سباج آخر من الرماة والرجالة، فيعظم هيكل السريـر ويصير فيّة للمقاتلة وملجأ في الكر والفر. وأما العرب وأكثر الأمم البدوية الرحالة، فيصفون لذلك إبلهم والظـهر الذي يحمل ظعائهم، فيكون فيّة لهم، ويسمونه المجبودة". وليس أمة من الأمم إلا وهي تفعل ذلك في حروبها وتراه أوثق في الجولة وآمن من الغرة والهزيمة. وهو أمر مشاهد. وقد أغفلته لدول لعهدنا بالجملة، واعتاضوا عنه بالظـهر الحامل للأنقال والفساطيط يجعلونها ساقاة من خلفهم، فلا تغني غناء القيلة والإبل. فصارت العساكر بذلك عرضة للهزائم ومستشعرة للفرار في المواقف. وإنما تنوسي ذلك لما داخل الدول من الترف. وذلك أنها حين ما تكون بدوية وسكناتهم في الخيام يستكثرون من الإبل، وحالهم في السفر والحروب هي حالهم في المقام والسم من سكى النساء والولدان معهم. فإذا حصلوا على ترف الملك وألفوا سكى الأمصار والقصور، وتركوا شأن البادية والحلل، فينسبون لذلك عهد الإبل، ويشق عليهم كسبها. ولا يمكنهم سفر النساء دونها، مع ما يحملهم لمنك والترف عليه من اتخاذ الفساطيط والأخبية، فيقتصرون على الظـهر الحامل لها. فلا تغني غناء لأن الظـهر والفساطيط لا تحمل على الاستماتة دونها كما يحمل عليها أهل المال، فيخف لذلك صبرهم وتصير الهبـعات مفسدة لهم مخزومة لصفوفهم. والله على كل شيء قدير.

[37] في الخنادق على المعسكر

كان من مذهب لأول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عندما يتقاربون لمزحف حذر من معرفة البيت والهجوم على المعسكر بالليل. وفي ظلمته ووحشته من مصاعفه الخوف، فمؤد للموسى بالقرار، ويحد للموسى في النضمة ستر من عده. فإذا تساؤوا في ذلك رجع المعسكر ووقعت لهزيمة. فكأنوا لذلك يحتمرون الخنادق على معسكرهم إذا نزلوا وصروا، نيتهم ويديرون حذر نطاقاً عليهم من جميع جهاتهم حصاً أن يحاطهم العدو بالبيات فيتخذلون وكانت للمدون في أمثال هذا قوة وعينه اقتدار باحتشاد الرجل وجمع الأيدي عليه في كل منزل من منازلهم بما كانوا عليه من وفور لعمران وضخمة لمك. فما خرب العمران وتبعه ضعف الدول وقلة الجنود وعدم الفعلة، نسي الشأن جملة كأنه لم يكن. والله خير القادرين.

وقد أشد إلى ذلك أبو بكر الصيرفي، شاعر ملتونة من أهل الأندلس في كلمة يمدح تاشفين بن عيسى بن يوسف ويصف ثباته في حرب شهداء، ويذكره بأمر الحرب بوصايا وتحذيرات. يقول في مطلعها²:

(1) الجيوش [ب].

(2) يقول [ب].

يا يهها لملأ الذي يتفجع من منكم لملك لهمام الأروع
ومن الذي عد العدو به دحى فاقصر كر وهو لا يتزعزع^١
ومنها في سيدة حرب

أهدبك من أدب السياسة ما به كنت موك العرس قبلك تونغ^٢
ليس من خلق المصاعمة التي وصى بها صنع الصنيع
تسع والهدوي الرقيق فيه أمضى على حد الدلاص وأقطع
واركب من الخيل سواق عدة حصاً حصياً ليس فيه مدفع
حديق عيبك إذا صرت محلة سنان تتسع طافراً أو تتسع
ولواد لا تعبره و سول عنده بين العدو وبين حيثك يقطع
وحجر من الضلاع أهل شهامة لصدق فيهم شيمة لا تخدع
لا نسمع الكذاب حءك مرحفاً لا رأي للمكذوب فيما يصنع
واجعل محزنة حيوش عشبة ووراءك الصدق الذي هو أوسع
وإذا تصايقت الحيوش معرك ضلك فأطراف الرماح توسع
وصدمه أول وهلة لا تكثر شيئاً فيظهار لنكور يصعضع

وفي هذا ليست مخالفة لرأي كبار لعرب في حرب فقد قال عمر
لأنبي عبيد بن مسعود الثقفي لما ولاه حرب فارس و لعراق، فقال له: اسمع
من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، واشركهم في الأمر، ولا تحين
مسرعة حتى يتين، فإنها الحرب، ولا يصح لها إلا الرحل المكيث الذي يعرف

^١ يتصعصع [ب]

^٢ تونغ [ب] عهده

لأنبي أدري بها نكها ذكرى تعص اسمين وتضع

^٣ سرور [ب]

^٤ سنان [ب]

^٥ وفي قوله فأصدمه وبه عذفة [ب]

الفرصة ولكف . وقال له في أخرى : إنه لم يعني أن أؤمر سليطاً إلا سرعته
في الحرب وهي التسرع في حرب إلا عن بين ضيع وله لولا ذلك
لأمرته ولكن الحرب لا يصلحها إلا لمكيث هذا كلام عمر . وهو شاهد أن
التشقل في الحرب أولى من الخوف ، حتى يتبين عكس ما قاله الصيرفي . إلا
أن يريد أن الصدم بعد البيان ، فله وجه والله أعلم

[38] في أسباب الغلب في الحروب

يحب أن تعلم أن شيئين في العالم بما وقوعهما بالسهل والانعاق،
لأنسب ولا علة، وهما الغلب في الحروب والمصيبة لأهل الشهرة والمذكر.
فأما لغلب في الحروب، فإن أسبابه في الأكثر محتمة من أمور طاهرة، وهي
الجيوش وكثرتها والأسلحة وترتيب المصاف وصدق القتال، وما جرى محجى
ذلك. ومن أمور خفية، وهي إما حيل الشر وحدهم في الإرجاف ولتشجيع
التي يقع بها التحدبل، وإما أن تكون تلك الأسباب الخفية "مور" سماوية لا
قدرة للشر على اكتسابها، تنقى في القلوب فستولي الرهب عليهم من
أجبتها، فتختل مراكزهم وتقع الهزيمة وكثير ما تقع الهزيمة عن هذه الأسباب
الخفية لكثرة ما يعتمد كل واحد من الفريقين فيها حرصاً على الغلب. فلا بد
من وقوع التأثير في ذلك لأحدهما ضرورة. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم:
الحرب حدة. ومن أمثال العرب رب حيلة أفع من قبيلة

ووقوع الأشياء عن الأسباب الخفية هو معنى السحت، كما تقرر في
موضعه، فاعتبره وتفهم من وقوع لغلب عن الأمور لسماوية كما شرحناه
معنى قوله صلى الله عليه وسلم: نصرت بالعرب مسيرة شهر، وما وقع من
غيبه للمشركين في حياته، وغلب المسلمين إياهم بعده كذلك في الفتوحات

فإن الله سبحانه وتعالى تكفل لسيه بإلقاء الرعب في قلوب الكافرين حتى يستولي على جميعهم فيهنزموه، معجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لرعب في القلوب سبباً للهزائم في الفتوحات الإسلامية كلها. إلا أنه حتمي عن نعيون خاصة.

وقد ذكر الطرطوشي أن من أسباب اللعب في الحروب أن تفصل عدة الفرسان المشاهير في أحد الجانبين على عدتهم في الجانب الآخر، مثل أن يكون أحد الجانبين فيه عشرة أو عشرين من الشجعان المشاهير وفي الجانب الآخر ثمانية أو ستة عشر فالجانب الزائد ونحو واحد يكون له اللعب وعاد في ذلك وأدا، وهو ليس بصحيح وإنما الصحيح لمعتبر في ذلك جانب العصبية، بأن تكون في أحد الجانبين عصبية واحدة جامعة نكهم، وفي الجانب الآخر عصائب متعددة، والجانب معتمدين في تعدد فإن الجانب الذي عصبية واحدة أقوى وأعلب من جانب الذي هو عصائب متعددة لأن العصائب إذا كانت متعددة يقع بينها من السدود ما يقع في الواحدان لمتفرقين الفاقدين لعصبية، إذ تنزل كل عصاة منهم منزلة الواحد، ويكون جانب الذي عصائه متعددة لا يقوم الجانب الذي عصبية واحدة لأجل ذلك فتهمهم، وأعدم أنه أصبح في الاعتبار مما ذهب إليه الطرطوشي ولم يحمله على ذلك إلا سبباً شدة لعصبية في حيله ولده، وأنهم إما ردود الدرع وحمية ولطافة إلى الواحدان وجماعة الناشئة عنهم لا اعتبار عصابة ولا سب.

وهذا، وأمثلة ليس من عتبه في الفصل، إذ هو من الأسباب نظاهرة مثل اتفاق خيشين في العدد، وصدق لقنا، وكثرة لأسحة، وما أشبهها، ونحن قد قدرنا لك الآن شيئاً منها لا يعارض الأسباب الخفية مثل خيل واحد، ولا الأمور السمية من الرعب والخذلان الإلهي، فاعلمه وتفهمه حول الكون، والله مقدر لبس والنهر

وما الصيت ولشهرة أيضاً فمن أن تصادف موضعها في أحد من صفات الناس من الملوك والأعمدة أو الصلحاء أو المستحقين لفصائل على العموم

فكثير ممن اشتهر وبعد صيته ليس هناك، وكثير ممن اشتهر بالشر وهو بخلافه، وكثير ممن تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها. وقد تصادف موضعها وتكون طبقاً على صاحبها. والسبب في ذلك أن الشهرة والصيت إنما هي بالأخبار. والأخبار يدخلها الذهول عن المقاصد عند التناقل، ويدخلها التعصب والتشيع، وتدخلها الأوهام، ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للأحوال الخفية بالتقليس والتصنع أو لجهل الناقل، ويدخلها لتقرب لأصحاب التجلة والمراثب الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين الأحوال وإشاعة الذكر بذلك. ولنفسوس مولعة بحب الشناء، والناس متطاولون إلى الدني وأسدبها من حاه أو ثروة، وليسوا في الأكثر براغبين في الفضائل ولا منافسين في أهدبها. وأين مطابقة الحق مع هذه كلها. فتكون هذه الأسباب أو بعضها أساساً حفة حصول الشهرة. وكلما يقع بسبب خفي، فهو الذي عبر عنه صاحب، كما تقرر.

[39] في الجباية وسبب قلتها وكثرتها

علم أن الحياة أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة، وأحر دولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة. والسبب في ذلك أن الدولة إن كانت على سن الدين، فليس إلا المغارم الشرعية، وهي قليلة الوزائع، لأن مفدر الزكاة من المال قليل كما علمت. وكذا زكوات الحبوب والمائشية، وكذا الجزى وجميع لمغارم الشرعية، وهي حدود لا تتعدى. وإن كانت على سن العصية والتعلب، فلا بد من البداوة في أولها. كما تقدم. والبداوة تقتضي لمسامحة والمكارمة وخفض الجناح والتجافي عن أمور الناس والغفلة عن تحصيل ذلك. لا في النادر. فيقل لذلك مقدار الوظيفة الواحدة والوزيعة التي يجتمع المال من مجموعها. وإذا قلت الوزائع والوظائف على الرعايا نشطوا لعمل ورغبوا فيه، فيكثر الاعتماد ويتزايد لمصوول الاغتباط بقلة المغمرم. وإذا كثر الاعتماد كثر أعداد تلك الوظائف والوزائع فكثرت الجباية التي هي جمعتها.

فإذا ستمرت الدولة واتصلت، وتعاقب ملوكها واحداً بعد آخر، واتصفوا بالكيس وذهب سر البداوة والسداجة وخلقها من الإغضاء والتجافي، وحاء لمث لمصوص والحضارة الداعية إلى الكيس، وتخلق أهل الدولة حينئذ

بخلق التحذلق، وتكثرت عوائدهم وحاجاتهم بسبب ما نغمسو فيه من النعيم والترف، فيكثرون الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والأكررة والفلاحين وسائر أهل المغارم. ويزيدون في كل وظيفة ووزيعة مقداراً لتكثر لهم الجباية. ثم تدرج الزيادات فيها بمقدار بعد مقدار لتدرج عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والإنفاق بسببه، حتى تثقل المغارم على الرعايا وتبعضهم، وتصير عادة مفروضة. لأن تلك الزيادة تدرجت قليلاً قليلاً، ولم يشعر أحد بمن زادها على الثمين، ولا من هو واضعها، إنما تثبت على الرعايا كأنها عادة مفروضة.

ثم تزيد إلى الخروج عن حد الاعتدال، فتذهب عبطة الرعايا في الاعتماد لذهب الأمل من نفوسهم بفلة النفع فيه إذا قابل بين نفقته ومعارمه وبين ثمرته. فتنبض كثير من الأيدي عن الاعتماد جملة، فنقص جملة الحدية حينئذ بنقصان بعض تلك الوزائع منها. وربما يزيدون في مقدار الوطائف إذا رأوا ذلك النقص في الجباية، ويحسبون جبراً لما نقص، حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة إلى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة لكثرة الإنفاق حينئذ في الاعتماد وكثرة المغارم وعدم وفاء الفائدة المرجوة به. فلا تزال الجملة في نقص ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها إلى أن يستفص العمران بذهاب الأموال من الاعتماد. ويعود وبال ذلك على الدولة، لأن فائدة الاعتماد عائدة إليها. وإذا فهمت ذلك علمت أن أقوى الأسباب في لاعتماد تقبيل مقدار الوظائف على المعتمدين ما أمكن. فبذلك تنشط النفوس إليه ليقينها بإدراك المنفعة فيه. والله مالك الأمور.

[40] في ضرب المكوس آخر الدول

اعلم أن الدول تكون في أوطان مدوية، كما قنناه، فتكون لذلك قسبة
 حاجات لعدم لتعرف وعوئده. فيكون حرجها ويقفها قسلاً، فيكون في
 حدية حينئذ وفاء، نأريد منها، من يفصل منها كثير عن حاجتها.
 ثم لا تست أن تأخذ مدين الحاصرة و لتعرف وعوئده، ونحدي على هج
 الدول السالفة قبمها. فيكثر لذلك خرج الدولة. وكثير حرج السبطون
 خصوصاً كثرة بالغة بنفقته في خاصته وكثرة عطائه. ولا نفي بذات الجبابة،
 فتحتاج لدولة إلى الزيادة في الجبابة لما تحتاج إليه للحماية من لعطاء. فتزيد
 في مقدار الوظائف ولوزائع، ولأ، كما قنناه، ثم يزيد الخرج بالتدريج، في
 عوائد لتعرف وفي العطاء للحماية، ويدرك الدولة لهرم وتضعف عضبتها
 عن جدية لأموال من الأعمان والخاصية، فتقل الجبابة وتكثر العوائد، وتكثر
 بكثرتها أرزاق الجند وعطوئهم. فيستحدث صاحب الدولة نوعاً من جبابة
 يضربها على البيعات، ويفرض لها قدر معلوماً على الأثمان في الأسواق
 وعلى عيان السبع في الأبواب. وهو مضطر لذلك بى دعاء إليه ترف لدس
 من كثرة العطاء مع زيادة جيوش والحماية. وربما يزيد ذلك في أواخر الدول

ريادة بلعة، فتكسند الأسواق بفساد الآمال، ويؤدد ذلك باحتلال العمران ويعود على الدولة. ولا يزال ذلك يتزايد إلى أن تضمحل.

وقد كان وقع منه بأمصار المشرق في أخريات الدولة العباسية والعبيدية كثير، وفرضت المغارم حتى على الحاج في الموسم. وأسقط صلاح الدين ثلث الرسوم جملة وأغاضها بآثار الخير. وكذلك وقع بالأندلس لعهد الطوائف، حتى محى رسمه يوسف بن تاشفين، أمير المرابطين. وكذلك وقع بأمصار الجريد من إفريقية لهذا العهد، حين استبد بها رؤساؤها، حتى من له على ههنا بالدخول في إيالة مولانا أمير المؤمنين أبي العباس أبده له ورجوع إلى منكة عدله، فتنفس عنهم مخفق البغي ودهبت آثار المكوس ولطم

والله لطيف بعباده.

[41] في أن ثروة السلطان وحاشيته إنما تكون في
وسط الدولة

والسبب في ذلك أن الجباية في أول الدولة تتوزع على القبيس وأهل
العصبة بمقدار غنائمهم وعصبيتهم، ولأن الحاجة إليهم في تمهيد الدولة كما
قضاء من قبل. فرئيسهم في ذلك متجاف لهم عما يسمون إليه من الجدية،
معاص عن ذلك بما هو يروم من الاستبداد عليهم. فله عليهم عزة، وه إليهم
حاجة. فلا يطير في سهمانه من الجباية إلا الأقل من حاجته. فتحد حاشيته
لذلك ودياله من الورراء والكتاب والموالي مملقين في الغالب وجاههم متقدص
لأنه من جاء مخدومهم، ونطاقه قد ضاق بمن يزاحمه فيه من أهل عصبيته.
فيذا استفحلت طبيعة الملك وحصل لصاحب الدولة الاستبداد على قومه،
قبض أيديهم عن الجبايات إلا ما يطير لهم بين الناس في سهمانهم، وتقل
حظوظهم إذ ذاك لقلة غنائمهم في الدولة بما انكبح من أعتهم وصار الموالي
والصنائع مساهمين لهم في القيام بالدولة وتمهيد الأمر. فيتفرد صاحب الدولة
حينئذ بالجباية أو معظمها، ويحتوي على الأموال ويحتجها للنفقة في مهمات
الأحوال. فتكثر ثروته وتمتلئ خزائنه ويتسع نطاق جاهه ويعتز على سائر
قومه. فيعظم حال حاشيته وذويه، من وزير وكاتب وحاجب ومولى وشرطي،
ويتسع جاههم ويقتنون الأموال ويتأثلونها.

ثم إذا أخذت الدولة في الهرم بتلاشي العصبية وفناء القبيل المهددين للدولة، احتاج صاحب الأمر حينئذ إلى الأعوان والأنصار لكثرة الخوارج والمنازعين والثوار وتوهم الانتقاص. فصار خراجه لظهرائه وأعوانه، وهم أرباب السيوف وأهل العصبية، وأنفق خزائنه وحاصله في مهمات جبر الدولة. وقلّت مع ذلك الجباية لما قدمناه من كثرة العطاء والإنفاق، فيقل الخراج، وتشتد حاجة الدولة إلى المال. فيتقلص ظل النعمة والترف عن الخواص والحجّاب والكتّاب بتقلص الجاه عنهم وضيق نطاقه على صاحب الدولة.

ثم تشتد حاجة صاحب الدولة إلى المال، ويتفق أبناء البطانة والحاشية ما تأثر بأوهم من الأموال في غير سبيلها من إعانة صاحب الدولة، ويسمون على غير ما كان عليه آبائهم وسلفهم من المناصحة، ويرى صاحب الدولة أنه أحق بتلك الأموال التي اكتسبت في دولة سلفه ويجاههم، بمصطنعهم ويتزعمهم منهم لنفسه شيئاً فشيئاً وواحد بعد واحد على نسبة رتبهم وتكرار الدولة لهم ويعود ويال ذلك على الدولة بقضاء حاشيتها ورحلاتها وأهل العمة والثروة من بطانتها. ويتقوَّض بذلك كثير من مباني المجد بعد أن يدعمه أهله ويرفعوه.

وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة الأموية بالأندلس عند رحلتها أيام الطوائف في بني شهيد وبني أبي عبدة وبني حدير وبني برد وأمثالهم. وكذا في الدولة التي أدركنها لعهدنا، سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. ولم يتوقعه أهل الدول من أمثال هذه المعاطب، صار الكثير منهم ينزعون إلى الفرار عن الرتب والتخلص عن ريقه السلطان بما حصل بأيديهم من مال الدولة إلى قطر آخر، ويرون أنه أهنا لهم وأسلم في اتقاه وحصول ثمرته. وهو من الأغلاط الفاحشة والأوهام المفسدة لأحوالهم ودنياهم.

(1) وأسلم لإنفاقه. [ب] هنا تنهي الجملة والمقرة في [ب].

واعلم أن الخلاص من ذلك بعد الحصول فيه عسير ممتنع حصول وإن صاحب هذا الغرض إن كان هو الملك نفسه، فلا تمكنه الرعية من ذلك طرفه عين، ولا أهل العصية المزاحمون له. بل في ظهور ذلك منه هدم مبكّر وتلاف نفسه مجري العادة بذلك. لأن ربة الملك يعسر إخلاص منها، سيما عند استفحال الدولة وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجد والحلال والتخلف بالشر. وأما إن كان صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان وحاشيته وأهل الترتب في دولته، فقل أن يُخلّى بينه وبين ذلك. إما أولاً فمما يره الموك أن ذويهم وحاشيتهم، بل وسائر رعاياهم محالّيك نهم مضعون على ذات صدورهم. فلا يسمحون بحل ربقته من الخدمة، ضناً بأسرارهم وأحوالهم أن يصع عيها أحد وغيرة من خدمته لسواهم. ولقد كان سو أمة الأندلس يمنعون أهل دولتهم من السفر لقريضة الحج لما يتوهمونه من وقوعهم بأيدي بني العباس. فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم. وما أيج حج لأهل الدول من الأندلس إلا بعد فراغ شأن الأموية ورجوعها إلى الطوائف، وما، ثانياً، فإنهم وإن سمحوا بحل ربقته هو، فلا يسمحون بالنحاف عن ذلك من لما يرون أنه جزء من مالهم كما كان ربه جزءاً من دولتهم. بدنه يكتسب لا بها وفي ظل حاجها. فتقوم نفوسهم على انتزاع ذلك المال أو يفتنه كما هو جزءاً من الدولة ينتفعون به.

ثم إذا توهمنا أنه خلص بذلك المال إلى قطر آخر، وهو في لنادر الأقر، فتمتد إليه أعين الملوك بذلك القصر وتنتزعه إرهاباً وتخويفاً أو ظاهراً لما يرون أنه مال الجباية والدون وأنه مستحق للإنفاق في المصالح. وإذا كانت عيوبهم تمتد إلى أهل الثروة واليسار المكتسبين من وحوه المعاش، كما ذكرنا، فآخرى بها أن تمتد إلى ما الجباية والدون التي تجد السبيل إليه بالشرع والعادة.

ولقد حاول السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحياني، تاسع وعاشر موك الحفصيين بإفريقية، الخروج عن عهدة الملك والنحاس بمصر فراراً من ضيق صاحب النفور العربية لما استجمع لغزو تونس. فاستعمل اللحياني

الرحلة إلى ثغر طرابلس يوري بتمهيده، وركب السفن من هناك، وخلص إلى الإسكندرية بعد أن حمل جميع ما وجد بيت المال من انصامت والذخيرة وابتاع كنما كان بخزائنها من المتاع والعقار والجوهر، حتى الكتب. واحتمل ذلك كله إلى مصر، ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون⁽²⁾ سنة سبع عشرة من المائة الثامنة. فأكرم نزله ورفع مجلسه، ولم يزل يستخلص ذخيره شيئاً فشيئاً بالتعريض إلى أن حصل عليها. ولم يبق معاش ابن اللحياني إلا في جرابته إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين، حسبما نذكره في أخباره.

فهذا وأمثاله من جملة النوساوس الذي يعتري أهل الدول لما يتوقعونه من ملوكهم من المعاطب. وإنما يخلصون إن اتفق لهم الخلاص بأنفسهم. وما يتوهمونه من الحاجة، فغلط ووهم. والذي حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كاف في وجدان المعاش لهم بالجرایات السلطانية أو بإنجاه في انتحال طرق الكسب من التجارة والفلاحة. والدول أنساب.

لكن النفس راغبة إذا رغبتها وإذا تُرِدُّ إلى قليل تقنع

والله الرزاق ذو القوة المتين.

(2) قلاوون [ب].

